الدكتور محمود قاسم

الإمام
عبد الحميد بن باديس

الزعيم الرّوحى لحرب التحرير الجزائريّة



دار المعارف

الامام عبد الحميد بن باديس

الزعيم الروحي
لحرب التحرير الجزائرية

الامام عبد الحميد بن باديس

الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية

تأليف

الدكتور محمود قاسم

عميد كلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

الإهداء

إلى الشعب البطل

شعب الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كان أحد الأهداف الرئيسية للاستعمار الفرنسي للجزائر ، منذ بدء غزو هذا القطر العربي الإسلامي ، في ١٨٣٠ م ، محو الخصائص القومية والروحية لسكان هذا القطر من الأمة العربية ، وذلك تمهيداً لإدماجه نهائيًّا في الوطن الفرنسي . وقد ظلت هذه السياسة الاستعمارية مسيطرة لدى حكومة باريس ، ولدى المعمرين من الفرنسيين ، حتى برهنت حرب التحرير الجزائرية على فشلها . حقًّا إن الاستعمار الفرنسي للجزائر استطاع بجبروته وعسفه أن يفرض لغته على كثير من المثقفين في الجزائر وشمال إفريقية ، غير أنه لم يستطع أن ينال كثيراً من العقيدة الإسلامية رغم ما بذله المختصون في شئون الثقافة من محاولات لفصم العقلية الجزائرية ، عن طريق تمجيد التصوف الكاذب ، وإشاعة الخرافات والأباطيل ، على نحو ما نراه في مؤلفات « لويس ماسينيون » الذي خصص حياته للكتابة في الحلاج ، فجعله صورة من المسيح في الإسلام . وأعتقد أن ماسينيون ما كان يعنى بالحلاج قدر عنايته بتنفيذ مخطط استعماري أحكم صنعه . فقد ملأ كتابه الضخم عن الحلاج بحشد هائل من الخرافات والترهات والأباطيل ، حتى يعمق الهوة بين طائفتين توجدان بالجزائر : طائفة تتمسك بالقديم ، فتنساق ، حسب ظنه ، إلى اعتقاد أن هذه الخرافات والهذيانات هي صميم الإسلام ، وطائفة مثقفة بالثقافة الحديثة تتجه من جانبها إلى السخرية والزراية بهذا الإسلام الخرافي ؛ بل من الإسلام كله .

وقد بدأت فرنسا ، منذ الغزو ، تحارب الثقافة العربية ، فقضت على المراكز الثقافية المزدهرة في الجزائر منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وكانت مدينة تلمسان وقسنطينة من أشهر هذه المراكز . كذلك أغلقت نحواً من ألف مدرسة ابتدائية وثانوية وعالية كانت موجودة في الجزائر في سنة ١٨٣٠ . وقد حمَّل أحد الكتاب الفرنسيين ، وهو « بولار » فرنسا مسئولية تأخر الجزائر في القرن العشرين ، إذ يقول : « لقد أشاع دخول الفرنسيين ، في الأوساط العلمية والأدبية ، اضطراباً شديداً ،

فهجر معظم الأساتذة الأفذاذ مراكزهم هاربين . ولقد كان يقدر عدد الطلاب ، قبل ١٨٣٠ ، بمائة وخمسين ألف طالب أو يزيدون . ومهما يكن من شيء فلم ينج من المدارس القديمة سوى عدد قليل من المدارس الصغيرة ، وحرمت أجيال عديدة من التعليم » . وكانت فرنسا لا تسمح بفتح مدرسة قرآنية إلا بشروط مهينة ، تنتهى بأن تجعل هذا التعليم فى خدمة خطتها الاستعمارية ، وقد كتب محمد فريد فى جريدة اللواء فى عدد ١٢ أكتوبر ١٩٠١ ، يصف حالة التعليم فى القطر الجزائرى فقال : « ولو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل العربية فى جميع المعاملات ؛ بل ربما تندرس العربية بالمرة مع مضى الزمن . فلا الحكومة تسعى فى حفظها ، ولا تدع الأهالى يؤلفون الجمعيات لفتح المدارس » [1].

وكان من الضرورى لأى معلم مسلم يريد إنشاء مكتب لتعليم اللغة العربية من الحصول على رخصة يمنحها إياه عامل العمالة أو قائد الفيلق العسكرى ، وإلا اعتبر خارجاً على حدود القوانين الخاصة بالأهالى Les Lois d'Indigenat ، وكانت قوانين رهيبة . وكان من شروط منح رخصة التعليم أن يقتصر التدريس على حفظ القرآن لاغير ، مع عدم التعرض لتفسير آيات القرآن ، وبخاصة الآيات التى تدعو إلى التحرر ومقاومة الظلم والاستبداد ، وعدم دراسة تاريخ الجزائر والتاريخ العربى الإسلامى ، وجغرافية القطر الجزائرى والبلاد العربية ، وعدم تدريس الأدب العربى بجميع أنواعه ، وتحريم تدريس المواد العلمية والرياضية .

أما المدارس الفرنسية ومدارس الإرساليات التبشيرية ، التى حلت محل المدارس العربية ، فكانت لها برامجها الهادفة الواضحة . فهى تعنى ، فى المقام الأول ، بدراسة تاريخ فرنسا وحضارتها وعظمة جيوشها ، حتى تتشرب نفوس النشء بحبها ومحاولة السير فى ركابها ، مع الحرص على الحط من حضارة العرب والمسلمين. ومع ذلك، فقد توجس بعض المعمرين من الفرنسيين خيفة من تعليم الجزائريين فى مدارسهم ، إذ سوف يثير ذلك فى المدى البعيد كثيراً من المتاعب الاقتصادية والسياسية.

---

(١) أخذنا هذا النص من كتاب الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال إفريقية للأستاذ أنور الجندى سنة ١٩٦٥ ص ١٣٣ .

ومما يدل على أن فرنسا كانت حريصة كل الحرص على تنفيذ سياستها فى الجزائر لتحقيق إدماج هذا القطر فى فرنسا نهائياً ــ ما أصابها من فزع عندما استطاع الإمام بن باديس أن يفسد عليها خطتها ابتداء من سنة ١٩١٣ . لقد كانت لاتعبأ به أول الأمر ، وكانت تظن أنه لا يتميز فى شيء عن بقية الفقهاء الذين يدرسون القرآن فى المساجد . غير أنها فطنت إلى خطورة حركته عندما فجأها بتأسيس جمعية العلماء المسلمين فى سنة ١٩٣١ ، وفيما بين هذين التاريخين كانت فرنسا تنفذ سياسة تعليمية استعمارية تهدف إلى تحقيق السلطة والسلطان والسيطرة ، وإلى خلق رعايا يخدمون فرنسا بأبدانهم وأرواحهم . وهذا هو السبب الذى دعا الحكومة الفرنسية فى الجزائر إلى مقاومة حركة التعليم العربى والدينى التى اضطلعت بها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بكل عنف وعسف ، فأخذت تلاحقها وتحاول الحد من نجاحها ، فأصدرت قراراً فى سنة ١٩٣٣ يقضى بمراقبة الجمعية ، ويطارد هؤلاء الذين اتجهوا إلى تعليم الشعب لغته ودينه ، إما عن طريق فتح المدارس القرآنية ، وإما عن طريق الوعظ والإرشاد فى المساجد . واستطاعت الإدارة الفرنسية أن تحتكر الوعظ والإرشاد لعلماء الدين الرسميين ، وأن تحظر على العلماء اتخاذ الخطبة فى المساجد طريقاً إلى بعث الروح العربية الإسلامية فى ربوع الجزائر .

وعندما اشتد ساعد النهضة الجزائرية ، التى غرس الإمام عبد الحميد بن باديس بذرتها ، وتعهدها هو وأصحابه ، وعندما عجزت فرنسا عن مقاومة التيار العربى الإسلامى الذى أصبح مسيطراً فى توجيه سياسة المطالبة بحقوق المواطنين الجزائريين فى بلادهم ، ركبت متن الشطط ، فأصدر « شوطان » وزير داخلية فرنسا قراراً فى ٨ مارس سنة ١٩٣٨ بمنع تعليم اللغة العربية فى الجزائر ، واعتبارها لغة أجنبية ، مع أن الغالبية العظمى من الجزائريين فى ذلك الحين ، كانت تجهل اللغة الفرنسية . وهكذا ظل تسعة أعشار أبناء الجزائر لا يجدون مكاناً لهم فى المدارس ؛ بل كأنما أرادت فرنسا أن تنشئهم على التشرد والبطالة ، لكى تعدهم للهجرة إلى فرنسا من أجل العمل فى مصانعها كأيد عاملة رخيصة .

* * *

ولم يكتف الاستعمار بحرب الإبادة ، التى كان يسميها الحرب المطلقة ، أى الحرب من أجل الحرب ، ولم يقنع بحرق الزرع وتدمير القرى وقطع أشجار

الغابات والتخطيط للمجاعة الرهيبة فى عام ١٨٦٧ ، على النحو الذى دعا « جيل فيرى » فى سنة ١٨٩٢ ، إلى إظهار الحسرة على تلك الأفعال التى لا تليق بفرنسا ، ولا تتفق مع العدالة ، ولا مع السياسة بعيدة النظر — نقول إن الاستعمار لم يقف عند هذا الحد ؛ بل قاد حرباً أخرى ، هى الحرب الدينية التى تجلت فيها روح الحروب الصليبية . فأخذت تهاجم بعنف القيم والنظم الإسلامية . وقد أظهر توكفيل الذى لا يمكن اتهامه بروح المودة تجاه العالم العربى على حد تعبير فرحات عباس[١] استنكاره لأساليب هؤلاء الذين أخذوا على أنفسهم تدمير المجتمع الجزائرى فقال ، بعد أن عدّد كثيراً من المظالم التى لحقت بالشعب الجزائرى من الاستيلاء على أراضيه ، وعلى الأوقاف المحبوسة على التعليم ومنشآت الإحسان : « وقضينا على مؤسسات الإحسان ، وتركنا المدارس تتهدم ، وشتتنا الطلاب ، وانطفأت الأنوار حولنا ، وانقطع تخريج رجال القانون ، ومعنى ذلك أننا رددنا المجتمع الإسلامى أكثر بؤساً وهمجية مما كان عليه قبل أن يعرفنا » .

وقد فطن فرحات عباس ، كما فطن آخرون معه إلى أن موقف البورجوازية الفرنسية فى الجزائر كان مدعاة للعجب . فإن هذه البورجوازية نفذت أحكام الإعدام فى القسس ، وأحرقت الكنائس ، وحاولت محو الدين المسيحى فى فرنسا المسيحية . أما فى الجزائر فقد اتخذت مسلكاً مخالفاً ، فحولت المساجد إلى كنائس ومجدت المسيحية ، واستخدمت أموال المسلمين لتنصرهم ، وهكذا أحيت الروح الصليبية ، عندما رفعت علم المسيحية ضد الإسلام ، فى الوقت الذى ظلت تسخر فيه من المسيحية والإسلام فى آن واحد .

ويمكن تفسير هذا التناقض بأن المستعمرين أرادوا تبرير مسلكهم فى تحطيم الشعب الجزائرى واغتصاب أرضه وثروته بأن لبسوا مسموح المبشرين الذين يريدون تحقيق سعادة الآخرين رغم أنوفهم ، كأنهم كانوا يقتلونهم ، وهم يقولون : إنما نقتلكم محبة لكم ، وإشفاقاً عليكم .

ومما يدل على أن هذه السياسة كانت تسير هى الأخرى وفقاً لخطة مرسومة

---

(١) الظلمة الاستعمارية La Nuit Coloniale

أن السلطات الفرنسية رأت فى سنة ١٨٧٤ أن تغلق المحاكم الإسلامية فى منطقة القبائل لتستعيض عنها بمحاكم أخرى تلتزم بالعرف لا بالدين ، ولكم بذلت الإدارة الفرنسية من جهود لتفرق بين البربر والعرب ، بل ربما كان الأوفق أن يقال إنها هى التى ابتكرت هذه التفرقة بين مسلمى الجزائر بعد أن محا الإسلام ما بينهم من العصبية للجنس ، ومزجهم عن طريق المصاهرة . ولم يكن إصدار الظهير البربرى فى سنة ١٩٣٠ على إثر إخضاع ثورة الأمير عبد الكريم الخطابى ، إلا إحدى حلقات هذه السياسة ، فقد صرح الكاردينال « لا فيجرى » فى هذا العام نفسه : « علينا أن نجعل أرض الجزائر مهداً لدولة مسيحية تضاء أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل » .

أما فيما يتصل بقضاء فرنسا على ثورة الأمير عبد الكريم الخطابى ، فقد أظهر المعمرون فى الجزائر فرحتهم الغامرة بالقضاء على حرب الريف ، ورأوا فى الانتصار على الأمير عبد الكريم هزيمة كبرى للإسلام . وهذا هو ماعبرت عنه صحيفة الديبش Le Depêche فى مدينة قسنطينة فقالت[1] : « لقد سلم عبد الكريم دون شروط ، وجاء ليضع نفسه تحت حماية فرنسا ، وكان هذا هو ما كنا نتمناه . إن هذه الحادثة التاريخية لهائلة جداً ، وهى كما سبق أن قلنا تتجاوز نطاق مراكش بل كل شمال إفريقية ، إنها طعنة للإسلام فى الصميم . وعلينا الآن أن نعمل ما فى طاقتنا حتى لا ينهض بعد اليوم » . غير أن الإسلام قد نهض ، ولكن ما زال كثير من الدول فى أوربا الغربية تحارب الوطن العربى بكل صنوف الأسلحة ، شريفة وغير شريفة .

غير أن فرنسا لم تنجح فى هذه السياسة الروحية . حقاً ربما خدعت بعض المثقفين الجزائريين لفترة قصيرة ، منذ مطلع القرن العشرين ، فظن هؤلاء المخدوعون أن التجديد الإسلامى لن يتحقق فى الشمال الإفريقى إلا بعون من الاستعمار ، وقد خفى عن هؤلاء أن طبائع العمران لا تسير وفقاً لهذه الأمانى الرومانتيكية . ذلك أن العلاقة بين الغالبين والمغلوبين من جنسين مختلفين ، وثقافتين متباينتين ، لا تغتفر

---

(١) عدد ٢٨ مايو سنة ١٩٥٦ .

للغالب أن يتحرر من عقلية المغتصب ، لكى ينقلب من ذوى الفضل والمروءة . ونحن لا نقسو على أمثال هؤلاء الخياليين المخدوعين ، لكنّا نقول إنهم فعلوا ما ظنوه خيراً ؛ إذ كانت تعوزهم القدرة على تغيير الواقع ، أو ينقصهم فى الأقل ، عمق الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة التى تزودهم بالشجاعة العقلية النادرة ، تلك الشجاعة التى تتيح لهم صدق الالتحام بالجماهير، إن أمثال الإمام بن باديس وأصحابه هم الذين استطاعوا فى الثلاثينيات والأربعينيات أن يهبطوا إلى أعماق روح الشعب الجزائرى ، وأن يصعدوا بها ، وهم الذين أسهموا بأكبر قدر فى صنع الجيل الذى غيّر الواقع الجزائرى ، وعكس العلاقات بين فئة الغالبين والمغلوبين .

أما من خدعوا فى فرنسا فقد نسوا أن المضمون التاريخى للحركة الوطنية فى الشمال الإفريقى لا يتسق مطلقاً مع تلك الثقة المفرطة فى الحكم الاستعمارى الذى يقوم أساساً على استغلال الشعوب أبشع استغلال متى عجز عن إبادتها .

وإذا كنا قد أبحنا لأنفسنا أن نُذَكّر القوم بجراحات الماضى فذلك لكى نتبين فى أمانة حقيقة السياق التاريخى الرهيب الذى نبتت فيه فكرة بن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية . والتاريخ عظة ، وكوارث أمتنا العربية ومآسيها مع العالم الغربى لا تكاد تنقطع .

ويخبرنا فرحات عباس كيف كفر بإمكان تزعم فرنسا لحركة النهضة العربية الإسلامية فى الشمال الإفريقى عندما عاد بذهنه إلى موقف المعمرين الفرنسيين بالجزائر بعد هزيمة الأمير عبد الكريم ، فهو يرى أن فرنسا لم تترك قبل هذه الهزيمة أو بعدها أية مناسبة لكى تشعر الجزائريين بهزيمتهم ، وبأنهم قوم غير مرغوب فيهم فى وطنهم . فإلى جانب سياسة التجويع والتجهيل والطرد إلى حافة الصحراء وتوجيه مئات الألوف من الجزائريين الذين ضاقت بهم سبل العيش فى وطنهم نحو ميادين القتال أو نحو أحط أنواع العمل فى مصانع فرنسا ، كانت السلطة الفرنسية فى الجزائر تعد العدة للاحتفال المئوى لاحتلال العاصمة .

هذا وقد اعترف فرحات عباس فى كتابه « الظلمة الاستعمارية » بأن هذه الإهانات الموجهة إلى الإسلام وإلى القومية العربية منذ الاحتلال حتى سنة ١٩٣٠

هى التى مهدت لقيام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، فكانت ، فى رأينا نحن ، الحل الطبيعى لتلك الحلقة المفرغة التى وقف أمامها فرحات عباس متسائلا : « لكى نُسمع الآخرين أصواتنا لا بد لنا من أن يكون لنا من يمثلنا (فى البرلمان الفرنسى) ، لكن يجب أن نكون قادرين على إسماع الآخرين أصواتنا حتى يكون لنا من يمثلنا » .

وأيًّا كان الأمر ، فإن ما يقوله فرحات عباس فى كتابه المشار إليه فى سنة ١٩٦٢ هو ما استطاع بن باديس أن يغرسه فى نفسه غرساً ، وكأن ما يقوله فرحات عباس هنا ليس إلا صدى لما قاله بن باديس منذ بدء حركته الإصلاحية الثورية : « إن الجزائر بلد عربى . ومن ذا الذى يفكر فى إنكار هذه الحقيقة ، وهى أرض إسلامية أصيلة . وذلك حق أيضا . ومهما يكن من إرادة الإمبريالية فى الماضى والحاضر ، ومهما يكن من قوة حرابها ، فإن هذه الظاهرة التاريخية تظل صادقة تمام الصدق . إن الاستعمار الفرنسى لم يدخر جهده حتى يستعبد الجزائريين ، وحتى ينتزع من قلوبهم الإسلام والعروبة . وقد حاول الاستعمار جهده ، طيلة قرن من الزمان ، لكى يصل إلى هذه الغاية ، ولم يكتف الاستعمار باستخدام القوة وتبريرها من الوجهة القانونية ؛ بل أراد أن يبرر مسلكه ، وأن يجعل ضم الجزائر إليه أمراً مشروعا[1] » . ونقول نحن : إن الاستعمار حاصر الجزائر أكثر من قرن من الزمان ، وإن رجلا فذًّا بدأ وحده يفك هذا الحصار فى إخلاص وعزم وأمانة وشرف . وهذا هو السر الذى كان سبباً فى أن جمع قلوب الأمة حوله ، فرفعته فوق خلافات الأحزاب والاتجاهات التى لا بد من أن تحدث عندما تريد أمة الخلاص من ربقة الاستبداد والذل .

وأعتقد أن بن باديس أجاد رسم خطة رفع الحصار فى أشد الأوقات يأساً وقنوطاً . لقد أدرك بتدينه الصادق الملهم أن التفاؤل والعمل الوليد المستمر هما أساس كل شىء .

* * *

وبعد فقد أردت بهذه المقدمة التى أوجزت فيها قدر الطاقة أن أهيئ ذهن

---

(١) كتاب « الظلمة الاستعمارية » لفرحات عباس .

القارئ للجو الروحي والفكرى الذى تمت فيه معجزة القرن العشرين ، وأعنى بها تحرير الجزائر ، بعد أن دفع أبناؤنا ثمناً غالياً من دمائهم وشهدائهم .

وقد خصصت الفصل الأول للحديث عن حياة بن باديس ودراسته ، واشتغاله بالصحافة ، وتأسيسه لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ومسلكه العملى فى بناء الأمة ابتداء من الصفر . أما الفصل الثانى فقد أردت أن أعرض فيه للسمات الأساسية فى شخصية هذا المصلح الثائر ، حسبما أدانى إليه فهمى ، وما سمعت عنه من بعض تلاميذه وأصدقائه ، عندما أتيح لى زيارة الجزائر فى العام الماضى . كذلك أشرت فيه إلى منهجه فى الإصلاح ، وطريقته لإنقاذ الجزائر . أما الفصل الثالث فقد عالجت فيه فكره السياسى ، وما قام به من عمل سياسى جعله زعيماً للنهضة الجزائرية المعاصرة.

وقد رأيت أن أخصص فصلا رابعاً للأساس الفلسفى الذى بنى عليه الإمام بن باديس فكرة تحرير الجزائر عن طريق تصحيح المفاهيم الروحية . فكلنا يعلم أن شعار حرب التحرير الجزائرية هو قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، وهذا الشعار مرتبط بفكرة القضاء والقدر من جانب ، وبحرية الإنسان واختياره من جانب آخر . وقد أتيح لى أن أعقد مقارنة فى هذا الموضوع بين كل من بن باديس والإمام الماتريدى وابن رشد . لقد عاش الماتريدى فى القرن الثالث الهجرى وابن رشد فى القرن السادس الهجرى ؛ فى حين عاش بن باديس فى القرن الرابع عشر الهجرى . والأول كان فى المشرق ، والثانى بالأندلس ، والثالث بالجزائر . لكنهم اجتمعوا على فكرة واحدة ، وهى أن الاعتراف بالقضاء والقدر ليس معناه إنكار حرية الإنسان وقدرته على تغيير الواقع ، أو التنكر للعلم والبحث . وهذا هو موضوع الفصل الخامس

وأخيرا ، رأيت أن أقدم فى الفصل السادس بعض نصوص من كتابات بن باديس . وأهم سمة فيها هى أنها من السهل الممتنع ، وأنها ليست مجرد نصوص تكتب ، وإنما هى نصوص تسرى ، بل سرت فى النفوس فأحيتها .

وأرجو أن يغفر لى أصدقائى الجزائريون أننى ربما لم أف بما وعدت من كتابة مفصلة عن بن باديس ، ولعلى أعود مرة أخرى لأفصل ما أوجزت .

٣٠ يونيه سنة ١٩٦٧ — محمود قاسم

الفصل الأول
الإمام عبد الحميد بن باديس

١ – مولده :

ولد عبد الحميد بن باديس فى الخامس من ديسمبر سنة ١٨٨٩ بمدينة قسنطينة فى أسرة ذات جاه وشهرة بالعلم والفضل ، وترجع فى أصولها إلى المعز بن باديس الصنهاجي مؤسس الدولة الصنهاجية الأولى، التى خلفت الأغالبة على مملكة القيروان . وقد تميز كثير من أجداده بالعلم. ومنهم أبو العباس ، بن باديس من كبار قضاة قسنطينة وأكثر علمائها شهرة . وقد ساعده ثراء أسرته على أن يتحرر من الحاجة إلى طلب الوظيفة من الإدارة الفرنسية ، وعلى أن يخصص حياته بأسرها لإحياء الروح الجزائرية ، وأن يعد أمته للمقاومة الفعالة التى انتهت بتحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسى بعد مائة وثنتين وثلاثين سنة .

وقد استطاع بصادق فطرته وإخلاصه أن يهتدى إلى السلاح الناجع الذى حطم به أسطورة الجزائر الفرنسية ، تلك الأسطورة التى حاولت فرنسا أن تفرضها على الجزائريين ، والتى نجحت فى أن تجر إليها نفراً من السياسيين المحترفين .

ولقد وضع بن باديس خطته على أساس مبتكر يتلخص فى أن يحاصر فرنسا فى رفق وعزم صارم ، فى الوقت الذى تظن هى فيه أنها تحاصر الجزائر. ولم تفطن فرنسا إلى مهارة هذه الخطة إلا بعد فوات الوقت ، فوجدت نفسها محاصرة ؛ بعد أن نحّى بن باديس أعوانها طائفة بعد أخرى . وكان من الضرورى أن يفلح فى تنفيذ خطته بعيدة المدى ، وهى القيام بانقلاب جذرى يرتكز، فى المقام الأول والأخير ، على إعداد جيل صالح ينهض نهضة إسلامية عربية، بحيث يأخذ من عظمة الماضى ، ومن يقظة الحاضر ، ما يعصمه من الزلل والانحراف ، ويسير به فى طريق المستقبل المشرق . وقد استمد قوته كلها من العودة إلى مذهب السلف ، وكشف عن هذه القوة الهائلة التى حققت يقظة الجزائر ، بعد أن آتت دعوته ثمارها . فهو يقول

فى سنة ١٩٣٨ : « إنّا بالأمس حين لم نلتفت هذه اللفتة إلى ماضينا وقوتنا السماوية ما كنا نرهب أحداً، ولا نستطيع أن نُشعر بوجودنا أحداً . أما اليوم فبهذه اللفتة القصيرة إلى تراثنا المجيد استطعنا أن نعلن عن وجودنا ، ونخيف بعد أن كنا نخاف » .

ب — دراسته :

وقد بدأ دراسته الأولى فى قسنطينة فحصل الثقافة العربية الإسلامية ، وأخذ عليه أحد أساتذته ، وهو الشيخ حمدان الونيسى ، عهداً ألا يعمل موظفا فى الحكومة ، حتى يتفرغ لخدمة دينه وأمته ، بعيداً عن كل تأثير خارجى قد يفسد عليه حكمه ، أو يبعده عن غايته ، فيميل به عن جانب الحق . ونفذ عبد الحميد بن باديس هذا العهد ، وطبقه مع من كان يتوسم فيه الخير من تلاميذه .

ولما هاجر أستاذه إلى الحجاز ارتحل بن باديس إلى جامعة الزيتونة فى عام ١٩٠٨ ، وكان حينئذاك فى التاسعة عشرة من عمره . وهناك تتلمذ على الشيخ محمد النخلى والشيخ طاهر بن عاشور . وكان أثر الأول فى نفسه عظيماً . غير أنه يمكن القول بأن الدراسة فى جامعة الزيتونة لم تكن فى المستوى الذى تتطلبه نزعته العلمية والإصلاحية. وفيما بعد ، نجده ينقد منهج القوم هناك فى تدريس العلوم الإسلامية ، وينعى عليهم أنهم يتركون اللب من اجل القشور ، ويغرقون فى بحار من الجدل والتشعيب تنسيهم أصالة الفكر الإسلامى ، ومدى تأثيره فى النفوس ، وقدرته على تغيير مقادير الشعوب .

ثم عقد النية على السفر إلى مكة لأداء فريضة الحج ، فاتجه إلى الحجاز فى سنة ١٩١٢ ، ولقى شيخه حمدان الونيسى وغيره من علماء مصر والشام ، وتتلمذ على الشيخ حسين أحمد الهندى . واستطاع أن يغمر نفسه المتوثبة فى تيار الحركة السلفية المزدهرة فى الشرق . ويقال إنه طلب إلى أستاذيه الشيخ حمدان والشيخ الهندى النصيحة فيما عسى أن يفعل ، فأشار عليه الأول بالبقاء فى المدينة المنورة ، ونصحه الثانى بالعودة إلى الجزائر من أجل العمل ؛ إذ لا خير فى علم ليس بعده عمل . وقد سجل لنا بن باديس قصة هذا اللقاء ، فقال فى يوم الاحتفال بافتتاح دار الحديث فى تلمسان فى خريف سنة ١٩٣٧ ، وهو الاحتفال الذى وصفه هو نفسه بأنه عيد النهضة الجزائرية : « أذكر أننى لما زرت المدينة المنورة ، واتصلت فيها

بشيخى الأستاذ حمدان الونيسى المهاجر الجزائرى، وشيخى حسين أحمد الهندى ، أشار على الأول بالهجرة إلى المدينة ، وقطع كل علاقة لى بالوطن ، وأشار على الثانى ، وكان عالماً حكيماً، بالعودة إلى الوطن وخدمة الإسلام فيه والعربية بقدر الجهد ، فحقق الله رأى الشيخ الثانى ، ورجعنا إلى الوطن بقصد خدمته، فنحن لانهاجر ، نحن حراس الإسلام والعربية والقومية . . . فى هذا الوطن »[١] .

حـ ـ عودته إلى الجزائر :

ولما عاد إلى الجزائر فى عام ١٩١٣ أقام فى مدينة قسنطينة ، وبدأ ينفذ خطته التى ربما كانت سرًّا بينه وبين نفسه ، ويقول الشيخ بشير الإبراهيمى إنه لقيه فى الحجاز فى هذه الحقبة ، وإنهما اتفقا على وضع الخطة معاً . وإنه اجتمع بابن باديس بعد عودته من الحجاز ، ويشهد الله على أن تلك الليالى من سنة ١٩١٣ م هى التى وضعت فيها الأسس الأولية لجمعية العلماء الجزائريين التى لم تبرز إلى الوجود إلا فى سنة ١٩٣١[٢] وأخذ بن باديس نفسه بتعليم النشء حسبه لوجه الله ، وخدمة للوطن. وكان يلقى دروسه فى مسجد سيدى قموش وفى الجامع الكبير بالمدينة لفترة من الزمن . وكان يبدأ دروسه بعد صلاة الفجر ، ويظل طيلة نهاره يعلم الأطفال الدين وعلوم العربية متدرجاً معهم حسب مستوياتهم المختلفة ، وكان بمثابة أستاذ وحيد ينهض بعبء التدريس فى مدارس مختلفة تنتقل إليه بدلا من أن ينتقل إليها . ثم إنه كان لايقطع عمله إلا لساعة بعد صلاة الظهر يتناول فيها قليلا من الطعام ، ثم يستأنف عمله حتى صلاة العصر ، ثم صلاة المغرب والعشاء . غير أن عمله ما كان ينتهى عند هذا الحد ؛ إذ كان يستأنف التدريس لكهول قسنطينة وشيوخها من التاسعة مساء حتى منتصف الليل يفسر لهم القرآن الكريم فى الجامع الأخضر ، ويدعوهم إلى الله وإلى تغيير نفوسهم حتى يغير الله ما بهم . وهكذا نفهم لماذا كان شعار الثورة الجزائرية قوله تعالى : « إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، لأن بن باديس ربط فكرة القضاء والقدر بفكرة الأسباب والقوانين الطبيعية وحرية الإنسان

---

(١) الشهاب ، الجزء الثامن المجلد الثالث عشر ١٣ شعبان ١٣٥٦ ، أكتوبر ١٩٣٧ ص ٣٥٤ .

(٢) مجلة المجمع اللغوى الجزء الحادى والعشرون سنة ١٩٦٦ ص ١٤٠ ، ١٤١ .

وقدرته على تغيير واقعه . وأتاحت له ثروته أن يمد نشاطه إلى المدن الجزائرية الأخرى. كالعاصمة ووهران وتلمسان ، حيث كان يلقى فيها دروسه فى التفسير كل أسبوع ، مع الحرص على السفر إليها فى أثناء الليل بعد الانتهاء من دروسه بالجامع الأخضر لأنه كان على عجلة من أمره . والحق أننى لا أعرف فى القديم والحديث أستاذاً يضارعه فى هذا الإخلاص على ضعف فى بنيته، وكثرة فى أعماله الأخرى، من مساهمة فى الصحافة، ولقاء الأقران الذين بدءوا يتجمعون حول دعوته، مما أدى فيما بعد إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فى سنة ١٩٣١ .

وقد ذكر لنا عبد الحميد بن باديس تاريخ بدء التدريس فى الجامع الأخضر فقال : « أما بدء تعليمى فيه فكان فى عام ١٣٣٢ هجرية ، وكان ذلك بسعى من سيدى أبى لدى الحكومة ، فأذنت لى بالتعليم فيه بعد ما كانت منعتنى من التعليم بالجامع الكبير ، بسعى المفتى فى ذلك العهد الشيخ المولود بن موهوب ، وقد يسر الله لنا بفضله التعليم فيه إلى اليوم(١٩٣٨) ، والله نسأل أن يجازى كل من أعاننا فيما قمنا به كل خير ، وأن ييسر لنا القيام بخدمة العلم فيما بقى من العمر»[١] .

وظل بن باديس يعمل فى مجال التدريس وبناء جيل الثورة، ويحكم الحصار حول المستعمر الذى لم يفطن إلى خطره ، لأن الاستعمار ظن أنه يعتمد على طبقة كثيفة من أتباع الطرق الصوفية والعلماء الرسميين، تستطيع الوقوف أمام أية فئة تحاول النيل من الحصار الذى خيل إليه أنه أحكم صنعه لعزل الأمة الجزائرية عن الحركة الإسلامية فى المشرق وفى المغرب .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى، وكان بن باديس فى بدء الطريق « اعتصم بالله، كما يقول زميله الشيخ الإبراهيمى ، فكفاه شر الاستعمار ، وكان له من وجود والده درع وقاية من بطش فرنسا التى لا تصبر على أقل من هذه الحركات ، وكان لوالده مقام محترم عند حكومة الجزائر ، فسكتت عن الابن احتراماً لشخصية والده »، كذلك يقول الشيخ الإبراهيمى إنه لما عاد إلى الجزائر بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى لقى بن باديس بتونس ، ثم زاره بقسنطينة ، ورأى بعينه النتائج التى حصل

---

(١) الشهاب الجزء الرابع من المجلد الرابع عشر ، يونيو ويوليو سنة ١٩٣٨ ص ٢٠٤ .

عليها أبناء الشعب الجزائرى فى بضع سنوات من تعليم بن باديس ، واعتقد من ذلك اليوم أن هذه الحركة العلمية المباركة لها مابعدها، وأن هذه الخطوة المسددة التى خطاها بن باديس هى حجر الأساس فى نهضة عربية فى الجزائر ، وأن هذه المجموعة من التلاميذ التى تناهز الألف هى الكتيبة الأولى من جند الجزائر .

د – اشتغاله بالصحافة :

ولما أحس الإمام بن باديس صلابة الأرض تحت قدميه شرع يهاجم أصحاب الطرق الصوفية ممن ارتضوا لأنفسهم أن ينفثوا روح التخاذل بين أتباعهم ، ليرتضوا ما أرادته لهم فرنسا من تذويب شخصيتهم الجزائرية ، تمهيداً لإدماج الجزائر نهائياً فى الوطن الأم، ذلك الإدماج الذى كان الهدف الأول للغزو الاستعمارى منذ ١٨٣٠ . وقد بدأ بن باديس حملته على الطرقية فى عام ١٩٢٥، فى إطار « محاربة الآفات الاجتماعية . . . والبطالة والجهل وكل ما يحرّمه صريح الشرع ، وينكره العقل وتحجره القوانين الجارى بها العمل »[١] ، فقد رأى أن « اعتقاد تصرف أحد من الخلق مع الله ، فى شىء ما ، شرك وضلال ، ومنه اعتقاد الغوث والديوان »، وأن « بناء القبور، ووقد السرج عليها والذبح عندها لأجلها والاستغاثة بأهلها ضلال من أعمال الجاهلية ، ومضاهاة لأعمال المشركين . . . »، « وأن الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف . ومبناها كلها على الغلو فى الشيخ، والتحيز لأتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ ، إلى ما هنالك من استغلال وإذلال وإعانة لأهل الإذلال والاستغلال ، ومن تجميد للعقول وإماتة للهمم وقتل للشعور »[٢] .

وجعل بن باديس ينبه الأمة الجزائرية إلى خطر هذا التصوف الخادع من الوجهتين الدينية والاجتماعية ، واتخذ من جريدة « المنتقد » التى أصدرها فى سنة ١٩٢٦ لسان حال هذه الحملة ضد الطرقية[٣] . وقد روى لنا الشيخ محمد بشير الإبراهيمى أن صلته بالإمام بن باديس زادت قوة فى الفترة ما بين ١٩٢٠ – ١٩٣٠

---

(١) وهذا ما عبر عنه فيما بعد الفصل الرابع من القانون الأساسى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

(٢) نفس المصدر ، دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، بنود ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية الجزء الحادى والعشرون سنة ١٩٦٦ ص ١٤٣ .

وأنهما كانا يتلاقيان فى كل أسبوعين أو فى كل شهر . . . «فنزن أعمالنا بالقسط ، ونزن آثارها فى الشعب بالعدل ، ونبنى على ذلك أمرنا ، ونضع على الورق برامجنا للمستقبل بميزان لا يختل أبداً . . . فكانت هذه السنوات العشر كلها إرهاصاً لتأسيس جمعية العلماء الجزائريين» ، وعندئذ تنبهت الإدارة الفرنسية إلى خطر هذا المصلح الذى بدأ يهاجم أعوانها ، فأصدرت قراراً بتعطيل هذه الجريدة بعد أن صدر منها ثمانية عشر عدداً [١] .

ولما كان القانون يسمح بإصدار الصحف ، فقد أسرع بن باديس ، فأصدر جريدة « الشهاب » ، مع اصطناع نوع من المرونة السياسية التى برع فيها ، فخفف اللهجة ، وسار على خطة « المنتقد » فى فضح الطرق الصوفية وبيان مخالفتها لروح الدين على النحو الذى كان يفهمه السلف . وقد أتاحت له هذه المرونة أن يحتفظ بجريدة « الشهاب » التى كان يصدرها ببعض دروسه فى التفسير وشرح الأحاديث ، مع تطبيقها فى مهارة فائقة على الواقع الجزائرى . وهكذا استطاع أن يحتفظ لجريدة « الشهاب » بالبقاء ما بين سنة ١٩٢٦ وسنة ١٩٤٠ سنة وفاته . وربما لم تجرؤ الإدارة الفرنسية على مصادرتها خوفاً من رد الفعل الجزائرى إذ كان الطابع الدينى للجريدة هو السبب فى بقائها .

ولم يكن بد من أن يشعر المستعمر بخطر دعوة بن باديس التى وضعت نصب أعينها إيقاظ الروح العربية الإسلامية فى الجزائر ، تلك الروح التى بذلت فرنسا منذ الغزو كل جهودها للقضاء عليها بكل وسيلة ممكنة ، ومنها الإبادة البشرية . ورأت الإدارة الفرنسية فى الجزائر أنها ربما استطاعت القضاء على دعوة بن باديس إذا هى حركت أعوانها من الطرق الصوفية ، تلك الطرق التى مالت إليها منذ منتصف القرن الماضى ، وأسهمت معها فى القضاء على ثورة الأمير عبد القادر . وكان من الطبيعى أن تتحالف هذه الرجعية المستغلة مع المستعمر . وخيل إلى الحليفين أن اغتيال الشيخ بن باديس ربما كان وسيلة ناجعة للقضاء على الدعوة إلى القومية الجزائرية فى مهدها . وعهد المتآمرون بتنفيذ هذه الخطة إلى أحد أتباع العلويين ،

---

(١) ومن قبل ، اشترك فى تأسيس جريدة النجاح ، لكنه تركها فى ١٩٢٥ . أما جريدة « المنتقد » فكان هو الذى تولى رئاسة تحريرها ، بينما عهد بإدارتها إلى الشهيد أحمد بوشمال ، وكان يعاونه من الكتاب كل من الشيخ مبارك الميلى ، والشيخ الطيب العقبى .

وكان ذلك فى عام ١٩٢٧ ؛ إذ خرج على الإمام بن باديس هذا القاتل الأجير ليفتك به عند عودته إلى بيته، بعد انتهائه من دروس التفسير فى منتصف الليل . غير أن هذا الغادر لم يفلح فى ارتكاب جريمته ، فقبض عليه أتباع بن باديس . ولما كان العفو إحدى السمات المميزة فى شخصية الإمام ، فقد عفا عنه ونهى أصحابه عن الفتك به ، متمثلا بقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون » .

وكانت جريدة « الشهاب » أسبوعية فى بدء نشرها ، ثم غدت شهرية . وتعد سجلا حافلا لتاريخ الجزائر ونهضتها الحديثة فيما بين الحربين الأولى والثانية . وقد اختص الشيخ عبد الحميد بن باديس بالكتابة فى القسمين الدينى والعلمى ، وحوت جريدة « الشهاب » بعض دروسه فى تفسير القرآن التى أطلق عليها صاحبها اسم مجالس التذكير. وهكذا أمكن جمع شىء يسير من هذا التفسير [1] الذى استغرق من بن باديس نحواً من ربع قرن، والذى ضاع الكثير منه لعدم تدوينه . غير أن هذا القليل الذى أمكن إنقاذه شىء كثير . ويكشف لنا هذا القليل والعظيم ، فى آن واحد، عن ضخامة ما ضاع من إنتاج بن باديس . لكن هذا الإنتاج الضخم ، وإن لم يدون كتابة فقد سرى فى صدور الأمة الجزائرية ، وكان ذلك فى الواقع تحقيقاً لرغبة الإمام الذى قال إنه لا يؤلف الكتب وإنما يريد صنع الرجال .

وطبيعى أن بن باديس جند أعوانه للكتابة معه فى جريدة الشهاب ، فاختص الأستاذ أحمد توفيق المدنى بالكتابة عن المجتمع الجزائرى والشهر السياسى ، كما عاون فى الكتابة عدد كبير من أصدقاء الشيخ وتلاميذه .

وفيما بعد أصدر بن باديس صحفاً أخرى كالشريعة ، والسنة المحمدية ، والصراط . ولم تعمر طويلا ؛ إذ حرصت الإدارة الفرنسية على إيقافها لشدة خطورتها وعظيم تأثيرها فى النفوس . ولم تكن المصادرة لتكفى فى القضاء على دعوة القومية الجزائرية ، أو لتنقذ فرنسا من حصار بن باديس الذى جمع معه الجزائر كلها ، إلا فئة من أعوان المستعمر ، أو المخدوعين فيه من رجال السياسة .

---

(١) ويرجع الفضل فى جمعه وترتيبه والتعليق عليه إلى الأستاذين محمد الصالح رمضان مدير التعليم الدينى بوزارة الأوقاف بالجزائر ، وتوفيق محمد شاهين بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر . انظر : تفسير بن باديس أو مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير — الناشر دار الكتاب الجزائرى .

هـ — تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين :

وما لبث بعض العلماء أن أسسوا نادى الترقى بالعاصمة ، فكان مكان لقاء للمثقفين الذين سرت إلى نفوسهم دعوة القومية العربية الإسلامية ، وكانت تلقى فيه المحاضرات وتقام الحفلات . وأخذ بن باديس يحاضر فيه كلما جاء إلى العاصمة ليلقى درسه فى التفسير . وفى جملة القول كان هذا النادى العمل الإيجابى الأول لتحقيق وحدة الفكر الجزائرى ، وفيه وضعت البذرة الصالحة للنهضة الجزائرية لكى تخرج إلى حيز التنفيذ ؛ إذ تكونت لجنة تحضيرية مهدت لنشأة جمعية العلماء. وجاء احتفال الفرنسيين بالعيد المئوى لاحتلال الجزائر فى سنة ١٩٣٠ ، مع ما صحبه من الرغبة فى إذلال العرب وإشعارهم أنهم لم يعد لهم أمر فى وطنهم الذى أصبح فى نظر المستعمر جزءاً من فرنسا — نقول جاء هذا الاحتفال ليدفع الوطنيين الجزائريين إلى العمل على مستوى الأمة كلها . فقد كان من الطبيعى أن يحدث رد فعل عنيف لمسلك الفرنسيين فى هذا الاحتفال ، إذ ظن هؤلاء أنهم استطاعوا محو الخصائص العربية الإسلامية فى الجزائر ، بعد أن قضوا على ثورة الأمير عبد الكريم ، وأصدروا الظهير البربرى لفصم وحدة الأمة فى الشمال الإفريقى ، وتمهيداً لتنصير البربر. وقد ذهب الفرنسيون فى تحقير المسلمين إلى حد أن كتب أحد كتابهم : « لقد أذللنا الدين الإسلامى ، وبلغ الأمر ألا يعين فقيه أو إمام إلا إذا شارك فى أعمال الجاسوسية الفرنسية ، ثم عليه ، كى يرتقى فى الدرجة ، أن يثبت قدراً كبيراً من الحماسة والإخلاص للإدارة » ؛ وإلى حد أن قال الكاردينال « لا ڤيجرى » فى احتفالات سنة ١٩٣٠ : « إن عهد الهلال فى الجزائر قد غبر ، وإن عهد الصليب قد بدأ ، وإنه سيستمر إلى الأبد » .

وقد فزع المخلصون من المسلمين وعلى رأسهم علماء الجزائر عندما كشف الاستعمار صراحة النقاب عن إصراره على جعل هذه البقعة الإفريقية من الوطن العربى جزءاً لا يتجزأ من فرنسا ، البنت الكبرى للبابا فى روما ، فاتخذ هؤلاء المخلصون لأنفسهم ولمواطنيهم شعاراً مضاداً وهو « الإسلام ديننا ، والعربية لغتنا ، والجزائر وطننا » ، وكان أول من أخرج كتاباً صدره بهذا الشعار الأستاذ أحمد توفيق المدنى .

وقد ذكر الأستاذ الإبراهيمي في مقاله الذي ترجم فيه تاريخ كفاحه الوطني أن الإدارة الفرنسية كانت أعدت عدتها لكي يستغرق هذا الاحتفال ستة أشهر، ودعت الدنيا كلها، فاستطاعت جماعة بن باديس بدعايتها السرية أن تفسد عليها كثيراً من برامجها، فلم تدم الاحتفالات إلا شهرين؛ كما استطاعت بدعايتها العلمية أن تجمع الشعب الجزائري حولها.

ثم عقد العلماء اجتماعاً في الخامس من شهر مايو سنة ١٩٣١، وأسسوا جمعية العلماء المسلمين، وانتخبوا عبد الحميد بن باديس رئيساً لها، وذلك في غيبته. فلما حضر في جلستهم الثالثة قال في خطاب وجهه إليهم: إنه كان ملكاً للجزائر فزادوا في عنقه ملكية أخرى، وإنه لم ينتخب لشخصه بل لأنه يمثل فكرة عزيزة عليه وعلى أصحابه بل على الأمة بأسرها. ويقول الشيخ الإبراهيمي: إنه هو الذي وضع القانون الأساسي على قواعد من العلم والدين لا تثير شكًّا ولا تخيف. وكانت الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت تستهين بأعمال العالم المسلم، وتعتقد أننا لا نضطلع بالأعمال العظيمة، فخيبنا ظنها والحمد لله.

ويصف لنا الشيخ الإبراهيمي كيف نجح هو وبن باديس في اجتذاب العلماء والفقهاء إلى الجمعية فيقول: «دعونا فقهاء الوطن كلهم، وكانت الدعوة التي وجهناها إليهم صادرة باسم الأمة كلها ليس فيها اسمي ولا اسم بن باديس؛ لأن أولئك الفقهاء كانوا يخافوننا لما سبق لنا من الحملات الصادقة على جمودهم، ووصفنا إياهم بأنهم بلاء على الأمة، وعلى الدين لسكوتهم على المنكرات الدينية، وبأنهم مطايا الاستعمار، يذل الأمة ويستعبدها باسمهم. فاستجابوا جميعاً للدعوة واجتمعوا في يومها المقرر، ودام اجتماعنا في نادي الترقي بالجزائر أربعة أيام... ولما تراءت الوجوه، وتعالت أصوات الحق أيقن أولئك الفقهاء أنهم مازالوا في دور التلمذة، وخضعوا خضوع المسلم للحق، فأسلموا القيادة لنا فانتخب المجلس الإداري من رجال أكفياء، جمعتهم وحدة المشرب ووحدة الفكرة... ووحدة المناهضين للاستعمار. وقد وكل المجتمعون ترشيحهم إلينا فانتخبوهم بالإجماع وانتخبوا بن باديس رئيساً.. وأصبحت الآن الجمعية حقيقة واقعة قانونية. وجاء دور العمل»[1].

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ص ١٤٣، ١٤٤.

وقد جاء فى قانون هذه الجمعية أنها إنما أسست تبعاً لنظام وقواعد الجمعيات المبينة بالقانون الفرنسى المؤرخ بغرة يوليو سنة ١٩٠١، وأنه لا يسوغ لهذه الجمعية بأى حال من الأحوال أن تخوض أو تتداخل فى الأمور السياسية[1] . ولكن لم يكن ذلك التصريح فى الحق إلا ستاراً رقيقاً ؛ إذ خاضت الجمعية منذ نشأتها فى خضم السياسة ، عندما اعتزمت تنظيم الحملة للقضاء الحاسم على الطرقية ، ولإنشاء المدارس العربية فى مدن الجزائر وقراها . وهذا شىء ما كان للإدارة الفرنسية أن تتقبله بالرضا . وتكشف أصول دعوة الجمعية العلماء عن الطريقة التى ارتضاها بن باديس فى الإصلاح الدينى ، وهو المقدمة الضرورية لتحرير الجزائر . وكانت هذه الأصول من كتابة بن باديس نفسه . وتتضمن فقراته تمجيد الإسلام الذى أراد الفرنسيون إذلاله ، والدعوة إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين توحيداً لكلمتهم أمام الغاصب ، والمناداة بالكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بين جميع الأجناس والألوان، تلك الكرامة التى حرص المعمرون الفرنسيون فى الجزائر على تجريد المواطنين العرب منها ، بنسف جميع مقوماتهم الروحية والاقتصادية والتعليمية. كذلك حرص القائمون بالدعوة على تمجيد العقل وفكه من إساره، أى من التقليد الذى كاد يقضى على الحضارة الإسلامية ، كما حرصوا على طمأنة الآخرين على حريتهم الدينية، « فلأهل كل دين دينهم ، يفهمونه ويطبقونه كما يشاءون » . وينطوى الأصل العاشر من أصول هذه الدعوة على إدانة الاستعمار الفرنسى الذى يناقض مبدأ إسلاميًّا عظيماً « يدعو إلى رحمة الضعيف؛ فيكفَى العاجز ، ويعلّم الجاهل ويرشد الضال ، ويعان المضطر ، ويغاث الملهوف ، وينصر المظلوم ؛ ويؤخذ على يد الظالم » .

فإذا لم تكن هذه هى السياسة التى يريدها بن باديس فأى شىء تكون، بدليل أنه لا يلبث أن ينادى فى المبدأ التالى مباشرة بتحريم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه ؟ ثم يؤكد هذا المعنى برسم الطريق للخلاص من عسف المحتل عندما يطالب

---

(١) « الإسلام هو دين الله الذى وضعه لهداية عباده وأرسل به جميع رسله ، وكمله على يد نبيه محمد الذى لا نبى من بعده . الإسلام هو دين البشرية الذى لا تسعد إلا به ، وذلك لأنه أولا : كما يدعو إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين يذكر بالأخوة الإنسانية إلخ .

بأن يجعل الحكم شورى ليس فيه استعباد ولو لأعدل الناس .

ثم ينتقل هذا الدستور إلى تحديد أصول الإصلاح الدينى ، فيبين أن « القرآن هو كتاب الإسلام ، وأن السنة القولية والفعلية الصحيحة تفسير وبيان للقرآن » ، وأن « سلوك السلف الصالح والصحابة والتابعين وأتباع التابعين تطبيق لهدى الإسلام » ، وأن « فهوم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة » ، وأن « البدعة كل ما أحدث على أنه عبادة وقربة ولم يثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم فعله ، وكل بدعة ضلالة » . . . وأن « التوحيد أساس الدين فكل شرك فى الاعتقاد أو فى القول أو فى الفعل فهو باطل مردود على صاحبه » ، وأن « العمل الصالح المبنى على التوحيد به وحده النجاة والسعادة عند الله . . . » ، وأن « اعتقاد تصرف أحد من الخلق مع الله فى شىء ما شرك وضلال . . . »

وربما كانت محاربة الطرق الصوفية هى المقدمة الضرورية لتحرير الأمة من الاستعمار الأجنبى ، وهذا هو ما يشير إليه أيضاً الشيخ الإبراهيمى الذى يخبرنا أنه اهتدى مع بن باديس فى أثناء دراساتهما المتكررة للمجتمع الجزائرى ، منذ اجتماعهما فى المدينة المنورة ، إلى أن « البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين آت من جهتين متعاونتين عليه ، أو بعبارة أوضح من استعمارين مشتركين يمتصان دمه . ويفسدان عليه دينه ودنياه : استعمار مادى هو الاستعمار الفرنسى . . . واستعمار روحانى يمثله مشايخ الطرق المؤثرون فى الشعب ، والمتغلغلون فى جميع أوساطه ، والمتجرون باسم الدين ، والمتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطواعية . وقد طال أمد هذا الاستعمار الأخير وثقلت وطأته على الشعب ، حتى أصبح يتألم ولا يبوح بالشكوى . . . خوفاً من الله بزعمه .

والاستعماران متعاضدان يؤيد أحدهما الآخر بكل قوته ، وغرضهما معاً تجهيل الأمة لئلا تفيق بالعلم . . وتفقيرها لئلا تستعين بالمال على الثورة . . وإذن فلقد كان من سداد الرأى أن تبدأ الجمعية بمحاربة هذا الاستعمار الثانى لأنه أهون ، وهكذا فعلت » . فلا عجب أن نرى هذا الدستور ينتهى إلى محاربة الطرقية أكثر الأعوان إخلاصاً للمستعمر . « ولا ريب فى أن هذه الأصول التى تتضمنها دعوة

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تنبئ بوضوح عن أن السلاح المرهف فى القضاء على الاستعمار لن يكون إلا ببعث الروح الإسلامية العربية عند هؤلاء الذين أوهمهم المبطلون أنهم أصبحوا فرنسيين ، ومن الواضح أن الفقرة الأخيرة من هذا الدستور هى دعوة إلى توحيد الصفوف لمنازلة الغاصب إذ تقول : « عند المصلحة العامة من مصالح الأمة يجب تناسى كل خلاف يفرق الكلمة ويصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة ، ويتحتم التآزر والتكاتف ، حتى تنفرج الأزمة وتزول الشدة بإذن الله ، ثم بقوة الحق وادراع الصبر وسلاح العلم والعمل والحكمة . (قل هذه سبيلى : أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) ».

ولن نستطرد هنا فى بيان كيف سارت جمعية العلماء المسلمين على ضوء هذه المبادئ التى حددها رئيسهم فى معترك الحياة السياسية ، فذلك أمر سنعرض له بالتفصيل فى حينه ، ويكفى أن نشير هنا إلى أن هذه المبادئ دينية وأخلاقية واجتماعية فى جوهرها . وقد اضطر عبد الحميد بن باديس ، شأن السياسى المحنك ، ألا يثير ريبة المستعمر ، فأقحم على هذه المبادئ بعض العبارات التى يمتدح فيها فرنسا ، حتى يسهل عليه حصارها وفضح أساليبها أمام الجزائريين والعالم كله . وأتاحت له هذه الحنكة أن يتجنب البطش المفاجئ والدعوة فى بدء أمرها ، ثم ما لبث أن حشد الأمة الجزائرية كلها ضد فرنسا ، ونادى بالقومية العربية الإسلامية الجزائرية فى وقت ما كان يجرؤ فيه أكثر المواطنين تهوراً أن يناصب هذه الدولة الاستعمارية العداء.
وتعد السنوات ما بين ١٩٣١ و١٩٣٩ الفترة الحاسمة فى تاريخ الجزائر المعاصرة ، وهى الأساس الصلد الذى قامت عليه حركة تحرير هذا الوطن الذى ظل فى الأسر دهراً طويلا .

ذلك أن الجمعية وضعت نصب عينيها تنفيذ فكرة عبقرية حددها لها الشيخ بن باديس مع أعوانه ، وهى أن يكون تحرير الجزائر على أساس إنشاء جيش من الشبان يحمل فكرة الجمعية وعقيدة الإسلام ، وأن يكون تلاميذ الإمام بن باديس نقط جذب لمئات الآلاف من أنصار الفكرة ، وحملة العقيدة ، ممن يحميهم إيمان واحد

وفكرة واحدة ، ويقول الشيخ الإبراهيمى فى توضيح هذه الفكرة التى ارتضاها بن باديس : « وكانت الطريقة التى اتفقنا عليها أنا وبن باديس فى اجتماعنا بالمدينة فى تربية النشء هى ألا نتوسع له فى العلم، وإنما نربيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل ، فتمت لنا هذه التجربة فى الجيش الذى أعددناه من تلامذتنا »[١] .

ومن توفيق الله لهذا المصلح الثائر المخلص أن يسر له تحقيق الوحدة الفكرية بين الجزائريين على اختلاف نزعاتهم ومصالحهم وثقافاتهم ، وذلك عندما اعتمد على مبدأ إسلامى جليل اتخذه دستوراً له وهو : « الكلمة الطيبة والدعوة بالموعظة الحسنة. من قبلها فهو أخ فى الله، ومن ردها فهو أخ فى الله. فالأخوة فى الله فوق ما يقبل وما يرد» . وقد اصطنع هذا السلوك النبيل مع تلاميذه ومريديه ومع خصومه على حد سواء .

و — مسلكه العملى فى بناء الأمة :

وكان من أسباب نجاح بن باديس، ومن تبعه من العلماء، أنه سلك بهم مسلكاً عملياً بعيداً عن المهاترات الحزبية التى كانت تدور فى فلك حدده المستعمر سلفاً، ونسج خيوطه كصمام أمن لحالة السخط التى عمت الجزائر بسبب الحرمان الأقتصادى والاجتماعى ، ذلك الحرمان الذى كان ينفذ وفقاً لخطة محددة مرسومة . فقد آثر منذ عهد مبكر ، كما رأينا ، أن يبذل من ذات نفسه ليعلم الجزائريين ، شباباً وشيوخاً ، دينهم وأخلاقهم الإسلامية، ويطهر عقائدهم من رواسب الشرك الخفى أو الصريح ، حتى ينقذهم من استغلال الطرقيين، وهم الجنود الروحيون للمستعمر . ثم سارت جمعية العلماء معه، ومن بعده، على هذا النهج، فأنشأت المدارس فى كل بقعة من بقاع الجزائر. وأرسلت الوعاظ يجوبون المدن والقرى، وكانوا يعرفون جيداً ماذا يصنعون ، إنهم كانوا بصدد القيام بالتعبئة الدينية والقومية الشاملة[٢] .

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ص ١٤٣ .

(٢) وقد صادفت هذه البعثات فى طريقها عقبات ومشقات، وتحملت عذاباً وإهانات صبها عليها البوليس الفرنسى وأتباع الرجعيين. إلا أنها خاضت جميع هذه المخاطر برباطة جأش وصبر عظيم وإيمان قوى — الثورة الجزائرية لأحمد الخطيب — دار العلم للملايين بيروت ص ١٢٥ .

وقد اعترف أحد الكتاب الفرنسيين فيما بعد بأن العلماءهم الذين وضعوا فكرة الوطن الجزائرى . فقال[١] : إن مجددى فكرة الوطن الجزائرى هم بالأحرى هؤلاء الذين أسسوا جمعية العلماء ، أى الشيخ عبد الحميد بن باديس وأشد أتباعه حماسة كالشيخ الإبراهيمى والعقبى . فمنذ سنة ١٩٣٠ نرى فى الواقع أن هؤلاء الرجال ذوى الثقافة الرفيعة والعلم الواسع ، وهم من أقوى الشخصيات الإسلامية فى المغرب المعاصر ، قد ربطوا محاولتهم لتجديد الإسلام وللقضاء على الطرق الصوفية بمحاولة تجديد الوطن الجزائرى . ومن الممكن أن نجد بيان هذا المذهب فى رد عبد الحميد بن باديس على المقال الشهير لفرحات عباس . . . بعنوان: « لو أننى عثرت على الوطن الجزائرى ! » ، ومن قبل فطن أحد الكتاب الفرنسيين إلى خطر سياسة بن باديس وأصحابه ، فكتب فى جريدة الكونكورد : « هل يمكن لنا أن نقول إن جمعية العلماء ملية ؟ نعم ، وعجيب أن يشك أحد فى ذلك . ولكن هذه الملية لا تظهر مباشرة. فالعلماء يحملونها فى صدورهم ، ولا يتحدثون بها . على أن نشاطهم لا يبعدهم عنها أبداً . فكل من إصغائهم لدمشق والرياض والأزهر وجامع الزيتونة والقرويين ، وكل من دعوتهم ضد متأخرى شيوخ الطرق — هو لفائدة القومية الجزائرية التى يخدمونها .

وإن سياستهم الحاضرة تنحصر فى المرابطة بحصن الثقافة والدين . وهكذا يتدخلون فى كل شىء ، ينتظرون أن يتقدم رجال آخرون لاستعمال السلاح الذى يصقلونه الآن بأيديهم ويعدونه »[٢] .

ولم يكن بد من أن تستيقظ الإدارة الفرنسية ، بعد هذا التحذير الصريح ، لتشهد خطر هذه التعبئة . ولما كانت تخشى انتشار الوعى الدينى جعلت تعطل المدارس وتزج بالمدرسين فى السجون ، وأصدر سكرتير الأمن العام فى الجزائر « ميشيل » فى سنة ١٩٣٣ تعليمات مشددة تقضى « بمراقبة العلماء مراقبة دقيقة » ، وحرم فى هذه التعليمات على غير الإمام أو المفتى المعين من الإدارة الخطبة فى الجامع . ولكى يشرف على تنفيذ هذه الأوامر عين نفسه رئيساً للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وأدى

---

(١) خمسة رجال 5 Hommes لمؤلفه Tean Lacouture ص ٢٧٥ .

(٢) الشهاب الجزء الثانى عشر من المجلد الثالث عشر ص ٥٤٠ .

ذلك إلى رد فعل عنيف ؛إذ استيقظ الجزائريون الغارقون فى سباتهم ، وجعلوا ينضمون تحت لواء جمعية العلماء الآخذ فى اكتساح البلاد[١] .

لكن شدة الاستعمار لم تغن عنه شيئاً ؛ إذ كان عبد الحميد بن باديس قد أصبح سيد الموقف دون منازع . وبدا للإدارة الفرنسية أن تسلك طريقاً أخرى لفصم الوحدة الجزائرية التى حققها هذا المصلح الثائر منذ بدأ متواضعاً يلقى دروسه فى مساجد قسنطينة ، حتى انتهى بأن أصبح الزعيم الروحى للأمة الجزائرية . واستطاعت فرنسا أن تغرر ببعض رجال السياسة من أصحاب الحلول المتوسطة فلوحت للجزائريين بمشروع ليون بلوم وفيوليت فى سنة ١٩٣٦ . والحق أن هذا المشروع خلدع كثيراً من السياسيين الجزائريين ، فخيل إليهم أن سياسة المهادنة أو السياسة المرحلية هى أفضل الطرق لإنقاذ الكيان الجزائرى واستخلاص الحقوق السياسية للمواطنين العرب عن طريق إدماجهم تدريجيًا فى فرنسا ،لتنتقل الجزائر من مرتبة المستعمرة إلى مرتبة المقاطعة. وكان من المخدوعين الدكتور بن جلول وأصحابه، كذلك خدع معهم فرحات عباس الذى يمكن أن تعد سياسته فى تلك الفترة نموذجاً أصيلا للسياسة المرحلية أو سياسة الحلول العرجاء كما نسميها أحياناً .

ولما رأى عبد الحميد بن باديس غلبة فكرة الإدماج على عقلية كثير من رجال السياسة ،وميل بعض النواب الموالين لفرنسا إلى اعتقاد أنهم أصحاب الحق فى البت فى مصير الجزائر ، ولما رأى أن سموم المؤامرة بدأت تسرى فى نفوس المواطنين ، بعد أن طهرها من رجس المستعمر وأعوانه — لم يجد وسيلة لإحباط المؤامرة الفرنسية سوى أن دعا إلى عقد مؤتمر إسلامى .

وكانت دعوته إلى هذا المؤتمر فى جريدة لا دفانس La Défense . وقد عاب بعضهم على جمعية العلماء أنها وقعت هى الأخرى فى شراك السياسة ، وإن كنا نعتقد أنها دخلته منذ زمن غير قصير . وأيًّاما كان الأمر فإن تدخلها فى عام ١٩٣٦ كان ضروريًّا، فقد أصبحت دعوتها مهددة بأكبر الأخطار . وعندما أسس المؤتمر الإسلامى الجزائرى فى ٧/ ١٩٣٦/٦ كانت غالبيته من أنصار إدماج الجزائر،

(١) الثورة الجزائرية لأحمد الخطيب . ص ١٢٤ .

وهنا تجلت حكمة بن باديس ، إذ استطاع العلماء، الذين حضروا هذا المؤتمر بصفتهم الشخصية، أن يوجهوا قراراته . وكان من بينهم كل من الشيخ عبد الحميد بن باديس والطيب العقبي والبشير الإبراهيمي ومحمد خير الدين وآخرون غيرهم . ومما يشهد بمهارة بن باديس أنه لم يشأ أن يقحم جمعية العلماء رسمياً في هذا المؤتمر حتى يحتفظ لها بحرية الحركة ؛ وأنه على الرغم من نجاحه في توجيه قرارات المؤتمر إلى الاعتراف بالشخصية العربية الإسلامية للجزائر، فإنه لم يوافق على تلك القرارات ؛ بل ندد بها فيما بعد .

ويكشف السياق التاريخي عن نجاح خطة جمعية العلماء . فقد تدخل المعمرون الفرنسيون لإحباط مشروع ليون بلوم — فيوليت ، وأثبتوا للحكومة الفرنسية وللجزائريين المخلوعين أن الجزائر تساس من الجزائر لا من باريس . وساعد تدخل عبدالحميد بن باديس وأعوانه من جانب آخر على تعطيل الإدماج. وهذا معناه ، في التحليل الأخير ، تأكيد للشخصية الإسلامية العربية الجزائرية . ولذا فإننا نميل إلى أن نخالف صديقنا الكبير الأستاذ مالك بن نبي في رأيه بعض المخالفة ، عندما عاب على جمعية العلماء أنها انزلقت إلى ميدان السياسة ، فأضاعت شيئاً كثيراً من مبادئها. على أننا نوافقه تماماً إذا كان الأمر بصدد انزلاقهم إلى الانتخابات المزيفة التي انساق إليها الجميع ابتداء من سنة ١٩٤٧ أي بعد وفاة عبد الحميد بن باديس بسبع سنوات . أما في سنة ١٩٣٦ فمن المؤكد أن جمعية العلماء وقفت في وجه المؤامرة التي نسجتها الإدارة الفرنسية في الجزائر وحدها، أو مع بعض أعوانها .

وإذا كان الشعب الجزائري قد رحب بقرارات المؤتمر فذلك لأن البشير الإبراهيمي هاجم دعاة الاندماج في فرنسا ، ووصفهم بأنهم ليسوا من الأمة، وإن ادعوا لأنفسهم دهاء الساسة ؛ في حين أن العلماء هم من الأمة وأنهم يعبرون عن مطالبها في النواحي الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تؤلف كلا لا يتجزأ .

وظن قادة المؤتمر أنهم حققوا الوحدة الفكرية الضرورية لمطالبة فرنسا بحقوق الجزائر ، وسافر وفد منهم ، ومن بينهم بن باديس إلى باريس في الثامن عشر

من شهر يوليو ١٩٣٦ فلقيهم « دلاديه » . وقصة هذا اللقاء مشهورة ، فقد هدد الوزير الفرنسي الوفد الجزائرى ، وذكّرهم بقوة فرنسا وبمدافعها بعيدة المدى قائلا : « إن لدى فرنسا مدافع طويلة » ، فرد عليه بن باديس « إن لدينا مدافع أطول » . وقد نقل إلينا ذلك فرحات عباس فى كتابه « La Nuit Coloniale الظلمة الاستعمارية » ، إذ كان بجوار بن باديس . فتساءل « دلاديه » عن أمر هذه المدافع ، فأجابه بن باديس جاداً : « إنها مدافع الله » .

وأقفل الوفد خائب الرجاء ، لكن بن باديس كان أكثر أملا وتفاؤلا ؛ فقد أدرك أنه نجح فى كشف النقاب عن الاتفاق التام بين سياسة الحكومة الفرنسية فى باريس وسياسة المعمرين فى الجزائر ، وأنه برهن بما فيه الكفاية على عروبة الجزائر وإسلامها . ويقال إنه أنشد قصيدته المشهورة بعد عودته من باريس ، ومنها :

شعب الجـــزائر مسلم ... وإلى العروبـــة ينتسب
من قال حاد عنّ اصـــله ... أو قال مات فقـــد كذب
أو رام إدماجـــاً له ... رام المحـــال . من الطلب
يانشء أنت رجـــاؤنا ... وبك الصـــباح قـــد اقترب
خذ للحياة سلاحهـــا ... وخض الخطوب ولا تهب
وارفع منار العـــدل والإ ... حسان واصـــدم من غصب
ياقـــوم هـــذا نشؤكم ... وإلى المعـــالى قـــد وثب
كونوا له يكن لـــكم ... وإلى الأمام ابنـــاً وأب

وتكشف بقية القصيدة عن الأسس التى يجب أن تتخذ لتحرير الجزائر . وكأنه كان يقرأ الغيب عندما حدد مبادئ ثورة التحرير فقال :

وأذق نفوس الظـــالمين ... السم يمـــزج بالرهب
واخلع جـــذور الخـــائنين ... فمنهـــم كل العطب
واهزز نفـــوس الجـــامدين ... فربما حيي الخشـــب
نحن الألى عرف الزمـــان ... قديمنـــا الجـــم الحسب
ومعين ذاك المجـــد ... فى نسل العـــروبة ما نضب

من كان يبغى ودنا فعلى الكرامة والرحب
أو كان يبغى ذلنا فله المهانة والحرب
هذا نظام حياتنا بالنور خط وباللهب
حتى يعود لشعبنا من مجده ما قد ذهب
هذا لكم عهدى به حتى أوسد فى الترب
فإذا هلكت فصيحتى تحيا الجزائر والعرب

وإذا كان موقف الحكومة الفرنسية، بتأثير تدخل كبار المعمرين فى الجزائر، قد أدى إلى إخفاق سياسة المؤتمر الإسلامى على الصعيد السياسى، فإن هذا الإخفاق لم يزد الجزائريين إلا إصراراً على طلب المساواة فى الحقوق السياسية مع المحافظة على القوانين الإسلامية. وقد تحطمت على صخرة هذا الإصرار جميع المحاولات التى لجأت إليها فرنسا وأعوانها المخلصون أو المخدوعون قبيل الحرب العالمية الثانية وبعدها، حتى قامت ثورة أول نوفمبر سنة ١٩٥٤، فكانت بدءاً لتطبيق فكرة القومية الجزائرية التى غرسها الإمام عبد الحميد بن باديس فى تربة صالحة وتعهدها طيلة حياته.

ولم ينقطع هذا المصلح الثائر، رغم مشاركته فى هذه المحاولات السياسية، عن غايته الحقيقية، وهى تعليم الأمة، وإحياء الروح العربية الإسلامية كسلاح أكيد لتحرير الجزائر. فظل يفسر القرآن فى قسنطينة والجزائر ووهران وتلمسان، ويتعهد النشء، يغرس فى قلبه روح الإيمان والعمل، ويأخذه بأساليب المقاومة التى كانت تسمح بها ظروف العصر [1]، ويتوسع فى نشر التعليم العربى والدينى بإنشاء دار الحديث فى تلمسان، ويحارب فلول الطرق الصوفية التى كان المستعمر حريصاً

---

(١) فى ١٩٣٧/٩/٢٨ أمر أهل قسنطينة با متناع عن المشاركة فى الاحتفال المئوى لذكرى احتلال الفرنسيين لهذه المدينة. وقد أشار فى منشوره إليهم بأن الفرنسيين يأبون إلا أن يشعروا المسلمين بسلطة الغالبين، وأن يثيروا العواطف ويمسوا كرامة الأحياء والأموات فى الوقت الذى يهدرون فيه حقوق الجزائريين ويتعقبونهم بالقوانين الاستثنائية. ثم يخبرهم أن الجمعيات الإسلامية استنكرت إقامة هذا الاحتفال؛ ويطلب إليهم أن يقاطعوا هذه الاحتفالات. وقد استجاب الجزائريون فى قسنطينة لنداء بن باديس وفشل الاحتفال، ولم يستطع الفرنسيون إلا أن يكظموا غيظهم وحنقهم. فقد احتمى بن باديس بالعاطفة الدينية التى خشيت فرنسا إثارتها، ولا سيما أن أهل قسنطينة التزموا جانب الهدوء مع مقاطعة الاحتفالات.

على اتخاذها سنداً له فى وأد حركة النهضة الجزائرية .

وسلكت الإدارة الفرنسية شتى السبل لتحطيم جمعية العلماء المسلمين عندما تبينت ، بعد فوات الوقت . أنها أشد خصومها خطراً وأكثرهم تأثيراً فى نفوس الجماهير . وقد حاولت نسفها عندما دبرت اغتيال الشيخ كحول مفتى الجزائر فى أغسطس سنة ١٩٣٦ . وكان موالياً لها . ثم وجهت تهمة اغتياله إلى الشيخ الطيب العقبى . وهو من أكبر أعوان الشيخ بن باديس[1] .

ثم لاحت نذر الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٧ ، فسعت فرنسا إلى كسب تأييد مختلف الجماعات السياسية فى الجزائر حماية لنفسها ، وضماناً لاستنزاف المقاتلين من الجزائريين فى حربها المقبلة ، فأوعزت إلى أعوانها والخاضعين لسلطان الإدارة الفرنسية فى الجزائر أن يرسلوا برقيات التأييد لها ؛ لكن جمعية العلماء أبت أن تخرج عن مبادئها . فرأت الإدارة الفرنسية أن تبعث بأحد رسلها إلى الشيخ الطيب العقبى ليعرض الأمر على بن باديس فجمع هيئة العلماء المسلمين ، ولم يشأ أن يعلن عن رأيه ، تاركاً رفاقه يدلون بوجهات نظرهم ؛ وكان الشيخ الطيب العقبى ممن يجنحون إلى المهادنة ، بعد أن لقى من عنت الإدارة الفرنسية ما لقى فى خلال محنته بسبب اتهامه بالتحريض على قتل المفتى . وكانت حجته تنحصر فى أنه لا بأس من مسالمة فرنسا فى هذه الظروف حتى تبقى على مدارس الجمعية ونواديها . ولما أخذت الأصوات كانت الأغلبية وعددها أحد عشر عضواً ضد فكرة إرسال البرقية ؛ فى حين أن عدد هؤلاء الذين أخذوا بوجهة نظر الشيخ العقبى كانوا أربعة . وعندئذ كشف بن باديس عن رأيه قائلا : لو كانت الأغلبية فى جانب موالاة فرنسا لاستقال من رئاسة جمعية العلماء . وإنه لن يوقع على البرقية ولو قطعوا رأسه ، فلهم أن يقتلوه لو شاءوا ؛ لكنه لن ينضم إلى زمرة المؤيدين لفرنسا . وهذا شىء ينبغى ألا ندهش له . فإن سياق حياته بأسره كان يفرض عليه هذا المسلك ،

---

(١) عاش فى المشرق وعاد إلى الجزائر فى ١٩٢٠ ، وكان من دعاة النهضة العربية فى الحجاز . وكان يهدف بعد عودته إلى الجزائر إلى تجديد الإسلام على أساس العودة إلى مذهب السلف — انظر ترجمته فى كتاب الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال إفريقية للأستاذ أنور الجندى . الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٥ ص ٦٨ ، ٦٩ .

وإلا لنقض بيده ما سبق أن أمضى حياته فى بنائه . واستعفى الشيخ العقبى من الجمعية ، ولم يكن فى استعفائه ما يدعو إلى نقمة بن باديس الذى كان يطبق مبدأه دائماً تطبيقاً صارماً : « الأخوة فى الله فوق ما يقبل وما يرد » .

وزاد تحرش الإدارة الفرنسية بالجمعية ، فحرضت بعض الأعوان على النيل منها. وحاولت حكومة الجزائر الاستيلاء على مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة ، وإحلال اللغة الفرنسية فيها محل اللغة العربية ، فقال بن باديس : لا أسمح بذلك حتى أموت .. كذلك بذلت الحكومة كل جهد حتى تنتزع منه كلمة واحدة تشم منها رائحة تأييده لفرنسا فلم يفعل . وكيف يفعل وقد برهن للوالى الفرنسى منذ سنوات خلت أنه يعجز عن أن يمد يده إليه[1] ؟

ثم تلاحقت الأحداث وقامت الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٩ ، وتوفى عبد الحميد بن باديس فى ١٦ أبريل سنة ١٩٤٠ ، وقد قيل إنه مات مسموماً .

تلك لمحة عابرة عن تاريخ حياة هذا الإمام الكبير ، وعن صلتها بالأحداث السياسية الكبرى التى شهدتها الجزائر فيما بين الحربين الأولى والثانية. وربما جاز لى أن أكمل هذه الصورة التاريخية لحياته بصورة أخرى انطبعت فى ذهنى للسمات الواضحة فى شخصية هذا الإمام العظيم حسبما أدانى إليه فهمى لما قرأت له ، وسمعت عنه ، من بعض تلاميذه فى كل مكان زرته فى الجزائر، من العاصمة إلى قسنطينة إلى وهران وتلمسان فى شتاء ١٩٦٦ .

---

(١) انظر فيما بعد الفصل الثانى تحت عنوان « الشجاعة العقلية النادرة » ص ٤١ .

الفصل الثانى

الإمام عبد الحميد بن باديس ومنهجه فى الإصلاح

١ ـ السمات الأساسية فى شخصية الإمام بن باديس

إذا جاز لى أن أرسم للقارئ تلك الصورة التى انطبعت فى ذهنى للسمات الواضحة فى شخصية هذا الإمام حسبما أدانى إليه فهمى لما قرأت له وسمعت عنه من بعض تلاميذه فقد أستطيع أن أوجز هذه الصفات النادرة فى تعبير مركز. فأقول : إن الشيخ بن باديس هو السهل الممتنع. ذلك أن صفاته تتدرج من التواضع والرفق بالناس والتسامح معهم والتفاؤل لهم والاعتماد على الخالق، إلى الصرامة فى الحق والشجاعة التى لا تقف عند حد. هذا إلى ذكاء مفرط وتوفيق من الله جعله قادراً على توجيه الأمة الجزائرية إلى النصر فى أناة وحزم .

ا ـ تسامحه و رفقه بالخلق وتفاؤله :

تتجلى هذه الصفات مجتمعة فى مواطن عدة . فهو لا يسلك مسلك العلماء شديدى التزمت، الذين يغرسون اليأس فى النفوس ، لأنهم يظنون أن إصلاح النفوس لا يكون إلا بالزجر واللوم والإغلاظ فى القول ؛ بل نراه يأسر القلوب بتواضعه ومودته، فقد قيل إنه كان يعامل تلاميذه كأبنائه ، وقد علمنا أنه كان يودعهم فرداً فرداً عند سفرهم إلى قراهم أو بلادهم . كما نجده يأخذ بيد المذنبين برفق يدعوهم إلى التوبة بإصلاح نفوسهم ، ويستحثهم على العودة إلى الله عندما يبين لهم أن جهاد النفس هو أعظم الجهاد ، وأن الله يقبل توبة العاصين لأنه كثير المغفرة . وقل أن نجد أحداً يشبهه فى رفقه بإخوانه المسلمين، فهو يقول لهم: « إن كثرة الرجوع إلى الله يقابلها كثرة المغفرة منه . فلا يفتأ العبد راجعاً راجياً المغفرة ولا تقعده كثرة ما يذنب عن تجديد الرجوع » ، وهو يفتح باب الأمل أمام المذنبين عندما يؤكد لهم وجوب التوبة مهما عظمت الذنوب : « فقد كان عباده يذنبون ويتوبون ويغفر لهم ولا يزالون

كذلك ولا يزال تبارك وتعالى لهم غفوراً »[١] ، إن التوبة هى طريق إصلاح النفوس لأنها تحول دون الاستمرار فى المعصية بدافع القنوط من رحمة الله .

والإمام بن باديس لا يريد أن يقطع طريق العودة على أحد ؛ فإنه ينهى عن محاولة إذلال الخصم ووصفه بالكفر أو بأنه من أهل النار ؛ بل من الأفضل أن تعرض عليه البراهين على بطلان الكفر وسوء عاقبته . ومن حسن السياسة ألا يستخدم أسلوب التقريع الذى ينفر الناس من الوعظ . فليس ثمة نفع فى أن يقال لمرتكب الكبيرة إنه فاسق؛ بل الأولى أن يبين له قبح الكبيرة وضررها . ثم هو يبث التفاؤل فى نفوس العاصين مع تحذير المؤمنين من العجب والغرور . « فلربما كانت عاقبة من هو من أهل الكفر إلى الخير والكمال ، وربما ينقلب شخص من أهل الإيمان على عقبه فى هاوية الوبال » [٢] .

وليس التفاؤل وقفاً على الأفراد بل يعم الجماعات. فالشيخ بن باديس يقوى أمل مواطنيه الذين استجابوا لدعوته بالرجوع إلى الكتاب والسنة والتمسك بعقائدهم وأخلاقهم الإسلامية ، فيقول فى تفسير قوله تعالى : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور » : « هذا من الله تعالى خبر حق ووعد صدق للمؤمنين بأن يرد عنهم كيد أعدائهم ويبطل مكرهم ويكف شرهم وإن عظم منهم وكثر ، وإن هذا منه لهم متكرر متجدد . . » [٣] ثم هو يؤكد ذلك فى موطن آخر عندما يصرح بأن الإيمان بالله والتمسك بدينه هو « السلاح الوحيد لحالة الجزائر ولا ننهض بهذا العلاج العظيم إلا إذا قمنا متعاونين أفراداً وجماعات ، فجعل كل واحد ذلك نصب عينيه ، وبدأ به فى نفسه، ثم فيمن إليه ، ثم فيمن يليه من عشيرته وقومه ثم جميع ملته . فمن جعل هذا من همه، وأعطاه ماقدر عليه من سعيه كان خليقاً أن يصل إلى غايته أو يقرب منها »[٤]. وهو أكثر صراحة من ذلك عندما يخبرهم بأن الشعوب الإسلامية أخذت فى علاج أدوائها، « وإن ذلك وإن كان يبدو اليوم قليلا ، لكنه بما يحوطه من عناية الله وما يبذل من جهود المصلحين سيكون بإذن الله كثيراً »[٥] .

---

(١) تفسير ابن باديس ص ١٠٠ . (٢) التفسير ص ١٥٠ – ١٥١ .
(٣) التفسير ص ٤٥٠ – ٤٥١ . (٤) التفسير ص ١٦٤ .
(٥) التفسير ص ١٦٥ .

ب — رجاء فى الله وفرار إليه :

وليس التفاؤل عنده نوعاً من الآمال الساذجة أو تخيل المحال ؛ بل أساسه عمل، وقوامه رجاء فى الله ؛ إذ «من ذا الذى لم يجد نفحات الرحمات فى أكثر الأوقات فى أحرج الساعات» . لكن الشيخ بن باديس لا يتعجل رحمة الله التى ستأتى، وقد زاد إيمانه باقتراب ساعة الخلاص من المحنة ، فقال فى اجتماع عام : «أما بعد فرحباً بأبناء الجزائر وأفلاذ أكبادها، مرحباً بورثة مجدها الخالد وحماة مجدها الطارف وبناة مجدها الآتى الذى تتخبط به أحشاء الأيام[1] » ، ولم يكن بن باديس إلا صادق الحدس ، فإن هذا التفاؤل الذى بعثه فى النفوس يستطيع أن يلمسه أى إنسان فى هذه الطفرة العجيبة التى حدثت ما بين سنة ١٩٣٣ و ١٩٤٨ ، أى عندما ينتقل مثلا من قراءة جريدة الصراط إلى جريدة البصائر ؛ إذ يجد أن التهاب الشعور وعظيم الثقة بالله وبالنفس قد بلغت حداً يبشر بثورة عاجلة ، وقد تساءلت كيف خفى هذا التطور على الاستعمار مع كثرة عيونه ، فقيل لأنهم كانوا فى غفلة عن أثر الروح الإسلامية فى إحياء النفوس الهامدة . ومهما يكن من شىء فإنا نحمد الله أن خفى عليهم ذلك ؛ بل نستطيع القول بأن سريان الأمل فى النفوس كان أسرع من معدل تطور عقلية المستعمر . وهكذا وجد الاستعمار أمامه موجة من الشعور لا قبل له بها .

وكان الشيخ بن باديس يعلم حق العلم أن التفاؤل لا يثمر إلا إذا كان يرتكز إلى دعامة دينية هى الاعتماد على الله لا على المخلوق . وقد أشار فى أثناء مقاومة الرجعية الطرقية له إلى أن النجاح لن يكون إلا فى جانب هؤلاء الذين اتجهوا إلى الله مخلصين له الدين، لا إلى المستعمر . لأننا « إذا رأينا طائفتين من المؤمنين تنازعتا فالتجأت إحداهما إلى السلطان تستغيثه ، وتستعين به . . . فأغاثها وانتصر لها وأمدها ، وقربها وأدناها ؛ وأما الأخرى فلم تستغث إلا بالله ولم تستنصر إلا به ، ولم تعتمد إلا عليه ، ولم تعمل إلا فيما يرضيه من نشر هداية الإسلام . . . وتحملت فى سبيل ذلك كل ما تسببت لها فيه الفئة الأخرى . ومن تولته وهربت إليه — إذا رأينا

(١) جريدة السنة المحمدية النبوية العدد ١٣ .

هاتين الطائفتين عرفنا منهما يقيناً الفارة من الله والفارة إليه ، فكنا ، إن كنا مؤمنين مع من فر إلى الله »[١] .

وقد طبق بن باديس هذا المبدأ على نفسه أول ما طبق؛ لأنه فر إلى الله يستلهمه العون على إنقاذ الجزائر التى حطم الاستعمار شخصيتها ثم فتح أبوابها للمبشرين ، ولم يفر إلى غيره . فمضى يبث الروح الاسلامية فى نفوس أبنائها لتحصينها أمام هذا الغزو الجديد . وقد كان الإمام مثالا أعلى للأستاذ الذى يريد تربية شعب بأسره[٢] . ثم هو إلى جانب ذلك يعلم أبناء الجزائر وشيوخها احتساباً لوجه الله ، فظن بعضهم أنه يتقاضى مرتباً كسائر الموظفين . وقد أشار إلى هذا الظن إشارة لطيفة جادة ومرحة فقال : « مضت عشرون سنة والناس يشكرون للحكومة توظيفها مدرساً يقضى سحابة نهاره وشطراً من ليله فى خدمة العلم الدينى واللسانى ونشره ، ظناً منهم أنى أتقاضى مرتباً كسائر الموظفين ، وأنا لم أرزأ الحكومة فلساً واحداً والفضل لله ، وما كنت إلا مدرساً متطوعاً مكتفياً بالإذن لى فى التعليم ، ذاكراً ذلك للناس عن الحكومة فى المناسبات بالجميل »[٣] . ويسخر الشيخ عبد الحميد بن باديس سخرية عذبة من الحكومة الفرنسية التى استغلت تضحيته بوقته من أجل التعلم لتتخذ ذلك دعاية لنفسها من أنها لا تحرم التعليم الدينى : «فقد مضت عشرون سنة ، كما يقول بن باديس ، والسياح الأجانب يأتون للجامع الأخضر يشهدون حلقات العلم ووفرة الطلاب ، فيعدون ذلك من عناية الحكومة بالمساجد الإسلامية وتركها حرية التعليم للمسلمين » .

حـ — خلق العفو :

وإلى جانب هذه التضحية عن طيب خاطر ، مع ضعف بنيته ، تلك التضحية التى ينوء بها أسلم الناس جسماً والتى عدّها بن باديس فضلا من الله ، فإنا نجد لديه خلقاً إسلامياً أصيلا وهو العفو؛ فإن خصومه من الطرقيين ، وربما كان

---

(١) التفسير ص ٤٦٧ — ٤٦٨ .

(٢) انظر ص ١٧ من تاريخ حياته .

(٣) جريدة الصراط العدد السابع ١١ رجب ١٣٥٢ الموافق ٣ أكتوبر سنة ١٩٣٣ .

من ورائهم محركو الطرقية ، دبروا له أمراً ، فأفسد الله تدبيرهم ، عندما فشلت محاولة اغتيال بن باديس . ولم ير الإمام أن ينتقم لنفسه، بل عفا عن هذا الذى أرسل لاغتياله [1] .

وحتى الآن لم نر إلا الجانب السمح السهل فى شخصية بن باديس ، وأظن أن لنا أن نعرض للجانب الصارم الممتنع ؛ بل لنا أن نقول إن طابع الصرامة والامتناع هو الغالب حتى فى جانبه السهل، لأنه كان ، فى الحق ، صارماً وممتنعاً فى تسامحه وسهولته ، بمعنى أنه قل أن يدانيه أحد فى التسامح والرفق بالناس والتضحية من أجلهم . وأما الجانب الصارم الممتنع قلباً وقالباً فيتجلى فى شدته العنيفة فى الحق وشجاعته النادرة . وما كان لأحد من معاصريه أن يدانيه فى هذين الأمرين من قريب أو بعيد ؛ لأنه كان أكثرهم فراراً إلى الله وثقة بتأييده .

د — صرامته فى الحق :

ولا شك فى أن تلاميذه ورفاقه أعرف الناس بمثل هذا الخلق عند بن باديس، لكننى رأيته خلال كتاباته فى مواقف عديدة ، أذكر منها مثالين أحدهما كان فى معرض الرد على أحد النواب الموالين للحكومة ، وكان قد زعم أن الحكومة الفرنسية هى صاحبة فضل على جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، لأنها تساعدها بالمال . فبدأ بن باديس يصف هذا الرجل بأنه رضى لنفسه أن يكون أداة هدم فى يد المستعمر، وبوق شر وفساد فى مجلس رسمى . ثم يعجب كيف زعم هذا النائب أن جمعية العلماء مسئولة عن الفتن والقلاقل فى البلاد . ولذا يصفه الإمام بالكذب ، ويحتج لذلك بالهدوء وعدم وجود صدام بين الحكومة وبين قوة أخرى، « بل الموجود فى هذا الوطن حركة هادئة عامة نحو ما وعدت به فرنسا الجزائريين من حقوق تعطى لهم » ، وهذا لون جديد من الجهاد السهل الممتنع الذى يباشرة بن باديس، فى وقت ما كان يجرؤ أن يقول فيه أحد إن للمواطنين الجزائريين حقوقاً يطالب بها. لكن الإمام يقول ما لا يجرؤ أحد على قوله وبأسلوب رقراق يشبه خرير الماء الهادئ المستمر الذى ينخر فى الصخر ، ويدفع بالجزائريين إلى التمسك بحقوقهم . ثم هو

(١) انظر ص ٢١ .

يشكك فى نوايا فرنسا فيتحدث عن سكوت الجزائريين وانتظارهم لوعود كاذبة فيقول : « اعتصموا بالانتظار الذى تعودوه من أمد طويل فهم ساكتون منتظرون والله أعلم بما سيكون ! »

ثم ينتقل من هذا السهل الصارم الممتنع فى آن واحد إلى الصارم حقاً ليحطم أعوان المستعمر . فيصف النائب بأنه كاذب مرة أخرى عندما زعم أن الحكومة ساعدت الجمعية ورخصت لها ، ثم يكذبه هو ومن يدعوه إلى التحرش بالجمعية فيقول : « والحكومة ما عرفت لها الجمعية مساعدة خاصة لا أولا ولا آخراً ؛ وأى مساعدة شاهدناها من الحكومة وقد أقرت قرار " بريق " الذى يمنع رجال الجمعية من وعظ العامة وإرشادهم فى المساجد ؟ وأى مساعدة والحكومة قد أغلقت مكاتب وامتنعت عن الترخيص فى مكاتب أخرى لمجرد انتماء المعلمين أو المطالبين للتعليم للجمعية ؟»[1] . ثم بعد كل هذه اللطمات المتتالية لكل من النائب والحكومة يحتج عبد الحميد بن باديس بالقانون الفرنسى إيغالا فى تسفيه مسلك الحكومة الفرنسية بالجزائر .

وأما المثال الثانى فهو موقفه الصارم من دعوة الصلح بين جمعية العلماء وبين الطرقية ، عندما تقدم أحد الوسطاء بشروط الصلح فقال بن باديس : كيف يعقل أن يفيد صلح مع جماعة تطلب إليه أن يحلل حراماً ويحرم حلالا ؟ ثم هو صلح مشروط بشروط تتلخص فى أن الطرق الصوفية تطلب على لسان الوسيط إلى جمعية العلماء أن تقر البدع والمنكرات ، فى سيدى عابد مثلا ، وتسكت عنها وأن تثبت الضلال ؛ وأن تحرم إستخدام النظر العقلى والاستدلال . إن هذه الشروط فى ذاتها هدم للصلح لا مقدمة له ؛ لأن قبولها معناه أن تحل جمعية العلماء نفسها . ثم يحسم بن باديس الأمر مع دعاة الصلح بأن يطلب إليهم أن يعرضوا هذه الشروط على حكم لا يميل مع الهوى ، وهو الكتاب والسنة ؛ إذ أنهما المعيار الحق ، ثم يتساءل : وفيم هذه الشروط التى تتنافى مع الشرع ، وكان من الأولى أن يطلب أهل الوساطة إلى الطرق الصوفية أن يعودوا إلى الكتاب والسنة فيهجروا البدع ؟ غير أن الأمر أعمق من هذا . فإن الشرط الأخير الذى تقدم به الوسطاء هو بيت

---

(١) الصراط ، العدد الأول ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٥٢ – ١٩٣٣/٩/١١ .

القصيد، عندما يطلبون إلى بن باديس وأصحابه ألا يشتغلوا بالسياسة . فهذا دليل على أن الصلح خدعة بل مكيدة ، إذ ليس هذا الشرط إلا نوعاً من تحريض المستعمرين وإغرائهم بدعاة الإصلاح الدينى[1].

وفيما بعد ، جاءت دعوة إلى الصلح من أحد علماء الأزهر ومن بعض طلبته، يرجون جمعية العلماء المسلمين بالجزائر أن تضع حداً لهذه الفرقة، فبين لهم بن باديس أن الصلح — وإن كان خيراً — لا سبيل إليه مع أصحاب الطرق . وقد عبر عن ذلك بقوله : « إنا نعلن لإخواننا أننا على رجاء اليأس من خصوم تضيع معهم حكمة لقمان ، ولا يجدى معهم حلم معاوية ، ولا يرضيهم عدل ابن الخطاب ولا تسامح صلاح الدين . وليس لنزاعهم معنا غاية غير كم أفواهنا، وكسر أقلامنا ثم إقلال راحتنا إن أعجزتهم المقادير عن إزهاق أرواحنا . وليس لهم إلى هذه الغاية غير وسيلتين إحداهما الوشاية بنا إلى الحكومة بأنا وطنيون ضد الاستعمار ، وأننا نعمل للجامعة الإسلامية، وأنا . . . وأنا، وثانيهما الاختلاق علينا مع الأمة، بأنا ندعى الاجتهاد ، وأنا نستخف بأمتنا فى الدين، وأنا ننكر الولاية والكرامة وأنا . . وأنا. وقد فطنت الأمة إلى مكرهم وكيدهم. ولعل الحكومة لا تستمر على مجاراتهم » .

فأى صرامة فى الحق مثل هذه الصرامة التى تهيئ لعبد الحميد بن باديس فى الوقت نفسه أن يتهم الحكومة الفرنسية بالجزائر بأنها تحرض الصوفية لوأد الحركة الإصلاحية الدينية ، وذلك كله فى أسلوب رقراق يضع كل إنسان فى موضعه بصرامة ودقة ، ولكن دون عنف فى التعبير يؤاخذ عليه صاحبه .

هـ — الشجاعة العقلية النادرة :

ولم تكن تلك الصرامة التى رأيناها منذ قليل إلا مقدمة لموقف يعجب المرء اليوم كيف لزم منه الوالى العام للجزائر مسلك الصمت فى أواخر سنة ١٩٣٣ ، رغم الجرأة البالغة فى النقد الذى وجهه إليه بن باديس، وتعريضه الواضح بأنه ليس من شأن الوالى أن يتخذ نفسه حكماً على إيمان المسلمين أو عدم إيمانهم . وبيان الأمر فى هذا الموقف أن الوالى العام للجزائر كان قد صرح لمراسل جريدة البتى

(١) السنة المحمدية ، العدد الثامن ٤ صفر ١٣٥٢ .

باريزيان(Le PetitParisien) بحديث عن الحوادث الدينية فى الجزائر ، فقال : إنها ترجع إلى أسباب سياسية وليس لأصحابها عقيدة راسخة ، بل إن فريقاً منهم لا ديني ، وأكثرهم لا يؤدون شعائر دينهم ، وإن هؤلاء النواب استطاعوا أن يصدوا العلماء عن أعمالهم ، وأغلب هؤلاء العلماء من خريجى الأزهر حيث لا تدرس مبادئ الإسلام وتعاليمه قط[1] . ثم أعقب ذلك أن عطلت بعض الصحف كالشريعة والسنة .

فقامت جمعية العلماء بإصدار بيان وتذكير إلى الأمة الإسلامية الجزائرية تؤكد فيه أنها قامت لأغراض دينية . وكأن عبد الحميد بن باديس أشار عليها أن تكتفى بهذا البيان حتى لا تتعرض لعسف الوالى . أما هو فقد التزم أن يتكفل بالوالى وحده ؛ فإنه يؤثر عن الشيخ بن باديس أنه قال لزملائه فى أحاديثه الخاصة بشأن التدريس بالمعهد الدينى : « إنى أستكفيكم فى كل أمر يتعلق بالكلية إلا الاستعمار فأنا أكفيكموه فخلوا بينى و بينه» . وهكذا فعل ، بعد أن صدرت عدة أعداد أخرى من جريدة الصراط . فقد جاء رد الإمام بن باديس مثالا أعلى فى الثقة بالله وبالنفس ؛ إذ أخذ يفند أقوال الوالى العام بجرأة صارمة فى العدد الخامس عشر من جريدة الصراط وذلك بتاريخ ٨ رمضان ١٣٥٢ الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٣٣ . فبدأ يرد على الوالى الذى نسب الحوادث الدينية إلى أسباب سياسية . ولم يكن رد بن باديس فى حقيقة أمره إلا وصفاً للوالى بالكذب ؛ أى أنه يقول له : إن سبب الحوادث هو تدخل الإدارة الفرنسية فى الشئون الدينية تدخلا مخالفاً للدين نفسه وللقانون الفرنسى أيضاً ؛ لأن الجمهورية الفرنسية علمانية . ثم أخذ يدافع عن نواب الجزائر الذين أراد الوالى أن يغمزهم فى دينهم ، فوصفهم الإمام بأنهم أدوا واجبهم ، وليس عملهم هذا استغلالا سياسياً لموقف من المواقف . وكيف للوالى العام أن يرميهم بعدم الإيمان . وما شأن ألوف الجزائريين المسلمين ممن لم يرمهم الوالى بعدم الإيمان ؟

ثم يترفع بن باديس عن أن يناقش الوالى العام فى عقيدة هؤلاء النواب ؛ لأنهم قبل كل شىء «مسلمون يعيشون عيشة المسلمين ، ويحملون شعارهم ، ويألمون لآلامهم ،

---

(١) انظر صحيفة الصراط ، العدد الحادى عشر بتاريخ ٩ شعبان سنة ١٩٥٢ ، ٢٧ نوفبر سنة ١٩٣٣

ويحملون عبء القوانين الاستثنائية مثلهم » . ثم نراه يعجب للوالى كيف لم يدرك أن العقيدة الدينية تدفع صاحبها إلى الثورة للدفاع عنها . « فأولئك النواب وإن لم يقوموا بجميع ماتقتضيه العقيدة ، نزولا على قول جنابه ، فإنهم ما اندفعوا ، زيادة على القيام بالواجب ، للعمل إلا بها » .

ثم يناقش الوالى العام فيما ادعاه من صد النواب للعلماء عن عملهم الطبيعى ، فيبين له أنه هو الذى يصد ؛ لأن الإدارة الفرنسية أوصدت المساجد فى وجه وعظ العلماء وإرشادهم ، وأغلقت كثيراً من المكاتب الابتدائية ، وأمسكت عن إعطاء الرخص لفتح المكاتب . أما السياسيون الذين اتهمهم الوالى، فما حاولوا الزج بالعلماء فى مجال السياسة ، وما كان للعلماء أن يزجوا بأنفسهم فى هذا المجال ، وهنا يكاد يكشف بن باديس عن خطته لتحرير الجزائر ، وذلك لشدة ثقته بأنها ستنفذ لا محالة فى المستقبل فيقول : « إن العلماء وضعوا خطة التعليم الدينى عن علم وعقيدة، وتمسكاً بما هو مناسب لفطرتهم . فهم يريدون خدمة العلم والدين . ولو أردنا أن ندخل الميدان السياسى لدخلناه جهراً ، ولضربنا فيه المثل بما عرف عنا من ثباتنا وتضحياتنا . ولقدنا الأمة كلها للمطالبة بحقوقها ، وكان أسهل شىء علينا أن تسير على ما نرسمه لها . فإن ما نعلمه ولا يخفى على غيرنا ، أن القائد الذى يقول للأمة إنك مظلومة فى حقوقك، وأنا أريد إيصالها إليك ، يجد منها ما لا يجده من يقول لها إنك ضالة عن أصول دينك ، وإنى أريد هدايتك . فذلك يتبعه كلها ، وهذا يقاومه معظمها أو شطرها ، وهذا كله نعلمه لكننا اخترنا ما اخترنا لما ذكرنا وبينا » .

وبعد ذلك ينتقل بن باديس إلى تكذيب الوالى الذى غمز العلماء بأنهم تعلموا بالأزهر ،فيقول له : إنه ليس بصحيح أولا أنهم تعلموا فى مساجد الأزهر ، ثم يعرض برجل درس فى الأزهر وانقلب يحظى بكل الرضا لدى المستعمر. فالمسألة مختلفة جداً . إنها مسألة تفكير وجمود ، ونهضة أو موت ، وليست مسألة القاهرة ولا غيرها. وهنا ينتقل بن باديس إلى الدفاع عن التعليم فى مساجد القاهرة، ويكذب ما ذهب إليه الوالى مرة ثالثة .

وأخيراً نجده ،يكشف عن تحامل الوالى العام عندما أراد التخفيف من شدة هجومه على النواب المسلمين وعلمائهم، فقال: إنه لا يحرم العلماء إلا من دخول

المساجد التى تخضع فى ميزانيتها للدولة ، وإنه لم يمنعهم من المساجد الخاصة ، فيقول له الإمام بن باديس : إن المساجد الخاصة هذه لا تكفى عموم الناس . وإذن فالنتيجة الواضحة هى أن منع العلماء من المساجد العامة هو فى التحليل الأخير بمثابة منعهم من القيام بمهمتهم الدينية « على أتم وجوه المنع الذى لا يخففه وجه من وجوه الاعتذار » ، فالوالى هو إذن الذى يصد العلماء المسلمين عن القيام بعملهم وواجبهم. ثم يختم بن باديس رده الجرىء بهذه العبارة الصارمة الساخرة التى يتردد فى أسلوبها السهل الممتنع الوعد بتحقيق العدالة والخير للجميع . . أى للجزائريين فيقول :

« هذا وإننا ، مع كل احترامنا لجنابه ، ما نزال نكرر احتجاجنا على منعنا من المساجد ، وكل ما نرى به من غير تبصر ، غير يائسين من إتيان يوم تتجلى فيه العدالة لجمعية دينية علمية تهذيبية تعمل لخير الجميع » .

* * *

وقد أراد الإمام أن يبين لنا مظاهر التدهور فى المجتمع وأسبابه فى الوقت الذى كان يعالج فيه هذا التدهور بالفعل .

٢ ـ مظاهر التدهور فى المجتمع الإسلامى الجزائرى

يصف لنا الشيخ عبد الحميد بن باديس ما رآه من حالة مسلمى الجزائر وما وصلوا إليه من التدهور فى الثلث الأول من القرن الحالى . وقد تجلى هذا التدهور ، حسبما رأى ، فى مظاهر التدين فى الناحية الاجتماعية التى تتصل بحياة الناس من حيث العمل والكسب والثقافة والمستوى الاقتصادى . فالغنى كل الغنى للمستعمرين ، والفقر والبؤس للجزائريين أصحاب البلاد الحقيقيين . لذا نجده يؤكد بصراحة : « إننا نأتى بما يبرأ منه الإسلام ونصرح بأنه صميمه » ، هذا فى الناحية الدينية . أما فى الناحية الاجتماعية « فإنا نرانا فى حالة من الجهل والفقر والتفرق والذل والاستعباد يرثى لها الجماد »[١] . ومن ثم فليس ثمة ما يدعو إلى العجب

(١) التفسير ص ٢٢٠ عند تفسيره لقوله تعالى : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة وكان ربك بصيراً » .

حقيقة من أن ينفر الغربيون من الإسلام » ويسخروا منه — على حد قوله — إلا من نظر منهم بعين العلم والإنصاف . فإنه يعرف أن ما نحن عليه هو ضد الإسلام . فكنا فتنة عظيمة عليهم ، وحجاباً كثيفاً لهم عن الإسلام. فكنا ويا للأسف فتنة للقوم الظالمين » .

وشبيه بهذا القول ما ذكر من أن حكومة اليابان بعثت إلى خليفة المسلمين فى تركيا فى أواخر القرن الماضى تطلب إليه أن يرسل إلى اليابان من يطلع أهلها على الدين الإسلامى تمهيداً لاعتناقه ، فأشار عليه جمال الدين الأفغانى أن يرسل إلى الإمبراطور بهدية ثمينة وأن يستمهله بعض الوقت . ثم نصح الأفغانى الخليفة بأن يعد لهذه المهمة الكبرى شباباً يعرفون الإسلام معرفة صحيحة حتى يستطيعوا إقناع اليابانيين بالدخول فى الإسلام ، بدلا من أن يرسل إليهم نفراً من هؤلاء الذين غلب عليهم التصوف الخادع من العلماء، إذ يوشك هذا الصنف من العلماء أن ينفر اليابانيين من هذا الدين دون رجعة . ويقال إن دخول الإسلام إلى اليابان قد تأخر ثمانين سنة عندما لم يستمع السلطان لنصح جمال الدين الأفغانى .

أما الإمام بن باديس فإنه لا يكتم حزنه عندما يرى كيف تدهور المسلمون فى وطنه بسبب الجهل وسوء فهمهم لدينهم، فعلى حين يرون أهل الباطل يعيشون إلى جانبهم، وفى بلاد الغرب ، حياة عزة وسيادة وتقدم علمى وعمرانى، يقنع المسلمون بالاندفاع فى تقليدهم فى كل شىء حتى فى معايبهم ومفاسدهم ، أو فى قشور الحضارة مع ازدراء كل عزيز لديهم « إلا من نظر بعين العلم فعرف أن كل ما عندهم من خير هو عندنا فى ديننا وتاريخنا ، وأن ذلك هو الذى تقدموا وسادوا به ، وأن ما عندهم من شر هو شر على حقيقته ، وأن ضرره فيهم هو ضرره (فينا) ، وأنه لا يجوز أن يتابعوا عليه ، فكانوا فتنة لنا ، كما كنا فتنة لهم » .

٣ ـ أسباب التدهور

وقد فطن بن باديس إلى السبب الجوهرى فى تدهور المسلمين بصفة عامة ، والجزائريين المعاصرين له والذين يهمهم أمرهم بصفة خاصة . ويتلخص هذا السبب فى النظام الاستبدادى إسلامياً كان أم غير إسلامى، فتدهور أحوال المسلمين فى جميع مظاهر الحياة والعمران أساسه الاستبداد . والحق أنه لا يحمّل الشعب المستبد

به هذه المسئولية كلها . فإنها ترجع فى المقام الأول إلى استبداد الملوك والقادة ، ثم ترجع تبعاً لذلك إلى ضعف الروح الدينية لدى الجميع ملوكاً ورعايا ، وهنا يبرز الشيخ عبد الحميد بن باديس مسئولية رجال الدين ممن آثروا السكوت لسبب أو لآخر ، وقصروا فى القيام بواجبهم الذى كان يقضى عليهم أن يقاوموا المستبدين ويعلموا الجاهلين ببث روح الإسلام السامى فى نفوسهم . .

وهو يؤاخذهم على تقصيرهم ، عن تجربة وعلم ، لأن مقاومة عالم واحد تأتى بكل عجيب فى تطهير النفوس كمقدمة ضرورية لكل إصلاح جدى . وهذا هو ما نعتقد أن بن باديس برهن عليه برهنة كافية وملموسة بأسلوبه السهل الممتنع ، دون أن يأخذه غرور بما عقد العزم عليه ، وعندما وثق بتحقيقه بفضل من الله . فرأيناه يدعو المسلمين إلى مقاومة الاستبداد ويحثهم على أن ينفخوا مثله فى قلوب المسلمين « روح الاجتماع الثورى فى كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم حتى لا يستبد بهم مستبد »[1] .

وهذه المقاومة التى يدعو إليها هى تلك التى نهض بها هو وجماعة من أصحابه ومن رأى أن ينتمى إليه ، ومن أراد استغلال حركته كالحزب الشيوعى . فقاموا إلى جانبه ، بعضهم عن إخلاص ، وبعضهم للإفادة من المعركة الإصلاحية بطريقة أو بأخرى . وهذا أمر مشاهد فى كل حركة إصلاحية ، وتلك هى طبيعة البشر فى كل عصر ، كما يكشف لنا تاريخ المجتمعات أيًّا كانت اتجاهاتها وبواعثها وأهدافها . ومهما يكن من أمر ، وعلى الرغم من هؤلاء المعوقين والخاذلين له ولفكرته ، فإنه قاد جمعية العلماء المسلمين بمهارة بالغة ، فى أشد الأوقات حرجاً ، إلى تحقيق الهدف الذى حدده بينه وبين نفسه ، وهو الهدف الذى عاونه على تحقيقه المخلصون من أصحابه عن علم أو عن إخلاص فقط . وكأنه كان يحدس بالغيب أو يصور الواقع عندما يتكلم عن تلك التجربة التى ستكشف أو كشفت بالفعل « عن الخاذل لهم ممن ينتسب إليهم فينبذ ويطرح ويستغنى عنه بالله وبالمؤمنين »[2] .

ثم يعلو الشيخ بن باديس على الواقع الجزائرى الذى رسمه لنا بوضوح يعرفه

---

(١) التفسير صفحة ٢٢٣ .

(٢) التفسير ص ٤٢٩ .

حق المعرفة من عاصره وأسهم معه عن إخلاص ، وهم الكثرة ، أو عن غير إخلاص وهم القلة من الأمة — تقول إنه يعلو على هذا الواقع الجزائرى ليبين لنا : « أن أعظم الفتنة فيما يرى هو ما قاله الإمام جعفر الصادق : أن يسلط عليهم سلطان جائر[1] ، « فإنه إذا جار السلطان — وهو من له السلطان فى تدبير الأمة والتصرف فى شئونها — فسد كل شىء وفسدت القلوب والعقول والأخلاق والأعمال والأحوال ، وانحطت الأمة فى دينها ودنياها إلى أحط الدرجات ، ولحقها من جرائه كل شر وبلاء وهلاك . ثم يتفاوت ذلك الفساد بحسب ذلك الجور فى قدره وسعته ومدة بقائه » .

ومع ذلك فإن تسامى الإمام عن الواقع الجزائرى لا يبتعد به عنه كثيراً ، فإنا نراه سرعان ما يهبط من التعميم فى حديثه عن المستبد الظالم الذى يفسد كل شىء حتى العلماء ، والذى يتدرج بسببه الفساد فى درجات الوظائف العامة حتى أدناها ، إذ أن دولة الاستبداد هى دولة الأوغاد ، على حد تعبير عبد الرحمن الكواكبى — نقول إنه سرعان ما يعود ليلمس الواقع الجزائرى عندما يقرر لنا أن هذا الفساد العظيم الذى عم بلاد المسلمين بسبب استبداد ملوكهم ليس شيئاً يقارن بالفساد الذى ينخر فى كيان الأمة المسلمة إذا ولى أمرها من لم يكن من جنسها ولا دينها فى شىء . .

أليس ابن باديس صريحاً هنا الصراحة كلها ، لكنها الصراحة التى تنساب فى رفق وصدق لا سبيل إلى إنكاره ؟ ومع ذلك فإنه يبعث الأمل ، والخجل فى النفوس الراكدة .

أما الخجل فمما وصلت إليه من الاستخذاء للباطل وأعوانه . وهو يضع هذا التوبيخ بين فقرتين من كلامه عن أعظم الفتنة ؛ إذ نجده يعود مرة أخرى إلى قول الإمام جعفر الصادق ، فيقول : « إن أعظم ما لحق الأمم الإسلامية من الشر والهلاك كله جاءها على يد السلاطين الجائرين منها ومن غيرها . وهذا ما يشهد به ماضيها وحاضرها . فما أصدق كلمة جعفر الصادق وما أعمق نظره فيها » ، ونقول نحن ما أعظم مهارة الشيخ بن باديس فى التعريض بدولة الباطل .

أما الأمل الذى يبعثه فى تلك النفوس الخائرة فهو أنه يؤكد لمواطنيه أن العودة إلى الإيمان والصدق والشكر هى السلاح الناجع . «وقد شهد التاريخ بذلك من الله لهم .

---

(١) هو يشير هنا إلى المستعمر .

فلما خانوا وكفروا تركهم ومكن منهم. ولكنه برحمته وعدله لم ينس لهم أصل إسلامهم فأبقى لهم أصل وجودهم الذاتى . . . وأبقى لهم أصل وجودهم الروحى بكتابه المتلوّ بين ظهرانيهم ، رغم إعراضهم عن تدبر ما فيه . عساهم يرجعون »[1] .

٤ ــ معوقات الإصلاح

ولا يشك الإمام بن باديس فى رجوع المسلمين إلى الكتاب والسنة ، وإن كانت هناك معوقات تحاول صدهم عن العودة إليهما ، وأهم هذه المعوقات التصوف الخادع الذى حاول الإمام أن يجمع أصحابه معه على الهدف الحق ، لأنه كان يسلك دائماً مسلك الدعوة بالحسنى قبل أن يلجأ إلى الصراع مع فريق من قومه تربطهم به الأخوة فى الله ، رغم سوء فهمهم لدينه . لقد قيل إنه اتجه إلى الطرق الصوفية لأنه لم يكن قد استكمل تكوينه ، لكننا نميل إلى أنه كان متصوفاً سنياً بمعنى الكلمة ، ولم تكن شخصيته فى حاجة إلى أن تستكمل عن طريق هؤلاء . وبالفعل خدع المستعمرون فى حقيقته عندما رأوه يتقرب أولا إلى الطرق الصوفية ، وظنوا أنه لا خطر من أمره مادام قد اتجه إلى هؤلاء . وخيل إلى خبرائهم فى هذه الناحية أنه مجرد رجل عادى استهوته الطرق كما تستهوى غيره عادة ، ولم يفطن هؤلاء وهؤلاء إلى حقيقة الأمر عندما اتصل الإمام بالطرق الصوفية .

ونعتقد نحن ، كما أكد لنا أحد تلاميذه فى قسنطينة[2] ، أنه سلك مسلك الرجل العربى المسلم الذى يبدأ الناس بالتحية حتى يحسم الرأى فى أمرهم . فلقد كان من الممكن أن تكون الطرق الصوفية الجزائرية مصدر انبعاث ؛ لانه ما زالت فيها بقايا من الأصول الإسلامية ، وبخاصة فى زاوية الهامل ، وكان الإمام يأمل عن طريق الاتصال بها ، أن يستنقذ منها تلك العناصر الصالحة التى تسانده فى حركته الإصلاحية الدينية والاجتماعية والسياسية . غير أنه تبين له أنه على الرغم من وجود

---

(١) التفسير صفحة ٤٥٢ .

(٢) ونعنى به الأستاذ الصادق حمانى مدير الليسيه « حوحو » الذى أعجبنا بنظرته الصادقة الثاقبة .

بعض العناصر التى حافظت على العقائد القرآنية واللغة العربية ، إلا أن كثيراً من الطرق وقعت تحت تأثير الاستعمار، الذى درس ظروفها عن طريق جواسيسه وعلمائه المشتغلين بدراسة التصوف ، واستطاع أن يدخلها فى فلكه . .

وكان هؤلاء العلماء المستشرقون ينظرون، فى بادئ الأمر ، إلى بن باديس نظرة الاستهانة والازدراء فيما يبدو ، وكان الشيخ عبد الحميد يحتقرهم احتقاراً ديمقراطيًّا علميًّا[1] ، لأنه كان يدرك أن مادة بحثهم هى التراث الإسلامى ، ثم إنهم يأخذون هذا التراث ويدعونه لأنفسهم . .

لكن تحية الإسلام لهذه الفرق لم تجذبهم إلى حركة الإصلاح . وهكذا أبرأ بن باديس ذمته من إخوانه فى الله الذين أشفق عليهم أن يلتزموا جانب المستعمر ، ولو كان فى ذلك خسران الأمة الجزائرية . وليس من الغلو فى شىء أن يحاربهم الإمام بكل هذا العنف الذى أتاح له أن يستخلص العامة من سلطانهم ، وأن يقضى على شيوخهم ، قبل أن يمهد الطريق أمام الجيل الذى أعده للقضاء على المستعمر . .

٥ ــ أسس الإصلاح وأسلوب تنفيذه

لقد قلنا إن الصيغة الموجزة التى تعبر عن شخصية الإمام عبد الحميد بن باديس هى أنه السهل الممتنع . وفى اعتقادنا أن صيغته نفسها هى التى تكشف لنا عن السر فى نجاح خطته ، لأنه بدأ الإصلاح سهلاهيناً ، وانتهى به صارماً ممتنعاً . على نحو لم يفطن له المستعمر أول الأمر ولم يستطع القضاء عليه بعد أن تم بالفعل . لقد أراد أن يحاصر الجزائر بمحو شخصيتها العربية الإسلامية فحاصره بن باديس بالجزائر العربية المسلمة التى يمكن القول بأنها نجت بمعجزة ، ونعنى بها معجزة الإخلاص العميق . ومن توفيق الله أن وهب لها زعيما هو نسيج وحده ، ظل يعمل فى هدوء حتى أصبح الهدوء لا يكفى ، فثنى بالصرامة والعزم القوى فحقق الله آماله وآمال أمته . وإذا أردنا الوقوف على سر النجاح فى هذا العمل الضخم فينبغى لنا أن نعلم أن

---

(١) هذا هو تعبير الأستاذ الصادق حمانى .

بن باديس لم يفصل قط النظرية عن التطبيق، أو بعبارة أدق لم يفرق بين العقيدة والعمل . .

وقد بدأ الإصلاح سهلا هينا فى مجال ظن المستعمر أن لا خطر فيه . ذلك أنه بدأ يتكلم عن الدين والخلق والعقيدة ، وضرورة الإصلاح الدينى والتضحية من أجل الآخرين والشورى عند الملمات إعداداً لمرحلة الجهاد والكفاح ، أى أنه وضع البذرة وتعهد النبت، حتى أخذ الآخرون بأن روح الشعب الجزائرى بدأت تخفق ، فحاولوا المقاومة بأساليب لم تكن لتجدى ، لأنها جاءت بعد أوانها .

ا — دين وخلق[١] :

ألح عبد الحميد بن باديس فى تلقين شباب عصره وكهوله فكرة السببية التى لاتتعارض مع عقيدة القضاء والقدر على نحو ما ظن علماء عصور التدهور ، فبين لهم أن التدهور الذى تعانيه الأمم له أسبابه ، ومتى ارتفعت هذه الأسباب ارتفع العذاب الذى تعانيه الأمة الجزائرية من الباطل وأعوانه. إنهم يقاسون كل صنوف الحيف ، وكانوا يظنون أنها نزلت بهم عفواً ، أو أن الله أراد لهم العذاب، دون أن يكونوا أهلا له ، مع أن هذا الظن أقرب إلى سوء الاعتقاد فى الله . إن التدهور يرجع إلى فصل العقيدة عن العمل ، أو إلى تدهور العقيدة وتطرق الشرك الخفى .

فالعلاج الناجع إذن هو الإيمان الصحيح ، فقد قال تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض »، ومن ثم يقول عبدالحميد بن باديس « فالإيمان والتقوى هما العلاج الوحيد من حالتنا . فنقطة البدء فى أى إصلاح هى تطهير العقائد من الشرك ، والأخلاق من الفساد. فلا داعى إذن إلى تحقير أنفسنا ، ولا موجب للقنوط من رحمة الله ، وليس لنا أن نستهين بما نزيله كل يوم من فسادنا .فبدوام السعى واستمراره يأتى ذلك القليل من الإصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله ... وأصل هذا الفساد العظيم لايخفى على أحد» . وما أظنه خفى على تلاميذ بن باديس ، فقد قوضوا أسسه عن علم ، كما أنهم

---

(١) التفسير لابن باديس صفحة ١٦٤ فى تفسير قوله تعالى : « وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً ، كان ذلك فى الكتاب مسطوراً » . الإسراء — آية ٥٨ .

علموا أن الإصلاح الخلقي تابع للإصلاح الديني بالعودة إلى الكتاب والسنة . وفى العودة إليهما قضاء حاسم على الفساد وأعوانه . .

وهكذا أدرك بن باديس منذ أول الأمر ، وبتوفيق من الله،أنه ما من أمة يمكن أن تنهض حقيقة إلا عن طريق التربية ، وأن هذه التربية لا تكون مجدية إلا على أساس تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق ، ومن قبل حاول « أوجست كونت» مثل هذه النهضة لكنه فصل الأخلاق عن الدين . وحاول بعض أتباع مدرسته أن ينشئ الأخلاق على أساس من العلم لا من الدين فلم يفلح. لقد ظنت المدرسة الفرنسية أن المجتمع هو الذى يفرض القيم الأخلاقية فرضاً ، ورأى بن باديس ، ومثله جمال الدين الأفغانى ، أن الأخلاق هى التى تنبع من أعماق الضمير المتدين لا من قهر المجتمع ،لأن صوت الضمير أقوى من مئات القوانين . وهذا هو ما يمكن التعبير عنه أيضاً بكلمة للإمام بن باديس: « إن الخلق القويم لا بد أن يكون نتيجة تطابق الباطن مع الظاهر»[1] .

ب ـ الإصلاح الدينى :

وتتحقق هذه المطابقة بين الظاهر والباطن عند الفرد والجماعة فى القيام بشرائع الإسلام علماً وعملا فى أبواب العبادات والمعاملات، وفى تطبيق أصول الإسلام وفروعه على الحياة الخاصة والعامة[2] ، أى أن المسلمين لم يضعفوا إلا عندما فرقوا بين العقيدة والعمل فكثرت البدع وصنوف الضلال منذ القرن الثالث الهجرى، ويؤكد ما ذهب إليه بن باديس أن مخطط الفرق الباطنية، وما صحبه من تطور التصوف الفلسفى ، قضى على الدولة الإسلامية الكبرى فى بغداد . فسبب التدهور كما يفهمه بن باديس، وكما يشهد به واقع التاريخ يرجع إلى الابتعاد عن الكتاب والسنة ، فقد

---

(١) انظر التفسير ص ٩٦ .

(٢) التفسير ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ فى تفسير قوله تعالى :

« ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا. لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وكان الشيطان للإنسان خذولا » الفرقان آيات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .

صرف أهل الفتنة جهدهم فى تأويل القرآن، وصرف الناس عنه. وتحريف السنة وتزييفها، «فالخسران الذى وعد به الله من يخالف الكتاب والسنة . وإن كان موجهاً للمشركين ، إلا أنه من نصيب أهل البدع والضلال فى المجتمع الإسلامى» .

حـ — دعوة إلى العمل :

وقد بلغ التدهور بالمسلمين غايته ، لأنهم رضوا لأنفسهم أن يتبعوا أهل الفتنة والبدع . ولما كانت الأسباب تؤدى دائماً إلى نتائجها ، فليس لهم أن يعجبوا إن حل بهم العذاب. وهذا قانون تخضع له الأمم «مثل الأمم الإسلامية الحاضرة ، فمما لاشك فيه أن فينا ظلماً وعتواً وفساداً وكفراً بأنعم الله، وأننا من جراء ذلك فى عذاب شديد، وليس هذا القانون خاصًّا بهذه الأمم وحدها ، فهنالك أمم أخرى أقوى منها فى أسباب العذاب والهلاك . . . وإذا لم يأت المقدار المماثل من الهلاك أو العذاب لما عندهم من أسبابها فلأنه لكل أمة أجل، ولمّا يأت ذلك الأجل بعد، فإذا جاء لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»[1] .

إذن يجب البحث عن أسباب هذا العذاب الذى تقاسيه الأمة الإسلامية لأن معرفتها قد تبعث النفوس إلى تجنبها فيزول هذا البلاء ، وقد وعد الله كل أمة تقلع عن الفساد أن يرتفع عنها العذاب ، وهو الصادق الوعد الرحيم ، وإن المطلع على أحوال الأمم الإسلامية يعلم أنها قد شعرت بالداء وأحست بالعذاب وأخذت فى العلاج .

وأول خطوة فى العمل هى العمل بدعوة الإسلام الصحيحة ، أى بالتضحية من أجل الجماعة، وليس المقصود من العمل هو الفناء فى الله، بل الفناء من أجل المسلمين. وهنا يبين لنا بن باديس كيف انصرف الناس عن العمل المجدى إلى نوع من الشعوذة والتخاذل . فلقد كان القرآن يعرض العقائد بأدلة عقلية سهلة تصلح للعامة والخاصة ، فترك المسلمون هذه العقائد الواضحة وانصرفوا إلى الجدل واستهوتهم الطرق المعقدة لدى علماء الكلام ، وهكذا تمزقت الأمة وانحرفت

---

(١) التفسير ص ١٦٣ .

عن العمل الجدى بسبب تناحر فرق الكلاميين فى مناقشة مشاكل لفظية[١] ؛ فمن أجل العمل أن نخرج من جو المهاترات التى وقعت بين علماء الكلام الذين لم يجدوا عملا أفضل، فى ظنهم، من أن يكفر بعضهم، بعضاً، مع أنهم من دين واحد، وأهل قبلة واحدة ، وهذا هو الخسران المبين ، عندما ترك الناس القرآن وشغلوا أنفسهم بتشكيكات الفلاسفة وفروضهم ومماحكات المتكلمين ومناقضاتهم فما ازدادوا إلا شكاً ، وما ازدادت قلوبهم إلا مرضاً ، حتى رجع كثير منهم فى أواخر أيامهم إلى عقائد القرآن وأدلة القرآن فشفوا بعد ما كادوا .. كإمام الحرمين والفخر الرازى »[٢]

أما فى الفقه فقد ترك الفقهاء الأصول واشتغلوا بالفروع ، فشعبوا وضيقوا رحمة الله الواسعة على الناس، ودفعوهم دفعاً بسبب تعنتهم إلى أحضان الطرق الصوفية التى تسهل عليهم كل شىء . فمن الضرورى أن تطهر كتب الفقه من المسائل المتشعبة التى توهمنا، عند بعض تفريعاتهم الغريبة فى مسألة هى أبغض الحلال إلى الله، وهى الطلاق ، أنهم يشرعون للحمقى من الناس[٣] . وتطهير كتب الفقه من مثل هذه المسائل من خير العمل .

أما فى مجال الأخلاق فإن القرآن يبين لنا مكارم الأخلاق ونفعها، ومساوئ الأخلاق وضررها[٤]، لكن المسلمين هجروا تلك الأخلاق التى لا تدانيها أخلاق أى دين آخر أو أى مذهب فلسفى[٥]، واندفع كثير منهم إلى التصوف الأعجمى المختلط بتراث أمم وثنية . ويعبر الشيخ عبد الحميد بن باديس عن هذا الخذلان قائلا : « فهجرنا ذلك كله ووضعنا أوضاعاً من عند أنفسنا واصطلاحات من اختراعاتنا خرجنا فى أكثرها عن الحنيفية السمحة إلى الغلو والتنطع ، وعن السنة البيضاء إلى الأحداث والبدع ، وأدخلنا فيها من النسك الأعجمى والتخيل

---

(١) انظر مقدمتنا فى نقد مدارس علم الكلام لكتاب « مناهج الأدلة فى عقائد الملة » .

(٢) التفسير ص ٢٤١ .

(٣) انظر كتابنا الإسلام بين أمسه وغده ١٤٢ — ١٥٢ .

(٤) التفسير ٢٣١ .

(٥) هناك رسالة فى الأخلاق القرآنية للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ، وفى كتاب تفسير الشيخ عبد الحميد بن باديس عرض ممتاز لهذه الأخلاق . انظر ص ٨١ وما بعدها .

الفلسفى ، ما أبعدها غاية البعد عن روح الإسلام ، وألّى بين أهلها بذور الشقاق والخصام ، وآل الحال بهم إلى الخروج من أثقال أغلالها، والاقتصار على بقية رسومها للانتفاع منها ومعارضة هداية القرآن بها »[١]

لذلك ينبغى أن نطهر علومنا الإسلامية من هذه الأوشاب . وإلى جانب الأوهام والخرافات توجد قشور يشغل الناس أنفسهم بها بدلا من البحث عن اللب . ويشير بن باديس هنا إلى طريقة التدريس فى جامع الزيتونة ، حيث يشغل الطالب عقله ، على حد تعبير الإمام بالخصومات بين النحاة « أياما وشهوراً فتنتهى السنة وهو لايزال حيث ابتدأ أو ما تجاوزه إلا قليلا ، ويعجب كيف ينقلب تفسير القرآن إلى تطبيقات للقواعد على الآيات ، كأن التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية ، لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية »[٢] .

وهذا النقد البناء ينبغى ألا يغضب أحداً ، وقد حاول شيئا من هذا القبيل الشيخ الأحمدى الظواهرى فى كتابه « العلم والعلماء » وفيه يبين أن بعض العلماء يتنافسون على تدريس الوسائل بدلا من المقاصد ، أى يفضلون تدريس القواعد النحوية وعلوم الجدل الكلامية على تدريس التفسير والحديث ؛ لأن العلوم الأولى تسمح لهم بأن يجولوا ويصولوا فى عرض حجج الخصوم ونقدها، أو لمجرد سردها . فمن خير العمل ترك القشور للاهتمام بالأخلاق والهداية الإسلامية .

ومثل هذا العمل فى مجال الثقافة الإسلامية هو الكفيل بتعديل الاتجاه ، أى بالخروج من التيه الذى نحن فيه ، على حد تعبير بن باديس ، ويعنى به ثقافة عصور الجمود ، وذلك حتى يمكن فهم القرآن بروح علمية مجردة من الأوهام والخرافات » والاستعانة على ذلك بإخلاص القصد وصحة الفهم . وهذا أمر قريب على من قربه الله عليه ، ميسر على من توكل على الله فيه . وقد بدأت طلائعه والحمد لله، وهى آخذة فى الزيادة إن شاء الله ، وسبحان من يحيى العظام وهى رميم ».
ولا ريب فى أنه يشير هنا إلى بعث الأمة الجزائرية إلى الحياة الكريمة عن طريق العلم الدينى الصحيح وتحذيرها من العلم المزيف الذى سيطر على العقلية الإسلامية

---

(١) التفسير ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .
(٢) نفس المصدر ٢٣٣ — ٢٣٤ .

بصفة عامة طيلة العصور السابقةدون منازع . وقد أخلص بن باديس القصد، وأجاد الفهم، وتوكل على الله، وكان مثال العالم المضحى من أجل هذا الإصلاح الدينى . .

٦ ــ ظهور فكرة الإصلاح

كان ذلك هو العمل التمهيدى الذى قام به الإمام بن باديس، لكن لم تكن النظرية منفصلة عن التطبيق، إذ شرع منذ البدء يثقف العقول تبعاً لمنهجه الجديد بعمل متواصل لا ينهض به إلا من كان كبير الهمة، عظيم الإخلاص لما يعتقده الحق . ولم يكن بد أن تمتد روح التفاؤل ،وهى من أظهر السمات فى شخصيته ، إلى الآخرين ، فغمر الأمل قلوبهم فى تحقيق نتائج هذا العمل المتواصل، بعد هدم صرح الأوهام وتحطيم الحواجز التى وضعها أصحاب الطرق الصوفية بين المسلمين وبين الكتاب والسنة . فعلم الناس أنهم إنما ينهضون متى طهرت عقائدهم ، وعادت نفوسهم وقلوبهم تستقى من المصدر الأول، وعلموا أن الإصلاح يؤتى ثمرته إذا وجدت لهم قوة . « وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر، وتتشاور وتتآزر ،وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة، متساندة فى العمل عن فكر وعزيمة ». وهذا هو ما حققته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، إذ ما كاد يمضى وقت قليل حتى بدأت تظهر فكرة الإصلاح ، ثم قامت دولة الباطل تساندها الرجعية، تحاول القضاء على هذه الفكرة، فقد أدركت بحساسية جرذان السفينة أن هذه الجمعية هى التى ستغير الواقع الجزائرى ، وهو الذى كان فى صالحهم حينذاك .

لكن ظهور فكرة الإصلاح كان ضرورة تاريخية ، فقد اتفق بن باديس مع المصلحين السابقين من أمثال جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده على أن الأمة الإسلامية بدأت تدرك أنها دخلت مرحلة دقيقة من تاريخها بسبب عودة الغزو الأوربى الذى ذكرها بالحروب الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين . وكان سقوط الجزائر هو النذير الأول ، ثم تتابعت النذر بسقوط تونس ومصر وليبيا، ثم بسط الحماية على مراكش . لذلك استيقظ المسلمون من

ركودهم الشامل وارتفعت صيحات الإصلاح فى جوانب العالم الإسلامى تدعو الناس إلى معالجة أدوائهم بالقضاء على أسبابها : واجتثاث أصلها .

وقد لاحظ بن باديس أن سلاح اليقظة كان دائماً عن طريق العودة إلى الإسلام الصحيح المستقى من الكتاب والسنة ، وهو الإسلام « الذى أنقذ الله به العالم أولا ، ولا نجاة للعالم مما هو فيه اليوم إلا إذا أنقذه الله به ثانياً »[١]. وهناك ما يدعو إلى التفاؤل، لأن المسلمين يلبون نداء المصلحين مما يقوى الرجاء، ويبعث الأمل .

٧ ــ مقاومة الرجعية التى تدافع عن الباطل

وكان من الضرورى أن تلقى هذه اليقظة الشاملة فى الجزائر مقاومة الرجعيين ومن يحتمى به هؤلاء للاحتفاظ بمزاياهم[٢]. غير أن الإمام عبد الحميد بن باديس يستبشر بهذه المقاومة التى قد يضيق بها صدر مصلح آخر ، لأنه كان يؤمن إيماناً عميقاً بتلك البشرى التى انطوى عليها قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً »[٣]. ولأنه كان يعتقد أن هذا الوعد عام لكل من دعا إلى اتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم . لذلك جعل يطمئن أصحابه أن مقاطعة الناس لهم وما يلقونه من أذاهم لن تدوم وأنه سوف يشتد عزمهم بما سيجدونه من « ود فى القلوب ممن يعرفون ومن لا يعرفون » .

١ ــ أول الغيث :

ومن علامات تحقق هذا الوعد أن الوالى الفرنسى اضطر إلى أن يتظاهر بأنه ليس ضد جماعة العلماء المسلمين الجزائريين ، وأنه لا يقاومها بأى نوع

---

(١) التفسير ص ٤٣٤ .

(٢) التفسير ص ٤٣٦ .

(٣) سورة مريم آية ٩٦ وكانت قد نزلت فى السابقين إلى الإسلام من الصحابة الذين تنكر لهم أهل مكة .

من المقاومة . وعندئذ تقول جريدة الصراط ، تظاهراً بتظاهر ، إن الحكومة الفرنسية ستشارك هى الأخرى مع الأمة وسكان الجزائر فى جنى ثمرة الجهود التى تبذلها جمعية العلماء . كذلك تظاهرت الجمعية بأنها تعاون فرنسا على تهذيب هذا الشعب الجزائرى وترقيته ورفع مستواه إلى الوضع اللائق باسم فرنسا وسمعتها . ولا بأس فى رأينا من التظاهر ، إذ من الحكمة أن تلقى كل خصم بسلاحه . ومع ذلك فإن تظاهر الجمعية لم يكن إلا ستاراً رقيقاً ، لأنها تنبه الوالى الفرنسى فى الوقت نفسه إلى أن كثيراً من دوائر الإدارة الفرنسية تقاوم الجمعية . ثم لاتلبث أن تجبه الوالى بأنه قد صدر قرار بتعطيل جريدة الشريعة ، بعد أن تظاهر الوالى بأنه لا يقاوم الجمعية[1] .

ب — الوالى يستعين بالرجعية :

غير أن الوالى كان قد سبق إلى تحريك أعوانه ليهاجموا الحركة الإصلاحية ، فجعل هؤلاء يصفون الشيخ بن باديس بأنه وهابى . وعبداوى ، رغبة فى تنفير الناس منه . وسعياً إلى وأد الحركة فى مهدها ، مع أن الإمام محمد عبده والإمام محمد بن عبدالوهاب كان لهما أكبر الأثر فى تطهير العقائد الإسلامية من الخرافات والأوهام ، وبدأ بتجديد الأمة الإسلامية. وقد سخر بن باديس من هؤلاء الخصوم الذين وصفهم بأنهم أهل جمود وركود فى مقال مشهور « بعنوان عبداويون ثم وهابيون ثم ماذا لا ندرى والله »[2] . وقد بين فيه سبب حنق هؤلاء الخصوم ، لأنه ساءهم أنه دعا إلى دراسة اللغة العربية تمهيداً لمعرفة المصادر الخاصة بالشريعة الإسلامية وللاطلاع على مؤلفات المعاصرين أيضاً . وهذا هو الخطر الأكبر الذى كان يخشاه المستعمر الحريص على عزل الجزائر عزلا تامًّا لإدماجها نهائيًّا فى فرنسا .

فالخطة مرسومة منذ وقت طويل . ودليل ذلك أنه ظل يدرس عشر سنوات فى قسنطينة ولم يكن قرأ شيئاً يذكر للشيخ محمد عبده ، ومع ذلك كان أعوان الباطل يحاربونه ويكيدون له ، دون أن يعنى بأمرهم . لأنه قضى تلك السنوات العشر

---

(١) جريدة الصراط العدد (١) ٢١ جمادى الأولى ١٣٥٢ الموافق ١١ سبتمبر ١٩٣٣ .

(٢) العدد الثالث من السنة المحمدية النبوية .

« لتكوين شىء علمى لم يخلط به غيره من عمل آخر »، فلما ظهرت نتائج التدريس فكر فى إنشاء جمعية تقوم بدعوة عامة إلى الإسلام الخالص، والعلم الصحيح، أى إلى الكتاب والسنة وهدى سلف الأمة ، وذلك لتحرير الناس من البدع والضلالات . ثم أنشأ صحافة كان لها أثرها فى إحياء موات النفوس . وهنا تنبه المستعمر الذى يطلق عليه بن باديس اسم « الباطل » فى كثير من كتاباته « فكانت هذه المرة غضبة الباطل أشد، ونطاق نقمته أوسع ،وعداد أتباعه أكثر » . ثم تحالف أعوان الجمود مع أعوان البدعة ليقدموا خدماتهم لمن أتاح لهم صروحاً من الجاه، وأنهاراً من المال ، على حد تعبير بن باديس . غير أن الإمام عرف كيف يفحم هؤلاء الأقزام عندما بين لهم أن كثيراً من الأئمة السابقين كشفوا عن مخطط أهل البدعة ومستغلى العامة ،فنشر شيئاً من كلام الشاطبى ، ووعد بأن يتابع نشر آراء كبار الأئمة ، أى دون حاجة إلى الاستعانة بأقوال محمد بن عبد الوهاب ومحمد عبده .

حـ — معركة غير متكافئة :

وهكذا بدأت المعركة غير متعادلة . فعلماء المسلمين من أصحاب بن باديس لا يعتمدون إلا على المثقفين ، فى حين كان للمستعمر أعوانه من أهل الجمود والبدع ، وهم كثيرون بخذلان من الله ، ومن ورائهم ملايين من العامة . ومع ذلك فإن ميزان القوى كان قد تغير وأصبح فى صالح العلماء المسلمين من أصحاب بن باديس. لقد كان أعوان الباطل يظنون أنهم يستطيعون الاعتماد على عامة الشعب التى تعد بالملايين ،لكنهم فوجئوا عندما علموا أن صوت المصلحين سبقهم إلى الشعب . وهذا هو ما يفسر لنا فزعهم . لذلك رأيناهم يحاولون تركيز جهودهم على كسب المستعمر، فأعلنوا إخلاصهم لفرنسا ، وذهب وفد من أصحاب الطرق الصوفية يعلن ولاءه للوالى الفرنسى[1] . ونبهوا الوالى إلى خطر المصلحين وكانوا هم الذين أشاروا عليه بمنع العلماء من دخول المساجد للوعظ ، مما دعا جريدة « البتى باريزيان » (Le Petit Parisien) إلى القول « بأن الطرق الصوفية تملك السلطة الروحية التى يمكن أن تكون مفيدة أو ضارة لفرنسا، تبعاً لطريقة استخدامها »، ولكن الطرقيين

---

(١) الصراط العدد ١١ بتاريخ ٩ شعبان ١٣٥٢ ، ١٩٣٣/١١/٢٧ .

كانوا حتى الآن من أحسن معاونينا ، كما أنه ليس هناك ما يحول لنا أن نشك فى إخلاص العلماء، فثقافتهم الروحية عربون على اعتدالهم » .

وقد ابتهج عبد الحميد بن باديس لهذهالمقاومة ، وله فى الحق أن يبتهج؛لأنه نجح فى عزل أصحاب الطرق الصوفية عن الشعب،وأظهرهم فى مظهر من يتحالف مع أعداء هذا الشعب. وكيف لا يبتهج وقد استطاع أن يكشف النقاب عن خيانة الصوفية، وأن يجبر العدو على الاعتراف بأنه لا يجد شيئاً يدين به جمعية العلماء المسلمين[1].

وإذا كانت الحكومة الفرنسية للجزائر ارتضت أن تحارب من وراء ستار، وتحرك أعوانها الذين بدأوا يفقدون مواقفهم ، فإن بن باديس أخذ يهاجم علنا ويتهم الوالى الفرنسى بأنه هو الذى يحارب علماء الأمة ودينها ، كما سبق أن رأينا فى أثناء حديثنا عن شجاعته العقلية . وإنما هاجم الوالى بهذه الجرأة النادرة ، لأن المعركة كانت بدأت فى الخفاء منذ عدة أشهر ، وتبين أن النصر فيها لن يكون فى جانب « الباطل » وأعوانه . فقد رفضت الحكومة إنشاء مدرسة جديدة فى بلدة القنطرة، مع أن شيخاً جليلا تطوع أن يعلم الأطفال المشردين فى البلدة الذين شكت إحدى السائحات من أنهم يشوهون جمال هذه البقعة من أرضهم الجزائرية[2] .

ومن مظاهر هذا العسف أن الحكومة الفرنسية للجزائر كانت تسمح لليهود فيها أن ينشئوا المدارس لأبنائهم ، ولا تسمح للمسلمين بإنشاء مثلها لأطفالهم ، فى الوقت الذى تزعم فيه أن الدولة منفصلة عن كل صبغة دينية . فالمسئول عن المنع إذن هو المستعمر . وهذه هى الحرب التى بدأها هو .

وهذا هو السر فى تلك الصرامة وهذه الجرأة اللتين نراهما فى موقف عبد الحميد بن باديس . ثم لم يكتف الوالى الفرنسى بذلك بل استعان بنائب يهاجم جمعية العلماء، ويصفهم بأنهم مالكيون، « وليت الناس كانوا مالكية إذن لاطرحوا كل بدعة . . فثارت ثائرة هذا الجاهل ، ومن كانوا فى الجهل والشر مثله ، يحاولون إثارة الفتنة والله يطفئها » [3] .

---

(١) الصراط العدد ١٣ بتاريخ ٢٣ شعبان ١٣٥٢ ، ١٩٣٣/١٢/١١ .

(٢) الصراط العدد ٢ بتاريخ ٢٨ جمادى الأولى ١٣٥٢ = ١٨ سبتمبر ١٩٣٣ .

(٣) العدد الثالث من الصراط بتاريخ ٥ جمادى الثانية الموافق ٢٥ سبتمبر ١٩٣٣ .

ونقول إن الحكومة الفرنسية للجزائر كانت تظن أنها تحارب فى خفاء ، مع أن الشيخ عبد الحميد بن باديس كان حريصاً على كشف خداعها منذ حين ، وهو يحذرها من سلوك هذا المسلك الشاذ تجاه مسلمي الجزائر. بمحاربة أية حركة إصلاحية دينية بشتى الوسائل ، ومنها استدعاؤه هو شخصياً لسؤاله إذا كان لديه إذن حكومى يرخص له بالعمل فى التدريس ، مع أن الحكومة تعلم أنه يدرس منذ عشرين سنة فى الجامع الأخضر، وفى مسجد سيدى قوش، ومسجد سيدى عبدالمؤمن[١]، وأن لديه رخصة بهذا العمل منذ ذلك الحين. فالمسألة «ليست مسألة عبد الحميد بن باديس ولكنها مسألة التعليم الدينى واللسانى للمسلمين، ومسألة مائة طالب أو يزيدون جاءوا من العمالات الثلاث بقسنطينة هذه الأيام ، ومسألة نحو الألفين من سكان قسنطينة ونواحيها يمتلئ بهم الجامع الأخضر كل ليلة فى مجالس التذكير »[٢]، وهذا هو على وجه التحقيق ما كانت تخشاه فرنسا كل الخشية . وهو السبب فى كل هذه المقاومة التى جندت لها بعض الأذناب وأصحاب المصالح الذين يهمهم ألا تنجح حركة الإصلاح التى يدعو إليها بن باديس ، ولا سيما أن بضعة رسائل من مسلمى اليمن جاءت تؤيد جمعية العلماء المسلمين فى جهودها للقضاء على البدع ، وكانت تلك الرسائل تبشر بالقضاء على الطرق الصوفية فى اليمن . وقد اشتدت المعركة عندما أصدر المجلس الإدارى لجمعية العلماء قراراته التى يطالب فيها بفتح مجال التعليم الدينى، بضرورة التعليم العربى « وترك الحرية التامة للمسلمين الجزائريين فى فتح المكاتب القرآنية والمكاتب الحرة ، وأن تقف (الحكومة) وراء القائمين بهذه المشاريع موقف المؤيد المساعد »[٣] . ولم تكن تلك فى الحقيقة مجرد مطالب تقدمت بها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، بل كانت شروط المنتصر ، رغم أن الجمعية ظلت تؤكد أنها جمعية دينية تهذيبية

---

(١) العدد السابع من الصراط ص ٦ بتاريخ ١١ رجب ١٣٥٥ .

(٢) يقول بن باديس « ابتدأت القراءة بقسنطينة بدراسة الشفاء القاضى عياض بالجامع الكبير حتى بدأ للمفتى الشيخ بن الموهوب أن يمنعنا فمنعنا . . فطلبنا الإذن من الحكومة بالتدريس فى الجامع الأخضر فأذنت لنا وكان هذا الإذن على يد م . أريب الكاتب العام للأمور الوطنية بدار العمالة إذ ذاك (نفس المصدر ونفس الصفحة) .

(٣) الصراط العدد ١١ ص ٤ .

لا شأن لها بالسياسة . وأميل إلى اعتقاد أن الإمام عبد الحميد لم يكن يتعجل النصر لأنه كان شديد الثقة بأنه آت لا محالة . وكيف لا، وقد عزل خصومه واحداً بعد آخر ، ووضع دستوره فى قصيدته المشهورة التى يؤكد فيها أن الشعب الجزائرى عربى مسلم[١] ؟

٨ ـ نجاح الخطة

وهكذا نجحت الخطة التى رسمها عبد الحميد بن باديس ونفذها بصبر وأناة . وهو تخطيط فى غاية البراعة ، فقد استطاع أن يعزل المتحالفين. فبدأ بالطرق الصوفية،التى أراد فى أول الأمر أن يستخلص العناصر السليمة فيها لأن الأخوة فى الله فوق أى اعتبار آخر. فلما حاربته بدأ يعزلها عن الشعب . فلما لجأت إلى المستعمر أظهرها بمظهر الخيانة ، ففقدت سلطانها على الشعب ولم تعد ذات نفع للحكومة الفرنسية بالجزائر ؛ بل غدت عبئاً عليها . فلما انتهى من الأذناب ظهرت دولة الباطل على حقيقتها ، إذ أنها كانت تريد أن تمحو الصبغة العربية الإسلامية فى الجزائر ، غير أنها تنبهت ، بعد فوات الوقت ، إلى أن مصلحاً قطع الطريق عليها فى رفق ودون تظاهر بالبطولة ، فحاصرها ببعث اللغة العربية ، وتجديد العاطفة الدينية الصادقة ، مما أحيا فى الأمة روح المطالبة بحقوقها ، وفى مقدمتها الحرية الدينية التى كانت فرنسا تتظاهر باحترامها ، وهى الحرية التى لا يمكن الحفاظ عليها فى الجزائر بصفة خاصة إلا بلسانها العربى . لقد قام الإمام عبد الحميد بن باديس بهذا الحصار بأسلوبه السهل الرقيق الهادئ فى الوقت الذى ظن فيه المبشرون أن الحكومة الفرنسية العلمانية بالجزائر قد هيأت لهم كل الوسائل فى هذا القطر الإسلامى فما عليهم إلا أن يدخلوه بجحافلهم[٢] .

غير أنها وجدت آخر الأمر أنها هى التى حوصرت . ونحن نعلم جميعاً نهاية

---

(١) انظر ص ٣١ ، ٣٢

(٢) لم يتنبه ماسينون وغيره إلى خطر دعوة الإمام بن باديس وظنوا أنها محاولة ساذجة للإصلاح الدينى وأنه لا خطر منها .

هذا الحصار . فقد نجا القطر الجزائرى بفضل الله وإخلاص بن باديس وتضحيات الشعب الجزائرى قاطبة . .

إن عبد الحميد بن باديس الذى فر إلى الله واستعان به لتحرير هذا القطر الإسلامى العربى كان غاية فى اليقظة ، فإنه لم يخدع بأساليب الاستعمار وحيله ، فى الوقت الذى كانت تخفى فيه على كثير من البلاد الإسلامية . فهو يحذر المسلمين من هذه الأساليب منذ زمن طويل . وهو يحدثنا[1] عن محاولة الدول الغربية فتنة المسلمين باسم الخلافة ، وأنها أرادت أن تستغل ذلك مرات عديدة فأصيبت فيها كلها بالفشل . ويعجب الإمام أن يندفع فى تيار هذه الفتنة كثير من المسلمين ورؤسائهم وبخاصة فى مصر حيث كان يحكم الملك السابق فاروق[2]. لكن مضى فاروق ، وخرج الإنجليز من مصر ، ووقفت معظم الدول الإسلامية المتحررة من سيطرة الغرب ضد فكرة الحلف الإسلامى فى أيامنا هذه ، حتى لم نعد نسمع شيئاً عنه ، ولقد كان عبد الحميد بن باديس محقاً عندما قال فى سنة ١٩٣٨ : «كفى غروراً وانخداعاً . إن الأمم الاسلامية اليوم، حتى المستعبدة منها. أصبحت لا تخدعها هذه التهاويل ولو جاءتها من تحت الجبب والعمائم » .

ولقد سبق عبد الحميد بن باديس أيضاً فى تأكيد فكرة القومية العربية، وبعث الأمل فى نفوس أمة ظن الاستعمار أنه قضى على شخصيتها وعروبتها، وأنه كاد يدمجها فى الوطن الأم كما يقال . والإمام يبعث الأمل فى النفوس مستعيناً بالله دائماً فهو يقول[3] : «لم لا نثق بنفوسنا ، وقد أعطانا الله عقولا ندرك بها ، ومواهب نستسخرها لما يرضى الله ورسوله . لنا مواهب مثل ما لغيرنا، وفوق ما لغيرنا . وقد أعطانا من هذا الدين الإنسانى ، ومن هذا الدين العقلى والروحى ما يكمل عقلنا

---

(١) الشهاب العدد ٢ المجلد ١٤ ص ٤ — ٦ غرة ربيع الأول ١٣٥٧ ، مايو ١٩٣٨ .

(٢) يحق لابن باديس أن يسخر فيقول «من هذا الاندفاع ما يتحدثون به فى مصر فيتردد صداه فى الشرق والغرب ، وتهيج له صحافة الإنجليز على الخصوص ، ويتحدثون فى مصر وفى الأزهر عن الخلافة كأنهم لا يرون المعاقل الإنجليزية الضاربة فى ديارهم » .

(٣) النص التعريبى الكامل للتقرير الأدبى الذى ألقاه سماحة الأستاذ بن باديس بجمعية التربية والتعليم ١٣٥٨ هـ مايو ١٩٣٩ ، البصائر السنة الرابعة العدد ١٧١ .

ويهذب أرواحنا ، أعطانا منه ما لم يعط لغيرنا ، لنكون قادة وسادة وأعطانا وطناً شاسعاً واسعاً مثل ما لغيرنا . فنحن إذن شعب عظيم يعتز بدينه ، يعتز بلغته ، يعتز بوطنيته ، يستطيع أن يكون فى الرقى واحداً من هذه الشعوب . .

« إنا نعتصم بالحق ونعتصم بالتواضع عندما نقول إننا شعب خالد ككثير من الشعوب . لكنا ننصف التاريخ إذا قلنا إننا سبقناها فى ميادين الحياة ، سبقناها بهدايتنا . وسبقنا هذه الأمم فى نشر الحق أيام كانت فى ظلمات الجهل . . .

«ذلك ما كنا فيه وما سنعود إليه ، وإنما علينا أن نعرف تاريخنا ، ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لائقة به فى هذا الوجود، ولا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد ، إلا هذا الحبل المتين : اللغة العربية ؛ لغة الدين ، لغة الجنس ، لغة القومية ، لغة الوطنية المحروسة . . .

« إنها وحدة الرابطة بيننا وبين ماضينا ، وهى وحدها المقياس الذى نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا ، وبها يقيس من يأتى بعدنا ، من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين ، أرواحهم بأرواحنا ، وهى وحدها اللسان الذى نعتز به ، وهى الترجمان عما فى القلب من عقائد ، وما فى العقل من أفكار ، وما فى النفس من آلام وآمال . .

« إن هذا اللسان العربى العزيز الذى خدم الدين ، وخدم العلم ، وخدم الإنسانية هو الذى تتحدث عن محاسنه منذ سنين ، فليحقق الله أمانينا » .

وينتهى مديحه للسان العربى إلى أن يطرى اتجاه بعض الشبان إلى دراسة اللغة العربية ، من الذين حالوا دون أن يتجه القطر الجزائرى نحو الفناء ، عندما لم تكن لهذا القطر مدارس تعلم اللسان العربى ، ولم يكن « له رجال يدافعون عنه ويموتون عليه ، بل كان فى اضطراب دائم مستمر . . . وكان أبناؤنا يومئذ لا يذهبون إلا إلى المدارس الأجنبية التى لا تعطيهم غالباً من العلم إلا ذلك الفتات الذى يملأ أذهانهم بالسفاسف حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم وقد ينكرونها» .

إن هذا الخطاب الذى يمجد فيه الإمام بن باديس اللغة العربية والجزائر المسلمة ليس إلا إعلاناً للنصر على المحاولة الفرنسية التى أرادت محو الشخصية

الجزائرية العربية المسلمة . ولقد قاله وفرنسا فى أوج عظمتها وقوتها. أى قبل الحرب العالمية الثانية بأشهر قلائل . أليست تلك هى الشجاعة النادرة التى حبا الله بها عبد الحميد بن باديس ؟ أليس هذا دليلا على أنه هو الرجل السهل الممتنع الذى بدأ ينحت فى الصخر نحت خرير الماء الهادئ حتى أتى على الصخر وأزاله من طريق هذه الأمة، التى أراد الله بها خيراً، فوهبها هذا الثائر المصلح. الذى بلغ الغاية فى التوفيق بين النظرية والتطبيق فى مناهج الإصلاح ؟! .

الفصل الثالث

الفكر السياسى للإمام بن باديس

١ – أصول الحكم :

لم يكن بن باديس مصلحاً فحسب ، بل كان مجاهداً سياسيًّا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فقد وضع للأمة الجزائرية دستور المستقبل ، عندما برهن لها على عدم مشروعية الحكم الفرنسى فى الجزائر، معتمداً فى ذلك على ما استنبطه من خطبة الخليفة الأول أبى بكر الصديق . فأصول الحكم فى الإسلام تناقض أصول الحكم الاستعمارى تماماً . « إذ لا حق لأحد فى ولاية أمر من أمور الأمة الإسلامية إلا بتولية الأمة . فالأمة هى صاحبة الحق والسلطة فى الولاية والعزل ، فلا يتولى أحد أمرها إلا برضاها » . وهذا الأصل مستمد من قول الصديق : وليت عليكم ، لأن غيرى ولانى وهو أنتم. وهذا ما لاينطبق على الحكم الفرنسى الذى فرض نفسه على الجزائر بحروب الإبادة وبالتفرقة العنصرية .

أما الأصل الثانى فإن « الذى يتولى أمراً من أمور الأمة هو أكفؤها فيه ، لا خيرها فى سلوكه . لذلك قدم الأرجح فى الكفاءة لا فى الخيرية » . وكأن بن باديس كان يحدس بمصير جمعية العلماء المسلمين بعد قيام ثورة التحرير . إنهم هم الذين بذلوا الجهد فى إعداد الأمة للجهاد ، لكن تطور المجتمع الجزائرى برهن بحسب الواقع أن الكفاءة فى القيادة كانت لجيل الشباب الذى رأى أن الوحدة الجزائرية لن تكون إلا عن طريق العمل .

ثم يستمر بن باديس فى تحليل خطبة أبى بكر الصديق ليقرر أصولا هامة للحكم . كحق الأمة فى مراقبة أولى الأمر ، لأنها مصدر سلطتهم ، وصاحبة النظر فى ولايتهم وعزلهم ، وكحق الوالى على الأمة فيما تبذله له من عون إذا رأت استقامته ؛ وحقه عليها فى نصحه وإرشاده ودلالته على الحق إذا ضل ، وتقويمه على الطريق إذا زاغ ، وكحق الأمة فى مناقشة أولى الأمر ومحاسبتهم على أعمالهم ،

وحملهم على ماتراه هي لا ما يرونه هم ، وحقها فى أن يبين لها من يتولى حكمها الخطة التى ستسير عليها لتكون على بصيرة من أمرها .

ومن هذه الأصول أن « لاتحكم الأمة إلا بالقانون الذى رضيته لنفسها وعرفت فيه فائدتها ، وما الولاة إلا منفذون لإرادتها ، فهى تطيع القانون لأنه قانونها ، لا لأن سلطة أخرى لفرد أو جماعة فرضته عليها ، كائناً ما كان ذلك الفرد ، وكائنة من كانت تلك الجماعة ، فتشعر بأنها حرة فى تصرفها ، وأنها تسير نفسها بنفسها ، وأنها ليست ملكاً لغيرها من الناس — لا للأفراد ولا للجماعات ولا للأمم ، ويشعر هذا الشعور كل فرد من أفرادها ، إذ هذه الحرية والسيادة حق طبيعى وشرعى لها ولكل فرد من أفرادها » .

ثم ينادى بن باديس — بعد أن دمغ الحكم الفرنسى بأنه غير شرعى ، وغير إنسانى ، بل هو حكم استبدادى أصيل فى استبداده ، وحاجز سميك أمام حرية الشعب الجزائرى — بأن الناس كلهم أمام القانون سواء ، لا فرق بين قويهم وضعيفهم ، يطبق على القوى دون رهبة لقوته ، وعلى الضعيف دون رقة لضعفه ، وهذا ما لم تفكر فرنسا قط فى تحقيقه ، رغم زعمها أن الجزائر فرنسية ، بل ظلت تفرق بين المعمرين الفرنسيين والمواطنين الجزائريين . وأكثر من ذلك ، فقد خرجت على قوانينها نفسها عندما دأبت على تزييف الانتخابات فيما بعد تزييفاً أزعج الفرنسيين أنفسهم . كذلك خرجت فرنسا على أصل هام من أصول الحكم عندما لم تحفظ التوازن بين طبقات الأمة ، فحرصت على تجريد الضعفاء من كل ما بقى فى أيديهم ، لتزيد من ثراء الأقوياء ، مع أن شريعة العدل توجب ان تصان الحقوق « فيؤخذ الحق من القوى ، دون أن يقسى عليه لقوته فيعتدى عليه حتى يضعف وينكسر ، ويعطى الضعيف حقه دون أن يدلل لضعفه فيطغى وينقلب معتدياً على غيره » ، وهذا ما يمكن استنباطه من قول أبى بكر رضى الله عنه : « ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه » . ومن أصول الحكم الإسلامى الصحيح أن يشعر الراعى والرعية بالمسئولية المشتركة بينهما فى صلاح المجتمع ، وشعورهما دائما بالتقصير فى القيام بها ، ليستمرا على العمل» .

وبعد أن بين هذه الأصول الإسلامية التى محاها الحكم فى الجزائر

واستعاض عنها بشريعة الغاب ، يقول بن باديس : « هذا ما قاله أول خليفة فى الإسلام منذ أربعة عشر قرناً، فأين منه الأمم المتمدينة اليوم ؟ فهل كان أبو بكر ينطق بهذا عن تفكيره الخاص وفيض نفسه الشخصى ؟ كلا ! بل كان يستمد ذلك من الإسلام ، ويخاطب المسلمين يوم ذاك بما علموه وما لا يخضعون إلا له ، ولا ينقادون إلا به . وهل كانت هذه الأصول معروفة عند الأمم فضلا عن العمل بها ؟ كلا . . . »

٢ ــ الوطن الجزائرى :

ربما كان بن باديس هو أول من حدد فكرة الوطن الجزائرى فى النصف الأول من القرن العشرين ، بعد أن ظنت فرنسا وظن الكثيرون معها أنها جعلت الجزائر مقاطعة فرنسية بفضل القرارات التى كانت تصدرها تباعاً منذ صدور الأمر الفرنسى فى ٢٢ يوليو ١٨٣٤ : الذى يقضى بأن الجزائر ملكية لفرنسا. وذلك قبل أن تتمكن من احتلالها . ولما استطاعت القضاء على ثورة الأمير عبد القادر، التى استمرت حتى ١٨٤٧ ، أصدرت مرسوماً فى ٤ مارس ١٨٤٨ تعلن فيه أن الجزائر جزء لايتجزأ من فرنسا ، وفى سنة ١٨٧٠ قسمت الجزائر إلى ثلاث مقاطعات فرنسية ، ثم عادت بعد مجزرة سطيف فى ٨ مايو سنة ١٩٤٥ تؤكد من جديد أن الجزائر فرنسية ، وتشرع لها دساتير صورية ترمى إلى التعلق بتلك الأسطورة التى حاكت خيوطها أكثر من قرن من الزمان ، فلم تقنع أحداً بصدقها . وما كان لفرنسا ولا لأعوانها أن يحملوا هذا الادعاء محمل الجد ، ولاسيما أن فكرة الجزائر المسلمة العربية ظلت راسخة فى النفوس ، رغم ضروب العسف والإبادة منذ الفتح .

وقد وجدت فرنسا فى عبد الحميد بن باديس خصماً أفسد عليها سياستها ، ومهد للقطيعة التامة بين الفرنسيين والجزائريين بعد الحرب العالمية الثانية ، وكشف النقاب عن عبث جميع المحاولات التى قامت بها فرنسا ، أو بعض زعماء الأحزاب السياسية الجزائرية فى الثلاثينيات والأربعينيات ، فنحن نجده فى سنة ١٩٢٦ يصدر جريدة «المنتقد» بهذا العنوان : « الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شىء » ، ثم يعود إلى تأكيد فكرة الوطن الجزائرى فى ١٩٣٧ بعد فشل سياسة المهادنة التى

تزعمها « ڤيوليت » صاحب المشروع المشهور ، الذى قلنا إنه كان يرمى إلى امتصاص سخط الجزائريين الذين غررت بهم فرنسا ، وجندت منهم مئات الألوف فى الحرب العالمية الأولى . إن بن باديس يذكر هؤلاء الذين أصابهم اليأس لفشل هذا المشروع بأن مشكلة الجزائر لن تحل إلا على أساس الاعتراف بكيان هذا القطر العربى الإسلامى . وهو يذكرنا بأنه نادى بهذه الحقيقة فى الوقت الذى كانت فيه كلمة الوطن والوطنية جريمة سياسية ، « وقليل جداً من يشعر بمعناها ، وإن كان ذلك المعنى دفيناً فى كوامن النفوس ككل غريزة من غرائزها ، لا سيما فى أمة تنتسب إلى العروبة وتدين بالإسلام مثل الأمة الجزائرية »[1] .

لكن فى سنة ١٩٣٧ أصبحت هذه الكلمة سهلة على كل لسان « وقد يقولها قوم ولا يفقهون معناها ، وقد يقولها آخرون بألسنتهم ، ولا يستطيعون أن يتسموا بها فى المكتوب من رسمياتهم ، ويفزع منها من يتخيلون فيها ما يعرفون فى وطنياتهم ، وينكرها آخرون زعماً منهم أنها ضد إنسانيتهم وعمومياتهم »[2] أما هؤلاء الذين يفزعون منها فهم فرنسيو الجزائر الذين يرون فى فكرة الوطن الجزائرى نهاية لسيطرتهم فى شمال القارة الإفريقية . وأما هؤلاء الذين قد ينكرونها فهم هؤلاء الذين عنى بن باديس بتوجيه الكلام إليهم ، وعلى رأسهم فرحات عباس الذى أحسن الظن بفرنسا ، وظن أن مبادئ ثورتها توجب عليها أن تطبق شريعة العدل فى الجزائر كعضو فى الاتحاد الفرنسى . حقاً إنه رجع عن رأيه واعترف بخطئه فيما بعد ، وانضم إلى جبهة التحرير فى ١٩٥٦ ، لكنه انساق فى ١٩٣٦ إلى إنكار الوطن الجزائرى فى نص مشهور أخذه عليه خصومه . وليس رد الإمام بن باديس على فرحات عباس أقل شهرة . فقد كتب فى مجلة الشهاب فى عدد نوفمبر سنة ١٩٣٧[3] بعنوان « كلمة مرة لأنها صريح الحق ولباب الواقع » : « نعرف كثيراً من أبنائنا الذين تعلموا فى غير أحضاننا ينكرون ، وربما من غير سوء قصد ، تاريخنا ومقوماتنا ، ويودون لو خلعنا ذلك كله واندمجنا فى غيرنا ، وكنا نرد عليهم

---

(١) الشهاب . الجزء السابع من المجلد الثالث عشر سبتمبر سنة ١٩٣٧ ، رجب ١٣٥٦ ص ٣٠٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٠٥ .

(٣) المجلد الثالث عشر ، الجزء التاسع ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

بالقول فى كل مناسبة تبدو منهم فيها مثل هذه البوادر السامة الخاطئة ، ووقع مرة أن كتب بعضهم — وهو ممن له قيمة معتبرة عندنا ، ما هو صريح أو كالصريح فى ذلك الضلال المهلك ، فرأينا من الواجب علينا أن نرد عليه : "كلمة صريحة" نعرب بها ، فى يقيننا عن الحقيقة التى يعتقدها الشعب الجزائرى ، إلا الشاذ فى صميم نفسه ، فقلنا فى كلمتنا تلك ، الأمة الجزائرية أمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا ، ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال ، ولها وحدتها الدينية واللغوية ، ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح شأن كل أمم الدنيا .

ثم إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هى فرنسا ، ولا يمكن أن تكون فرنسا ، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت ، بل هى أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد ، فى لغتها ، وفى أخلاقها ، وفى عنصرها ، وفى دينها ، ولا تريد أن تندمج . ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائرى بحدوده الحالية المعروفة ، والذى يشرف على إدارته العليا السيد الوالى المعين من قبل الدولة الفرنسية » .

ثم يبين لنا أنه وضح حقيقة الأمر فى الوطن الجزائرى ، وأنه قطع الطريق على كل متقول بالباطل ، وأن كلمته الصريحة قد حققت غايتها ، وأنها علت فى الصحافة والمجالس والمؤتمرات على كلمة الباطل التى أرادت أن تجعل الجزائر فرنسية . هذا إلى أن الفرنسيين أنفسهم أخذوا يحتجون بها لمعارضة مشروع « فيوليت » الذى لم يطالب بالحقوق السياسية إلا لنحو من خمسة وعشرين ألفاً من الجزائريين ؛ فى حين يطالب بن باديس بالوطن الجزائرى العربى المسلم لعشرة ملايين : « إن الأمة الجزائرية تطالب فرنسا بحقوقها لما دفعته من ثمن من دم أبنائها . . . وهذا حق لا يستطيع أن ينكره أحد يحترم نفسه ويقدر عواقب التاريخ قدرها . فأما أن تبذل الأمة الجزائرية فى نيل تلك الحقوق شيئاً من كيانها فهذا ما لا يخطر ببالها ، ولا يستطيع أحد ممن يتولى شيئاً من أمورها من أبنائها أن يعرضه عليها ، ولو حاول أحد ذلك لنبذته نبذ النواة . . ونحن بهذا نتحدى كل من يكون على خلاف رأينا ، فهل من أحد يستطيع أن يكذبنا ؟ »

وحقيقة ما كان أحد يستطيع تكذيب بن باديس الذى يعرف الآخرون

قدر ما بذل من نفسه وجهده فى إرساء قواعد النهضة الجزائرية، وهو وحده الذى يعلم كيف يجرؤ على أن يحشد الأمة وراءه للمطالبة بعروبتها وإسلامها والتمسك بحقوقها . فى الوقت الذى يحارب فيه الفرنسيون هؤلاء الذين يطالبون بتنفيذ مشروع « فيوليت »، « ويسجنون هؤلاء الذين يريدون تأسيس برلمان جزائرى يشمل المسلمين والفرنسيين على السواء ويشرع القوانين للجزائر ويغدو القطر الجزائرى بذلك مستقلا فى إرادته عن فرنسا ، متمتعاً بمثل نظام الدمنيون[١] نقول فى ذلك الوقت يتكلم بن باديس عن ضعف حكومة الجبهة الشعبية فى فرنسا وتنكرها لمبادئها ، وعن تغلب الطغيان الاستعمارى والجبروت المالى الاستغلالى ، والاهتمام بحالة المعمرين ، وصرف أموال باهظة لنصرة ثلاثة آلاف من كبار أثريائهم، لكى يعلن بعد ذلك للشعب الجزائرى « أنه من الواجب ألا نعتمد إلا على أنفسنا ونتوكل على الله »[٢] ثم يقول متوعداً فرنسا بتلك الآية الكريمة : « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

ومن الحق أن يقال إنه كان أصدق حدساً وأبعد نظراً من مواطنيه الذين درجوا على أساليب السياسة التقليدية من أبناء الأمم المستعمرة، تلك الأساليب التى لا تؤتى ثمرتها إلا فى المدى البعيد، وقد لا تؤدى إليها قط . وقد تنبأ أحد أعوان بن باديس لفرنسا بأسوأ مصير عندما قال : « نقول إنهم أخطأوا الطريق . . وإن عاقبة هذه السياسة الخرقاء لن تكون إلا وخيمة مهما اعتزوا بقوتهم واغتروا بسلطانهم »[٣] .

إن هذه اللهجة لا تصدر حقيقة إلا فى أمة عقدت العزم على التحرر . وهى نبرة تعلو قبيل الحرب العالمية الثانية ، وفرنسا فى أوج سلطانها . وإن وراء هذه الكلمات لنهضة جزائرية لا شك فى أنها كانت تنبئ بالكثير من الخير .

٣ – بن باديس والعمل السياسى :

لقد قاد الشيخ عبد الحميد بن باديس معركة الوطن الجزائرى بمهارة بالغة،

---

(١) الشهاب المجلد الثالث عشر ، الجزء التاسع نوفبر سنة ١٩٣٧ ص ٤٢١ .

(٢) المصدر السابق نفس العدد ص ٤٠٥ .

(٣) نفس المصدر ، نفس العدد ص ٤٢٢ .

فى سنة ١٩٣٣ وقف يتهم الوالى بالتدخل فى الشئون الدينية لمسلمى الجزائر على نحو مخالف للدين والقانون الفرنسى أيضاً ، ويصفه بالكذب، وينذره أنه لو أراد أن يدخل إلى الميدان السياسى لدخله جهراً ولضرب فيه المثل بما عرف عنه وأصحابه من الثبات والتضحية[1]، لكنه يدخل إلى هذا الميدان علانية فى سنة ١٩٣٧ فيعلو صوته على أصوات السياسيين الآخرين ، ويوجه نداء إلى الأمة الجزائرية وإلى نوابها دون أن يشرك جمعية العلماء معه فى هذا النداء وفاء بوعده إياهم بأنه سيتكفل بالاستعمار وحده ، ذلك أنه رأى أنه لا يجوز للأمة الجزائرية أن تتبع السياسة العتيقة ، سياسة المطالبة والانتظار ، تجاه دولة تخلف وعودها ، وتحاول تجميد القضية الجزائرية بتشكيل لجنة لدراستها لمدة عام ونصف عام . وهذا هو السبب فى أنه يصدر بيانه للأمة وللسياسيين تنبيهاً للأذهان، وتوجيهاً لآراء اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامى إلى أن السياسة الوحيدة التى يرى أنها ربما أدت إلى الأثر المطلوب هى سياسة المقاومة السلبية ، ومقاطعة النواب للانتخاب، والمشاركة فى النيابة البرلمانية .

وفى ندائه إلى الأمة الجزائرية ونوابها[2] يشير إلى ضرورة اليأس من الاتفاق مع الاستعمار ، وضرورة الثقة بالنفس . لقد تجاهلت فرنسا قيمة الوطنية الجزائرية ، فما على الجزائريين إلا أن يعرفوا قيمة أنفسهم . ثم يذكر مواطنيه بموقف « دلادييه » من الوفد الجزائرى فى ١٩٣٦ عندما أعلن صراحة أنه يعارض كل المعارضة فى إعطاء الجزائريين حق النيابة البرلمانية ما داموا متمسكين بحالتهم الشخصية الإسلامية . وكان هذا التصريح من جانب دلادييه ، وزير الحربية الفرنسى ، كافياً فى أن يقطع حبل الرجاء أمام من ظل يحسن الظن بالسياسة الفرنسية ، وتأخذ بن باديس العزة الإسلامية والعربية فيقول : « حرام على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامى أن نبقى نترامى على أبواب برلمان أمة ترى ، أو ترى أكثريتها، ذلك كثيراً علينا . . . ! ويسمعنا كثير منها فى شخصيتنا الإسلامية ما يمس كرامتنا ويجرح أعز شىء لدينا .

---

(١) انظر ص ٥٩

(٢) الشهاب المجلد الثالث عشر الجزء السابع ص ٣٢٥ وما بعدها .

لندع الأمة الفرنسية ترى رأيها فى برلمانها ، ولنتمسك — عن إيمان وأمل — بشخصيتنا ، ولنطالب بالمساواة التامة فى جميع الحقوق فى وطننا ، وأولها المساواة فى المجالس النيابية » .

وقد حدد بن باديس يوم ٢٩ أغسطس لبدء حركة المقاطعة ما لم ينل الجزائريون حق المساواة فى المجالس النيابية بالجزائر ، ودعا جميع الأحزاب إلى تناسى الخلافات وإلى التسامى عن النزعات الشخصية . فإذا كان الجزائريون قد وقفوا صفًّا واحداً إلى جانب فرنسا فى أيام الحرب الأولى فلا أقل من أن يقفوا صفًّا واحداً ضد المعمرين الأنانيين ، الذين يصفهم بن باديس بأنهم بمثابة الأعداء لفرنسا نفسها . ولا نستطيع أن نتطلب من الشيخ بن باديس فى هذه الحقبة من الزمن أكثر مما نادى به ، ولا سيما أن زعماء الأحزاب السياسية المتنافرة ظلوا ينادون بالمساواة مع فرنسيي الجزائر ، حتى وقعت مجزرة سطيف فى سنة ١٩٤٥ ، فانقطع الحوار بين الجزائر وبين فرنسا ، حتى حلت المسألة الجزائرية بالسلاح ابتداء من ١٩٥٤ .

حقًّا إن اللجنة التنفيذية للمؤتمر لم تسر مع نداء بن باديس حتى النهاية ، بل آثرت حلا وسطاً « إذ رأت أن انتقالها من سياسة الثقة التى أعلنتها فى يوليو إلى سياسة اليأس وطلب المساواة التامة فى أغسطس إنما يعد طفرة ليس من المناسب ارتكابها » ، ووضعت مقررات مسالمة رأى بن باديس أنها حل أعوج ، وأن اللجنة سترجع لا محالة إلى سياسته عندما ترى أن مطالبها لن تجاب . وتتلخص هذه المقررات فى الإشارة إلى أن فرنسا لم تقم بأى إصلاح أساسى لسوء الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ومع ذلك فإن اللجنة التنفيذية تدعو المسلمين إلى الاستمرار على هدوئهم ووقوفهم موقف الكرامة ، وإن كانت قد قررت بالإجماع مبدأ استقالة سائر النواب فى مجالس الجماعات ، والمجالس البلدية ، والمجالس العمالية ، والنيابات المالية ، وحددت الموعد النهائى لتقديم الاستقالات بتاريخ ٢٠ سبتمبر . ثم سجلت بعض المطالب العاجلة التى تتلخص فى تحديد الأجر الأدنى للعمال من الفلاحين بعشرين فرنكاً يوميًّا ، والقيام بمشروعات كبرى ، وإنشاء صندوق للمتعطلين ، وإعانة للفلاحين وصغار التجار ، وحرية تعليم اللغة العربية ، وإيجاد المدارس الكافية ، والحرية التامة المطلقة للوعظ والتعليم فى سائر

المساجد ، وحرية الحج ، وحرية الصحافة ، والسفر ، وإلغاء سائر القوانين الاستثنائية ، وإدخال أراضى الصحراء تحت السلطة الإدارية بدلاً من السلطة العسكرية ، ومصادقة مجلس النواب على مشروع قانون « ڤيوليت بلوم » كخطوة أولى فى طريق الانتخاب العام .

وهذه كلها مطالب ثانوية وجانبية لا تتناسب مع النهضة الجزائرية التى قويت شوكتها بظهور دعوة بن باديس وجمعية العلماء ، بما يفسر لنا كيف رفض عبد الحميد بن باديس أن يوافق على مقررات اللجنة التنفيذية . وكم كانت ثورة المعمرين على ندائه أكثر من انزعاجهم لهذه المطالب اليسيرة ؟ ذلك أن المبادئ التى حددها رئيس جمعية العلماء بصفته الشخصية هى تلك التى تفتح الباب أمام استقلال الجزائر فيما بعد، فى حين أن إجابة مطالب المؤتمر لا تكلف فرنسا كثيراً ، ومن الممكن اصطناع الوسائل السياسية لحصرها فى نطاق ضيق وشكلى .

وقد تجلت ثورة المعمرين على نداء بن باديس فى الصحف الفرنسية التى تصدر بالجزائر كجريدة « لابريس» فى الجزائر العاصمة ، وكجريدة « الريبو بليكان » فى قسنطينة . ولما كانت هذه الجريدة الثانية أكثر صراحة فى عدائها فقد خصها بن باديس بالرد الآتى فى ٨ رجب سنة ١٣٥٦هـ، ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٧[١] :

« جناب السيد محرر جريدة الريبوبليكان المحترم

قرأت فى عدد ٢ سبتمبر الجارى من جريدتكم منشورى على الأمة ونوابها ، فشكرت لكم نقله فى جريدتكم ، ليطلع عليه قسم كبير من الرأى العام الفرنسى ، خصوصاً القسم الذى تمثله جريدتكم .

ولم يسؤنى ما علقتم به عليه من عبارات الحقد والتحريش ، لأن ذلك دليل حصول ما قصدته من تأثير الحق والصدق فيمن لم يتعودوا سماعه من المسلمين الجزائريين أمثالكم . ولا ألومكم على ذلك ما دمتم ترونه إخلاصاً لأمتكم ووطنكم ، كما كنت أنا مخلصاً فى منشورى لأمتى ووطنى .

وإنما أريد أن أحقق لكم أن تحريشكم لا يخيف صغاراً من تلاميذنا ، فمن

---

(١) الشهاب : الجزء السابع من المجلد الثالث عشر ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .

باب أحرى وأولى أن لايكون له أدنى تأثير فى كبارنا فى السير على خطتنا إلى غايتنا .

وبما يؤسف له من أمثالكم أنكم لا تدركون تطورات الأمم وتقلبات الأيام ، وتفكرون فيها — فى القرن العشرين — بأفكار القرون الوسطى .

إن الزمان — يا زميلى ، يسير ولا يقف ، وسنن الكون نافذة لا تتخلف ، والويل لمن قعد أو تعامى . . . »

وتدل اللهجة الواثقة على أن شيئًا ما يتم إعداده من وراء ستار ، وأن هناك خطة محكمة قد حددت فى الخفاء . ولا شك فى أن بن باديس كان على علم بها دون أن يرد فى كلامه شيء يكشف عن وجودها ، ولا عن القائمين بإعدادها ، ونجد هنا وهناك بعض عبارات تشير إلى هذه الخطة فى خطب بعض المقربين من بن باديس . مثال ذلك ما نراه فى مقال « الشمال الإفريقى » بجريدة الشهاب لأكتوبر ١٩٣٧[1] من الإشارة الخفية إلى وجود تنظيم سرى فى الجزائر . فقد وردت فيه هذه الفقرة ذات الدلالة العظيمة التى يمكن فهمها على ضوء ما علم الناس فيما بعد من أن التنظيم السرى لحزب الشعب بدأ يعمل منذ سنة ١٩٣٧ . إن تلك الفقرة هى : « والأمة الجزائرية ، إلى جانب هذه الحركات الاحتجاجية ، أمة تريد أن تبنى ولا تريد أن تهدم وهى قادمة على أعمال البناء بجد ونشاط ، وهى تضع اللبنة على اللبنة فى بناء مستقبلها ، لا يضيرها من ضل إذا هى اهتدت . . فاليوم تبنى هذه النحلة خليتها ، وغداً سيجنى أبناء المستقبل عملها السائغ ، وليقل الأضداد ما شاءوا ، وليدبر الأعداء مكائدهم كما أرادوا ، فكل ذلك زبد يذهب جفاء ، ونحن نبنى فى الأرض ما ينفع الناس » .

وقد علمت من تلاميذ بن باديس وأصدقائه أنهم كانوا يتذاكرون معه كيف يمكن خلاص الجزائر من قبضة الاستعمار . فكان يشير إلى الجبال قائلا هناك سيكون الخلاص ؛ فى حين كان يقول للفرنسيين[2] : إن الاضطراب الذى

---

(١) الشهاب : الجزء الثامن من المجلد الثالث عشر ص ٣٨٣ .

(٢) انظر الشهاب المجلد الثالث عشر نوفبر ١٩٣٧ ، رمضان ١٣٥٦ ص ٣٩٨ وما بعدها مقال « كلمات صريحة : الشمال الإفريقى ، كيف يجب أن يعالج » ، ونرجح أن يكون المقال بقلم الشيخ عبد الحميد بن باديس ، إذ يتكلم بضمير المفرد فيقول وأنا على يقين . . . وأعرف عن نفسى .

تشكون منه فى الشمال الإفريقى لا يرجع إلى تدخل اليد الأجنبية سواء أكانت ألمانية أم إيطالية، أو إلى نشاط الحزب الشيوعى فى الجزائر ،وذلك لأن «الشيوعية الفرنسية — وإن أفسحت لها الواجهة الشعبية المجال — لم تستطع ، ولن تستطيع أن تتمكن من أوساط شعبنا ، أو تحرز أكثر مما حازته من النزر اليسير جداً من أطرافه، مادام الشعب يعتقد أن مبادئها الأساسية لا يتفق كثير منها مع الإسلام »، إن هذا الاضطراب يرجع بالأحرى إلى عسف السلطات الفرنسية واستخدامها للقهر والإرهاق والقوة والشدة ، ثم يتنبأ أن ذلك كله سوف يفضى يوماً ما إلى أن يفيض الكيل ، فيحدث الانفجار « ولا يدرى إلا الله على من تكون عواقب هذا الانفجار »، وكأنه يشير إلى أن الحكومة الفرنسية غافلة عن المصير الرهيب للاستعمار الفرنسى فى الجزائر ، ولا سيما بعد أن تأكدت النهضة الجزائرية واجتازت مرحلة الخطر ، لأنها ليست سوى حلقة من حلقات النهضة الإسلامية العربية العامة ، « فالعلاج السليم إذن لن يكون إلا تبديل السياسة العتيقة . . . البالية بسياسة جديدة تعترف لهذه الشعوب بكيانها القومى ، وتفسح أمامها مجال العمل للتقدم والرقى ، وتنيلها أعظم قسط من التحرير ، وتشعرها بأنها تساندها لتبلغ رشدها فتكون بدورها يوم رشدها التام عضداً لها » .

ولا ريب فى أن الظروف السياسية التى أحاطت بالجزائر فى تلك الآونة هى التى أملت على رئيس جمعية العلماء هذا الاتجاه . ذلك أن نجاح ثورة الجزائر بعد ذلك بنحو من ربع قرن كان معجزة بالنسبة إلى الشعوب العربية الإسلامية كلها . هذا إلى أنه ينبغى ألا نغفل عن عناصر المشكلة الجزائرية قبيل الحرب العالمية الثانية . فإلى جانب تعدد الأحزاب السياسية الجزائرية وعجزها عن المبادأة ، كانت هناك طبقة الرأسمالية الفرنسية فى الجزائر ، ولها سلطانها الكبير فى توجيه سياسة فرنسا تحقيقاً لتفوق المعمرين العنصرى على المواطنين الجزائريين ، واستنزافاً لثروة الجزائر، واستدامة لعتوهم وتسلطهم ، « ولا تهمهم فرنسا بقدر ما تهمهم مصالحهم . فهؤلاء قد شغلهم التفكير فى وسائل الضغط والشدة ضد الجزائريين وإخوانهم عن كل تفكير ، رغم مشاهدتهم لهذا الخطر (الحرب العالمية الثانية) واضطرابهم له[1] .

---

(١) نفس المصدر نفس العدد ص ٤٠٢ .

وقد أراد هؤلاء المعمرون أن يذلوا المسلمين وأن يذكروهم دائما بأنهم خسروا وطنهم إلى الأبد ، رغم أن النهضة الجزائرية أصبحت أمراً واقعاً لا ينكره إلا الغافل الغاشم . فانتهزوا موعد حلول العيد المئوى لاحتلال قسنطينة، فأزمعوا أن يكون احتفالهم العسكرى تذكيراً للمسلمين بأن المسألة بينهم وبين المعمرين ليست مسألة حق ، بل هى مسألة قوة . لكنهم أخفقوا فى تحقيق هذا الهدف، إذ قوطع الاحتفال مقاطعة تامة ، ولم يحضره إلا الرسميون الذين يؤمرون فيطيعون . وقد نسى الفرنسيون أن احتفالا سابقاً وهو احتفال سنة ١٩٣٠ باحتلال مدينة الجزائر كان فاتحة لنمو النهضة الجزائرية، وأن احتفال سنة ١٩٣٧ لم يزد الهوة التى تفصل بين المسلمين والفرنسيين المقيمين بالجزائر إلا عمقاً ، وأن إهانة الشعور العربى الإسلامى بطريقة منهجية مطردة كان ممهداً لحوادث ١٩٤٥ ثم للثورة الجزائرية الشاملة .

٤ — مظاهر النهضة الجزائرية فى رأى عبد الحميد بن باديس وتلاميذه :

١ — عيد النهضة الجزائرية والاحتفال بدار الحديث فى تلمسان .

وليس لنا ألا نعجب بتفاؤل هذا المصلح ، والثائر بطريقته الخاصة ، وسط الاضطراب السياسى الذى سيطر على القضية الجزائرية ، فى الوقت الذى حاولت فيه السياسة الفرنسية الاستعمارية ضرب الحركة القومية الجزائرية عن طريق مشروع « ڤيوليت بلوم » . . فى تلك الفترة التى تضاربت فيها آراء السياسيين الجزائريين من أنصار الاندماج ، ومن أنصار إنشاء جمهورية جزائرية فرنسية مستقلة ، بقى بن باديس شديد الإيمان بخروج فكرة الوطن الجزائرى إلى حيز الوجود ، من خلال ضباب الأحداث وتشابكها . لقد كان واضح الرؤية، فاستطاع أن يكشف عن آفاق المستقبل — نقول إنه كان يقرر أن النهضة الجزائرية حقيقة يشهد بها الواقع . وذلك ما نجده فى خطابه فى المؤتمر السنوى العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذى بدأ فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٧ فى نادى الترقى بالعاصمة [١]، وفيه قدم الشيخ بن باديس بعض كبار الرجال

---

(١) الشهاب ، الجزء الثامن من المجلد الثالث عشر . شعبان ١٣٥٦ ، أكتوبر ١٩٣٧ ص ٣٤٤ وما بعدها .

الذين كان لهم أكبر الأثر فى بعث النهضة الجزائرية ، ويعنى الشيخ الفضيل الورتلانى والشيخ سعيد صالحى اللذين كونا نهضة علمية إسلامية بفرنسا . ثم تقدم هو بنفسه وألقى خطابه الرسمى مقترحاً أن يسمى هذا الاجتماع بعيد النهضة الجزائرية . ثم طلب إلى زميله الشيخ الطيب العقبي أن يقدم الشيخ عبد العزيز بن الشيخ الهاشمى إلى الحاضرين . وكان لهذا التقديم مغزاه العميق ، إذ هو شهادة فى الواقع بانتهاء المعركة مع مناهضى جمعية العلماء من أتباع الطرق الصوفية . ذلك أن « الشيخ عبد العزيز كان من شيوخ الطرق . أما اليوم فيجب أن تعرفوه بأنه جندى من جنود الإصلاح ومن أعضاء جمعية العلماء » وكانت كلمة هذا الشيخ، الذى أخذ نفسه بنشر مبادئ الجمعية، تتلخص فى أنه يبدى أسفه لتأخره عن الانضواء تحت لوائها إلى هذا العهد ، ويعطى وعده لبذل كل جهد لتأييد جمعية العلماء .

ولم يكد ينتهى المؤتمر السنوى فى يوم الأحد ٢١ رجب ، ٢٦ سبتمبر ١٩٣٧ حتى أخذ كثير من المجتمعين يعدون أنفسهم للسفر إلى تلمسان لحضور الاحتفال بدار الحديث فى اليوم التالى حيث كان الشيخ البشير الإبراهيمى فى انتظارهم ، فافتتح الإمام بن باديس المدرسة بكلمة قصيرة تعبر عن مقومات النهضة الجزائرية وغايتها، وتنطوى على الإشارة الصريحة بزوال دولة الباطل . فقد قال : « بسم الله الرحمن الرحيم وباسم الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة أفتتح دار الحديث ، ربنا أنزلنا منزلا مباركاً وأنت خير المنزلين ، ربنا أخرجنا مخرج صدق واجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً . جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

كذلك احتوت كلمة الشيخ الإبراهيمى ، الذى رحب بالوافدين فى حفل المساء ، على شجب سياسة الحكومة الفرنسية التى تستهين بشئون المسلمين، وتحول دون تدريس العلماء بمساجدهم ، كما أشار إلى الأمل فى المستقبل ، إذ سوف يأتى يوم يحتفل المسلمون بمساجدهم وينعمون فيها بحريتهم التامة ، فما على الجزائريين سوى أن يستعدوا لهذا اليوم .

وقد كشف بن باديس فى خطابه عن سياسة فرنسا فى محاربة اللغة العربية والعمل على محوها ، وتجهيل الناس بحرمانهم من لسانهم ؛ وفى محاربة الإسلام ،

حتى ظن المستبد أنه طمس معالمه ، وانتزع عقائده من الصدور ، وجرد أهله من كريم الخلق ، «فجاء معلمو الجزائر بعد قرن من الزمان يرفعون علم التوحيد ، وينشرون من الإصلاح لواء التجديد ، ويدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وكما يرتضيه الله : لا كما حرفه الجاهلون وشوهه الدجالون ، ورضيه أعداؤه من المستعمرين » .

كذلك أشار إلى خطة فرنسا فى محاربة العلم حتى خيل إليها « أن مسلمى الجزائر رضوا بالجهالة ، وألفوا النذالة ، ونسوا كل علم إلا ما يرشح به لهم ، أو يمزج بما هو أضر من الجهل عليهم ، فجاء دعاة الإسلام الصحيح ودعاة العربية يرفعون بناء شامخاً للعلم » .

وقد خاطب المجتمعين فى دار الحديث فقال لهم : « أيها الاخوان ، نهضتنا بعد أن صهرتنا بنار الفتنة والابتلاء حوادث الزمان ، . . . نعم نهضتنا بعد قرن بعدما متنا وأُقبرنا أحيينا وبعثنا ، سنة كونية فقهناها من القرآن ونعمة ربانية تلقيناها من الملك الديان . . . نعم نهضتنا نهضة بنينا أركانها على الدين ، فكانت سلاماً على البشرية ، لا يخشاها ، والله ، النصرانى لنصرانيته ، ولا اليهودى ليهوديته ، بل ولا المجوسى لمجوسيته ، ولكن يجب ، والله ، أن يخشاها الظالم لظلمه ، والدجال لدجله ، والخائن لخيانته[1] .

العروبة والإسلام والعلم والفضيلة هذه أركان نهضتنا ، وأركان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التى هى مبعث حياتنا ، ورمز نهضتنا ، فما زالت هذه الجمعية منذ كانت تفقهنا فى الدين وتعلمنا اللغة ، وتنيرنا بالعلم ، وتحلينا بالأخلاق الإسلامية العالية ، وتحفظ علينا جنسيتنا وقوميتنا السامية » .

ثم يطيب له أن يذكر مسلمى الجزائر ، ممثلين فى هؤلاء الذين يحتفلون بافتتاح دار الحديث بتلمسان ، ورغم ما بذلت فرنسا فى محاربة الإسلام والعروبة ، بأن نهضة الجزائر الحديثة قد ارتبطت بنشأة جمعية العلماء المسلمين ، فهى التى أيقظت الأمة من سباتها ، وعرفتها بتاريخها ، وأزالت الغشاوة عن أبصارها ، ودفعتها إلى التقدم فى جميع نواحى الحياة . وهذا هو السبب فى شدة كراهية

---

(١) يشير هنا إلى المستعمر وأعوانه من الطرقية والعملاء الخائنين .

أعوان الباطل لها ، وحرصهم على بذل كل جهد لكتم أصوات علمائها .

لقد حاول الباطل وأعوانه أن يفرقوا هذه الأمة فى هذه الحقبة الخطيرة من التاريخ الجزائرى ، لكن « هدً الله ، والحمد لله ، ركنهم المنهار ، . . وصبرهم أقل من أن يعتنى بهم ، وأحقر من أن يضيع الوقت فى الحديث عنهم ». ثم يعلو بن باديس على تضارب الآراء بين الأحزاب السياسية الجزائرية ، ليؤكد «أن الجمعية لا توالى حزباً من الأحزاب ولا تعادى حزباً منها ، وإنما تنصر الحق والعدل والخير من أى ناحية كان ، وتقاوم الباطل والظلم والشر من أى جهة أتى ، محتفظة فى ذلك كله بشخصيتها ومبادئها ، محترسة فى جميع مواقفها ، مقدرة للظروف والأحوال بمقاديرها » .

وتكشف لنا هذه الفقرة الأخيرة من خطابه عن أن بن باديس لم ينس مطلقاً الهدف الذى حدده بنفسه لإحياء الروح الجزائرية ، وأنه كان رجل سياسة من طراز فريد فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ وطنه ؛ وأنه كان أكثر واقعية وأصدق حدساً ممن أسهموا فى تخطيط السياسة الجزائرية فى عصره .

لقد تغيرت أحوال الجزائر وذهب قوم وجاء آخرون، لكن مبادئ بن باديس ما زالت تسرى فى نفوس العامة والخاصة، فقد فشلت سياسة مهادنة المستعمر ، أى السياسة المرحلية ، كما أخفقت سياسة الشعارات البراقة والآراء الدخيلة التى امتزجت بها ، وبقيت الدعامتان اللتان بنى عليهما بن باديس النهضة الجزائرية المعاصرة . وإن من يقرأ ماجاء فى خطاب الرئيس هوارى بومدين عند زيارته للقاهرة فى خريف ١٩٦٦ ليعلم جيداً كيف ظل الإسلام والعروبة أساساً للقومية الجزائرية ، وذلك شىء طبيعى؛ إذ لا يمكن أن تتحقق نهضة ما إلا إذا جمعت بين خير عناصر الماضى والحاضر حتى تشق طريقها إلى مستقبل أفضل .

ومهما يكن من شىء ، فقد نفخ بن باديس فى روح مواطنيه الشعور بالكرامة فأطلق لسانهم بعد طول حبسة ، وأتاح لهم أن ينقدوا دولة الباطل فى جرأة نادرة بعد سنوات قليلة من بدء حركته ، إذ نرى ، فى خلال الاحتفال بافتتاح دار الحديث بتلمسان ، أى بعد مضى ست سنوات فقط من إنشاء جمعية العلماء المسلمين من يقول عن هذا الاحتفال : « إنه قد تجلت فيه الروح الإسلامية

الكامنة فى نفوس أبناء هذا الشعب الكريم .. وحسبه أنه كان مظهراً عظيماً كشف به جانب القومية العربية الإسلامية القوية الخالدة ؛ وحسبه أنه أرغم أنوفاً، وطأطأ رءوساً، وخفض جباهاً طالما تشامخت احتقاراً وترفعت كبراً ، أو تقطبت ظلماً وعتواً، وحسبه أنه فتح عيوناً ، ونبه عقولا ، وفتح قلوباً كانت عمياء لم تبصر الطريق ، وذاهلة لم تدرك الدليل، وبليدة لم تفقه الحكمة ، وحسبه أنه أفحم الجاحد ، وأرغم المعاند ، وهزم المستبد وأذل الظالم »[1].

وكيف لا تنطلق الألسنة من عقالها، وكيف لا يجرؤ أتباع بن باديس على مهاجمة الفرنسيين علانية ، إذا كان رئيسهم قد نهى أهل قسنطينة عن الاشتراك فى الاحتفال المئوى لاحتلال مدينتهم فى سنة ١٩٣٧ فامتثلوا لنهيه جميعاً[2] ، فهو قائد هذه الأمة الذى حدد صفاته أحد الكتاب فقال[3] : « إن الصفات التى يجب أن تتوفر فى القائد من أعز الصفات وأندرها ، تتطلب منه فقهاً لنفسية الأمة ودرساً عميقاً بجميع أحوالها ، وإخلاصاً لها يزاحم إخلاصه لنفسه ولأهله وأقربائه . . . وإن أمة لها مقوماتها من دين ولغة وثقافة وتاريخ أمة غير ميئوس من استرجاع مكانتها . . . تذكر ماضيها فتعمل لمستقبلها ، وتعلم دينها ولغتها فيتعذر على المستعبد ابتلاعها . . . ولقد حدثنا التاريخ أن الأمم تأبى أن تسلم قيادها لمن لا يحافظ على دينها ولغتها » .

والحق أن بن باديس صهر النفوس ، وأعاد تكوينها ، مما أدى إلى خلق جو فكرى إيجابى فى فترة قصيرة من الزمن ، وهو الجو الذى بدأ يتنفس فيه كتاب الجزائر مبادئ النهضة ، فتصوغها ألسنتهم فى يسر بالغ تكشف عنه عبارة كاتب آخر يقول : « ليست هذه النهضة أو هاته الحركات مجرد شىء ظاهرى أو خيالى يذهب بذهاب وقته ، وإنما هى عقيدة رسخت فى القلوب ، وثبتت فى العقول

---

(١) نفس المصدر ، نفس العدد ص ٣٤٩ .

(٢) أصدر عبد الحميد بن باديس هذا المنشور فى ٢٣ رجب سنة ١٣٥٦ ، ١٩٣٧/٩/٢٨ أى فى فترة الاحتفال بافتتاح دار الحديث — انظر نص هذا المنشور فى الجزء التاسع من المجلد الثالث عشر من مجلة الشهاب ص ٤٢٧ وما بعدها .

(٣) مجلة الشهاب الجزء التاسع من المجلد الثالث عشر نوفمبر ١٩٣٧ .

وجرت فى الدم من الإنسان ، لا تزول إلا بزوال الروح والجسد ، وليست هاته النهضة الطيبة مبنية على الجهل ، والذهاب مع التيار ، كما يتوهمها كثير من المبطلين . لا ، وإنما هى مبنية على العلم والمعرفة والدراية التامة والنظام الكامل والتضحية والإخلاص والشعور بالواجب الدينى والقومى والوطنى . . . وبعد هذا فالأمة على استعداد لقبول الحركات النافعة . . . ولقد ، والله ، كذبت الأمة المستعمرين الذين ظنوا أن هاته الأمة ستبقى بقرة حلوباً تدر عليهم الألبان على مدى العصور . . وسفهت اعتقاد الدجالين والمشعوذين الذين اعتقدوا أن هاته الأمة ستظل تائهة فى بحر الأوهام »[1] .

لقد تحول التفكير الجزائرى تحولا عميقاً واتضحت المفاهيم الدينية بعد القضاء على ضروب الشعوذة ، فأصبح الجزائريون المثقفون يرون أن الإسلام ليس هو تلك الخرافات والأوهام التى كان يعتنقها مشايخ الطرق وأتباعهم . وقد ذكر أحدهم أنه كثيراً ما كان يتبرأ أمام الأجانب من الإسلام ، ويود أن لو كان غير مسلم بهذه الصفة ، لكنه يحمد الله أن عرف الإسلام الطاهر مما ألصق به ، وصار يناقش كبار العلماء الأجانب ويبين لهم محاسنه ، ويقول على بن أحمد بن مرحوم : « وكثيراً ما وجدنا هذا النوع من الشباب المتفرغ فيصرحون مثل هذا التصريح ، وكلهم عرفوا الحقيقة وتمسكوا بها ، واعترفوا بأن أصل هذه النهضة العملية والحركة الإصلاحية الموجودة إنما هو من ثمرات أعمال جمعية العلماء » .

وحقيقة فشلت سياسة فرنسا قبيل الحرب العالمية الثانية أمام عزيمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلى رأسها عبد الحميد بن باديس الذى بدأ وحده يناهض فرنسا ، ثم انتهى فى سنة ١٩٣٨ بأن جمع الأمة كلها حوله بما فيها نوابها الذين أدركوا ، بسبب هذه النهضة الوطنية العارمة ، أن الولاء الأول إنما ينبغى أن يكون للجزائر ، فى حين أن كثيراً من هؤلاء كان أداة طيعة فى يد السلطات الفرنسية منذ سنوات قليلة . ويكشف عن هذا التحول الكبير ما نجده من مطالبة القسم العربى لمجالس النيابات المالية فى الجزائر فى سنة ١٩٣٨ بضرورة

---

(١) نفس العدد ، من كلام على بن أحمد مرحوم ص ٤١٢ ، ٤١٣ .

العناية بالتعليم العربى ، « بعد أن تبين لجميع سكان الجزائر سواء كانوا من المستعمرين أم من الأهالى ، أن المسألة ليست مسألة مهيجين يرأسهم عبد الحميد بن باديس، يريدون أن يهوشوا على الحكومة ، وأن يهولوا الأمر على الناس فى شأن تحطيم التعليم الحر . . . وإذاً فالمسألة ليست مسألة خاصة بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين . . بل مسألة الأمة الإسلامية الجزائرية عامة »[1] .

لذلك هاجم النواب المسلمون قرار شوطان الذى قضى بأن تكون اللغة العربية لغة أجنبية، ذلك أن ضرورة التعليم العربى فى الجزائر لا يمكن أن توضع موضع الجدل ؛ إنه هو السبيل إلى معرفة الجزائريين بدينهم مما يوجب كل التسامح فى منح الرخص لفتح المدارس الحرة لتعليم اللغة العربية والدين الإسلامى . وهكذا أظهر النواب بمطالبهم للإدارة الفرنسية وللعالم أجمع « أن مسألة اللغة العربية والتعليم الدينى بالقطر الجزائرى ليست مسألة حزب خاص أو جمعية معينة . . . بل هى مسألة الأمة جمعاء . . تختلف فى كل شىء وتتفق فيها » .

(١) مجلة الشهاب الجزء الثالث من المجلد الرابع عشر مايو سنة ١٩٣٨ ص ١٣٩ – ١٤٠ .

الفصل الرابع

فلسفة الإمام بن باديس

١ ــ النظرية والتطبيق :

لم ينشئ الإمام بن باديس مذهباً فلسفياً على نحو ما تعلمه من المذاهب الفلسفية لدى اليونان أو المسلمين أو فلاسفة العصر الحديث . والحق أن فكرة المذهب الفلسفي كانت أبعد شيء عن خاطره . فهو لم يرد قط أن يشيد بناء فكرياً يرتكز على عدد قل أو كثر من الفروض الفلسفية التي قد تتجانس أو تتنافر فيما بينها إلى حد كبير أو قليل ؛ بل زاوج بين النظرية والتطبيق على نحو لم تشهده لدى كبار الفلاسفة فى العصر القديم أو الحديث . ولا نريد بذلك أن نعلو به على الفلاسفة ، ولكن نريد أن نحدد له مكاناً خاصاً فريداً بينهم . وفى اعتقادنا أن مزاوجته بين النظرية والتطبيق هى التى حققت له آماله فى إحياء الأمة الجزائرية. وربما كانت تلك غاية لم يدركها كثير من أصحاب المذاهب الفلسفية لدى اليونان والمسلمين والمحدثين .

وقد بدأ هذا المفكر فلسفته النظرية والعملية بمحاولة إحياء القرآن فى قلوب مسلمى الجزائر ، حتى يبعثهم إلى الحياة بدورهم. وكان هذا الإحياء للقرآن عن طريق تفسيره وفقاً لمنهج السلف ، ومعنى ذلك أنه أراد تطهير العقائد من الأوهام والأباطيل التى شوهتها ، فجعلت الدين يبدو فى نظر كثير من المؤمنين به كما لو كان مضاداً للعقل ، كما ثبتت مفاهيم دينية خاطئة ، وانتهت بتفتيت الأمة ، وكادت تقضى على مقوماتها الأساسية.

ولئن أردنا أن نكوّن لأنفسنا فكرة عن فلسفة بن باديس ، النظرية والعملية فى آن واحد ، فلن نجد خطوطها الرئيسية إلا بعد إمعان النظر فى تفسيره للقرآن ، وفى وطنيته ، ومحاربته للطرق الصوفية ، وفى سلوكه الشخصى . وهكذا نرى كيف تتجمع عناصر هذه الفلسفة الإيجابية المثمرة .

ويخبرنا بن باديس أنه كان متبرماً بأساليب المفسرين لما يدخلونه من تأويلات جدلية مذهبية فى كلام الله ، حتى ضاق صدره بسبب هذا الخلاف فيما لا اختلاف فيه ، ويعترف فيقول : « وكانت على ذهنى غشاوة من التقليد واحترام

آراء الرجال حتى فى دين الله وكتاب الله . فذاكرت يوماً الشيخ النخلى فيما أجده فى نفسي من التبرم والقلق ، فقال لى : اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة ليسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح . فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهنى آفاقاً واسعة لاعهد لى بها »[١] .

وقد اهتدى إلى القاعدة الآتية ، وهى أنه متى دعانا داع إلى الله فلننظر هل يدعونا إليه بالقرآن والسنة أم بشيء آخر ؟ فإذا كانت دعوته بالقرآن وبالسنة فعلينا أن نتبعه « لأنه هو المتبع للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فى دعوته وجهاده بالقرآن » وتلك هى طريقة السلف ، وهى الطريقة التى ارتضاها بن باديس لفلسفته ، ووصفها بأنها نعمة عظيمة من الله يجب « شكرها بالقول والعمل والإخلاص والثبات واليقين »[٢] ، كما وصفها بأنها جهاد فى سبيل الله . وقد رزقه الله الإخلاص فى القول والعمل ، وهيأ له الثبات واليقين حتى أتم تفسير القرآن على الطريقة السلفية بعد فترة استمرت خمساً وعشرين سنة ، فاحتفلت الجزائر بختمه لتفسير القرآن احتفالا قومياً فى قسنطينة فى ١٣ ربيع الثانى من عام ١٣٥٧ هـ ورأوا فى إحياء القرآن على طريقة السلف إحياء للأمة التى تدين به . وقد قبل بن باديس ألا يحتفى به أصحابه إلا بعد أن يفرغ من تفسير القرآن ، وكان ذلك قبل الختم بعشر سنوات. وإنما قبل أن يكرم لأنه يرى فى هذا التفسير تتويجاً لعمله وصورة كاملة لمجهوداته ، زيادة على ما خرّج للجزائر من رجال. ويقول الشيخ الإبراهيمى إن بن باديس «كان معلق البال بهذا العمل ويخشى أن تقطعه قواطع الدهر »[٣].

وقد أدرك المحتفلون به ، كما أدركت الأمة الجزائرية كلها ، أن بن باديس برهن بطريقة نظرية وعملية استغرقت منه ربع قرن على كذب المستشرقين الذين زعموا أن القرآن هو الذى قعد بالمسلمين عن مجاراة الأمم الحية فى هذا العصر ، وأنه هو الذى لا يزال يبعدهم عن الاقتباس من المدنية الغربية القائمة ، وينفرهم من غيرهم . « ولو عقلوا وفكروا قليلا لعلموا أن القرآن ألف بين شعوب كثيرة

---

(١) مجلة الشهاب ج ٣ مجلد ١٤ ص ٢٨٩ و ٢٩٠ (يونيو ويوليو سنة ١٩٣٨) .

(٢) تفسير بن باديس ص ٢٥٣ .

(٣) مجلة الشهاب ج ٤ م ١٤ ص ١٥٣ و ١٧٧ (١٩٣٨) .

متباغضة متضاربة ، فأصبحت متحالفة متآخية تعمل على نشر العدل والأخوة والسلام »[١]. ولعلموا أن هذا العمل المخلص الدؤوب هو الذى أحيا الروح الجزائرية العربية الإسلامية ، وأعدها للخلاص من الاستعمار بعد سنوات قليلة من وفاة بن باديس .

والحق أن بن باديس تبع فى سلوكه العمل الوطنى والسياسى مسلكاً إسلامياً خالصاً ؛ فهو يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، يباين بالقرآن ، ويشتد بالقرآن ، يخالق الناس بالخلق الحسن ، وقد تذرع إلى ذلك كله بأخلاق القرآن من صبر وثبات وعزم وإخلاص وإقدام وإيمان قوى وعمل متواصل ونفس كبيرة ترى الحق فوق كل شئ ، ولا ترى الباطل شيئا[٢].

وهذا هو ما انتهى بكثير من الجزائريين إلى فهم حقيقة دينهم الذى جاء يزرع الخير بين جميع أفراد البشر ، وينشر فيهم المحبة ، ولا يدعو أتباعه إلى الإضرار بأحد ، ولا إلى إذلاله إذا مكنتهم القدرة على ذلك ، بل هم يعاملون الناس كلهم بالإحسان ، ولا يبغضون أحداً لشخصه أو لجنسه ، بل يبغضون الشر من أى ناحية جاء ، ويمقتون الظلم من أين هبت ريحه ، وهم يحترمون المخالف لهم فى دينهم ما احترمهم ، ويقدرون شعوره ما قدر شعورهم ، ويأخذون كل نافع عند الأمم مع الاحتفاظ بمقوماتهم[٣] .

ولم ينس بن باديس أن يذكر الأمة الجزائرية ، حين احتفلت بختمه لتفسير القرآن فى سنة ١٩٣٨ ، بهذه الحقيقة ، وهى أنه لم يعمل يوماً ما ، علم الله ، لإرضائها لذاتها ، وإنما عمل ، وما زال يعمل ، لإرضاء الله بخدمة دينها ولغتها . وإذا كان الله قد سدد هذه الأمة فى الفهم ، وأرشدها إلى صواب الرأى ، فتبينت قصده على وجهه ، وأعماله على حقيقتها ، فذلك فضل من الله عليها وعليه ، فالرجل لا يريد أن ينسب إلى نفسه فضلا ، بل « ... الفضل أولا وأخيراً لله وكتابه الذى هداه إلى فهمه ، والتفقه فى أسراره ، والتأدب بآدابه . وإن القرآن الذى كوّن

(١) نفس المصدر نفس العدد ص ٢١٧ — ٢٢٤ .

(٢) نفس العدد ص ٢٣٢ من خطبة الأستاذ البشير الديغى .

(٣) نفس العدد ص ٢٤٤ .

رجال السلف لا يكثر عليه أن يكوّن رجالا في الخلف ، لو أحسن فهمه وتدبره ، وحملنا على منهاجه » (١) .

وقد طبق الإمام بن باديس فلسفته القرآنية في مجالات عديدة ومتنوعة جمعت بين الأخلاق وربط العلم بالدين ، وتطهير العقائد من الخرافات والأوهام ، وتحديد فكرة السببية والقضاء والقدر، وسنفرد لهذه المسألة الأخيرة فصلا خاصاً نعقد فيه مقارنة بين بن باديس وكل من الماتريدى وابن رشد .

٢ ـ بعض نظرات له فى الأخلاق :

أما من جهة الأخلاق فقد أحيا للجزائريين أخلاقهم الإسلامية ، واستنبطها من القرآن الكريم، وعالج بها آفاتهم العائلية والاجتماعية ، وأصلح بها نفوسهم. وإذا نحن تتبعنا تفسيره لآيات الأخلاق فى القرآن وجدنا مذهباً متكاملا لا يعالج فيه الأخلاق من الوجهة النظرية والفردية فحسب ، بل يعالجها قبل كل شيء على أساس ديني واجتماعي واقعي . وليس من هدفنا أن نرسم صورة كاملة للمذهب النظرى والتطبيقى فى الأخلاق وذلك لضياع كثير من تفسيره ، ولأن المجال المخصص لهذه الدراسة هنا لا يتيح لنا كل التفصيل الذى كنا نرجوه . لكن يكفى أن نشير إلى بعض أمثلة قليلة تكشف لنا عن الروح الذى سيطرت على اتجاهه فى دراسة الأخلاق . ففى علاجه لموضوع البر بالوالدين ، نجده يبين لنا أن إحسان الإنسان إلى والديه والعناية بهما ليسا فى الحقيقة إلا جزاء وشكراً على إحسان البدء، والفضل من جانب الوالدين . ولذا فقد عنى القرآن بتأكيد هذا الواجب الأخلاقى الذى يقتضيه الذوق والعقل، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، ويستلهم بن باديس القرآن أيضاً فى إيجاب البر للوالدين ولو كانا كافرين ، وفى جعل جانب الأم آكد من جانب الأب، وحظها فى البر أوفر من حظه .

ونظراته الأخلاقية الصادقة ، التى أجاد استنباطها من القرآن، هى فى اعتقادى أفضل مما قرره أمثال سقراط أو أفلاطون أو أرسطو وغيرهم من القدماء والمحدثين .

---

(١) نفس المصدر ونفس العدد ص ٢٩٠ – ٢٩١ .

فهو يبين لنا فى كل يسر ، ودون جهاز معقد من المصطلحات الفلسفية، أن الدين والأخلاق يوجبان على المرء أن يعنى بإصلاح نفسه أكثر من أن يعنى بجسمه ، ومن قبل قال سقراط[١] إن حقيقة الإنسان هى نفسه، وإن من يعنى بجسمه إنما يعنى بشىء يخصه ، وأما من يعنى بماله فهو يعنى بشىء أبعد مما يخصه . أما بن باديس فيرى أن المكلف المخاطب من الإنسان هو نفسه ، وما البدن إلا آلة لها ومظهر تصرفاتها ، وأن صلاح الإنسان وفساده إنما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها وما فلاحه إلا بزكائها ، وما خيبته إلا بخبثها . قال تعالى : « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها[٢] » ، ومع ذلك ، فإنه يؤكد ضرورة العناية بالجسم ، حتى يحدث التكافؤ بينه وبين النفس ، وهذا أمر يتسق مع ما يقرره الإسلام من ضرورة الجمع بين الدين والدنيا .

ثم نجد بن باديس يربط صلاح الفرد بصلاح المجتمع لتحقيق ما جاء به الدين، من أن إصلاح النفوس إنما يكون بالتزام شريعة الحق والخير والعدل ، والكف عن الباطل والشر والظلم والسوء . وخير علاج لإصلاح النفوس وتحقيق الخير للفرد والمجتمع يكون بالرجوع إلى الله دائماً لطلب التوبة والمغفرة . والإسلام دين تفاؤل ومستقبل . فليس للمرء أن يقنط من رحمة الله ، وليس له أن يستمع إلى هؤلاء الذين يحاولون بذر القنوط فى نفسه باليأس من رحمة الله ، وإنما ينبغى له أن يعود إلى القرآن الذى يؤكد أن الله تواب رحيم، وأنه كثير المغفرة لعباده الذين ليسوا بمعصومين من الخطأ . ذلك أن فطرة الإنسان وطبيعة الحياة الاجتماعية ومخالطة قرناء السوء، عن قصد أو غير قصد ، تدفع المرء بدرجات متفاوتة نحو الزلل . ولما كان التعرض للخطأ متكرراً وجبت المداومة على إصلاح النفس من فسادها . والله لم يجعل دينه عسراً بل يسره للناس ، وجعل جهادهم لنفوسهم أعظم الجهاد . فالتوبة إلى الله طهارة للنفس من درن المعاصى ، والله تعالى يقول : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين »، وهنا نلمح كيف استطاع عبد الحميد بن باديس أن يشيع روح الأمل فى مواطنيه حتى يعودوا إلى الطريق السوى ، وحتى يحرروا أرواحهم من استبداد

---

(١) انظر كتابنا فى النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام — الفصل الأول .

(٢) انظر كتاب التفسير ص ٩٦ .

مدعى التصوف ، وأجسامهم من الاستبداد الاستعمارى ، أى من الباطل وأعوانه .

ومسلك بن باديس فى الربط بين الدين والأخلاق هو المسلك العملى والواقعى. ومن قبل حاولت المدرسة الفرنسية فى علم الاجتماع فى أواخر القرن الماضى والنصف الأول من القرن الحالى أن تقيم الأخلاق على أساس من معرفة القوانين الاجتماعية ، وأن تفصلها عن الدين . غير أن هذه المحاولة التى حددها لنا ليفى بريل فى كتابه « الأخلاق وعلم العادات الاجتماعية »[1] باءت بالفشل ، ويبقى من الثابت دائماً أن الدين والخلق أمران لا ينفصمان .

غير أن بن باديس لا يغض من شأن العلم ، لأنه يرى فيه سبيلا إلى إحكام الربط بين الدين والأخلاق . فالعلم الصحيح والخلق المتين أصلان ينبنى عليهما كمال الإنسان « وسلوك الإنسان فى الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطاً وثيقاً يستقيم باستقامته ، ويعوج باعوجاجه ؛ لأن أفعاله ناشئة عن اعتقاداته . . واعتقاداته ثمرة إدراكه الحاصل عن تفكيره ونظره[2] » . والعلم الصحيح هو الذى يبصّر المرء بعيوبه وضروب نقصه . والعجب بالنفس عمى عن نقائص النفس للفضائل ، وكل ذلك مصدر لضروب الشر ، فى حين أن العلم الحقيقى هو الذى يدعو صاحبه إلى التواضع ، ويشعره بأنه مهما بلغ من البحث والنظر والتحليل والكشف عن الحقائق الكونية فإن ما يكشف عنه ليس إلا قليلا بجانب ما لم يكشف عنه .

ويسير الإمام بن باديس على نهج القرآن فى الربط بين العقل والدين ، فيبين لنا[3] أن الرذائل أو أمراض الأرواح على نوعين ، مرض العقول ، ومرض النفوس ، « فالأول بجمود النظر ، وفساد الإدراك وتقليد الآباء ، واعتقاد الباطل والشك فى الحق ، والثانى بفساد الأخلاق . . أما الأعمال فهى تابعة لهما ، فتصلح بصلاحهما وتفسد بفسادهما . والقرآن قد جاء داعياً إلى النظر والتفكير والاعتبار . . ناعياً على المقلدين تقليدهم ، كاشفاً لأهل الباطل عن باطلهم وجاء أيضاً مبيناً للأخلاق الفاسدة . . . مبيناً كذلك الأخلاق الصحيحة وعظيم نفعها . . . فهذا شفاؤه للنفوس والعقول » ، فهو دين العقل والفطرة ، وهما المعيار الذى يجب

---

(١) لقد ترجمنا هذا الكتاب إلى اللغة العربية وعلقنا عليه — نشرته دار عيسى البابى الحلبى بالقاهرة .

(٢) التفسير ص ١٣٢ .   (٣) التفسير ص ١٨٧ .

أن يعرض عليه كل شيء حتى نتخلص من الأهواء والشبهات ، « وتجد القرآن العظيم يخاطب العقل والفطرة ليعلمنا الرجوع إليهما والاستفادة منهما »[١] .

وقد نبه بن باديس مواطنيه إلى أحد المبادئ الأخلاقية الكبرى فى الإسلام ، وهو مبدأ الإيثار ، الذى بنى عليه أوجست كونت مذهبه فى الاجتماع والأخلاق. لكن بن باديس لم يستنبطه إلا من القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً » الآية . فالحقوق التى قررها الإسلام فى هذه الآيات الكريمة كفيلة ببقاء الحياة الاجتماعية واطراد نظامها « فقيام كل واحد من أفراد المجتمع بما عليه من حقوق نحو غيره هو الذى يسد تلك الحاجة المشتركة بين الناس ، وعندما يؤدى كل واحد حق غيره فليست خدمته له وحده ، بل هى خدمة للمجتمع كله ، وبالأحرى هى خدمة له فى نفسه[٢] » ، أما إهمال هذه الحقوق فهو الذى قاد المجتمع الإسلامى إلى الانحلال والتقهقر . وطريق الإصلاح هو أن يعتمد الناس على عقولهم لكى يتجنبوا ما هم فيه من شر ، وقد وهبهم الله الدين والعقل[٣] .

٣ — ربطه العلم بالدين :

ولما كان الدين يدعو العقل إلى البحث ؛ فمن واجب العقل أن ينسق معلوماته ويصحح إدراكه لحقائقها ونسبها ، حتى تكثر اكتشافاته فى عالمى المحسوس والمعقول. وقد سلك العرب هذه السبيل فازدهرت حضارتهم ، وأدوا لنوع الإنسان بالعلم والمدنية أعظم خدمة تؤديها له أمة . وقد ترجم الغرب كتب المسلمين واتخذها أساساً لنهضته العلمية الحديثة . ويعترف بن باديس أن مكتشفات الغرب أكثر من مكتشفات من تقدمه . ويفسر ذلك تفسيراً علمياً دقيقاً بتكاثر الحقائق المكتشفة جيلا بعد جيل « فإن المكتشفات تضم إلى المعلومات فتكثر المعلومات ، فيكثر ما يعقبها من المكتشفات على كثرة نسبتها وهكذا يكون كل قرن — مادام التفكير

---

(١) التفسير ص ٣٨٥ . (٢) التفسير ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣) مجلة الشهاب ج ٤ م ١٤ يونية ويولية ١٩٣٨ .

عمالا — أكثر معلومات ومكتشفات من الذى قبله »[١] .

أما المسلمون فقد كثرت معلوماتهم فى أيام حضاراتهم ، لكنهم أهملوا النظر فيها فبقى مجتمعهم جامداً ، ثم ما لبثت أن تجمدت هذه المعلومات وأخذت تقل وتضمحل « لأن المعلومات إذا لم تتعاهد بالنظر زالت من الحافظة شيئاً فشيئاً . . . وهذا هو طور انحطاط الأمم الانحطاط التام ، وذلك عندما يرتفع منها العلم ، ويفشو الجهل ، وتنتشر فيها الفوضى بأنواعها ، فتتخذ رؤساء جهالا لأمور دينها وأمور دنياها ، فيقودونها بغير علم ، فيضلون ويضلون . . . ويفسدون ولا يصلحون وما أكثر هذا ، على آخذه فى الزوال بإذن الله ، فى أمم الشرق والإسلام اليوم»[٢] .

لكن يجب الاعتراف دائماً بأن العلم هو وحده الإمام المتبع فى الحياة ، فى الأقوال والأفعال والاعتقادات . وهذا أصل إسلامى عظيم يجب التمسك به حتى تكون عقائدنا حقاً ، وأقوالنا صدقاً وأفعالنا سداداً ، « ولعمر الله إنه ما دخل الضلال فى عقائد الناس ، ولا جرى الباطل والزور على ألسنتهم ، ولا كان الفساد والشر فى أفعالهم إلا بإهمالهم أو تساهلهم فى هذا الأصل العظيم »[٣] .

وترك هذا الأصل فى الدين هو الذى أدى إلى التقليد فى العقائد والفروع ، وأحياناً على غير بصيرة وفهم . وعلاج ذلك أمر يسير . ذلك أن أدلة العقائد توجد فى القرآن واضحة سهلة . أما فيما يتعلق بالأحكام فأصولها مذكورة كلها فى هذا الكتاب الكريم ، والسنة حوت تفاصيلها . ولذا يوجب عبد الحميد بن باديس أن يرجع الناس عامتهم وخاصتهم فى أدلة العقائد إلى القرآن : « أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية فإنه من الهجر لكتاب الله وتصعيب طريق العلم إلى عباده ، وهم فى أشد الحاجة إليه ، وقد كان من نتيجة هدمها ما نراه اليوم فى عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه ...» ، ومن قبل فطن الإمام الغزالى والإمام ابن رشد إلى ضرر طرق علماء التوحيد وعدم جدواها ، بل إثارتها للشك فى العقائد الواضحة . ولن يصل مرشد إلى

---

(١) التفسير ١٣١ ، ١٣٢ .
(٢) التفسير ١٣٢
(٣) التفسير ص ١٣٤ — ١٣٥ .
(٤) التفسير ١٣٦

تثبيت العقيدة إلا إذا استعان بأدلة القرآن ، ولن يفلح المسلمون عقيدة وعملا إلا إذا رجعوا إلى الكتاب والسنة ، وهما أصل دينهم .

ولا ريب فى أن الإمام بن باديس أدرك ما جره علماء الكلام من فتن وشغب وفصم لعقلية المسلمين بسبب أسلوبهم فى الجدل والمناظرة ، حتى انتهوا إلى تكفير بعضهم بعضاً ، مما يزيد الخلاف شدة ، ويورث البغض والشر . وهكذا ادعت كل طائفة من أهل الجدل أو الفرق أنها الفرقة الناجية ، واحتكرت لنفسها الإيمان ، وقطعت بفسق أو كفر ما عداها من الطوائف . ولم يتح لأهل الجدل السيطرة على مفاهيم العامة إلا بسبب هجر المسلمين لتلاوة القرآن وتدبره ، وفيه قضاء على الريب والفتن « فكان سبباً فى خروجهم عن الحنيفة السمحاء إلى الغلو والتنطع ، وعن السنة البيضاء إلى البدع ، ثم زحف النسك الأعجمى والتخيل الفلسفى فابتعد الناس غاية البعد عن روح الإسلام . . . وآل الحال بهم إلى الخروج عن أثقال أغلالها والاقتصار على بقية رسومها للانتفاع منها ، ومعارضة هداية القرآن بها »[1].

ومن هجر القرآن ما نراه من أساتذة الجامعات الدينية عندما يتخذون تفسير القرآن وسيلة إلى المماحكات اللفظية واللغوية « كأن التفسير إنما يقرأ لتطبيق القواعد الآلية لا لفهم الشرائع والأحكام الإلهية »[2] ، وقد ساعدت الطرق الصوفية فى صرف الناس عن القرآن ، بما وضعت لهم من أوراد وأذكار نسبوا إليها من التأثير والبركة أضعاف ما نسبوا إلى آيات القرآن ، بل ذهبت إحدى الطرق الصوفية إلى ادعاء أن إحدى صلواتها ، وتسمى صلاة الفاتح ، من كلام الله القديم ، كأنما كان القرآن ناقصاً فجاءت هى لتكمله . وقد شغل بن باديس نفسه بمحاربة الطرقية فى الجزائر حتى يعود بالمسلمين إلى الكتاب والسنة . والذى نعلمه نحن أن كثيراً من الطرقية فى الجزائر انتهوا بأن انضموا إلى صفوف الشعب : وأعدوا جيل الثورة مع بن باديس وزملائه وتلاميذه .

٤ – موقفه من الصوفية :

ولما كان بن باديس يربط دائماً بين الدين والأخلاق والعقل ، ويرى أن

---

(١) التفسير ٢٣٢ .   (٢) التفسير ص ٢٣٣ .

قدرة المسلمين إنما تكون بالجمع بين العقائد الواضحة والأخلاق الطيبة والعلم ، فإنه لم يتحرج من أن يقاوم الطرق الصوفية فى الجزائر ، ومما زاده حدة فى مقاومتها ورغبة فى القضاء عليها ما رآه من تحالفها مع المستعمر منذ حركة الأمير عبد القادر حتى مطلع فجر النهضة الجزائرية الحديثة . ويفسر لنا ذلك عنفه فى إسقاطها، حتى ينفرد آمناً بمنازلة الاستعمار الأوربى .

وهو يتهم المتصوفة الذين أخذوا أنفسهم وأتباعهم بنسك الأعاجم بأنهم اخترعوا أعمالا وأوضاعاً وعقائد من عند أنفسهم ، وظنوا أنهم يتقربون بها إلى الله على غرار ما فعل المشركون من عبادة الأوثان والذبح عليها ، « وكما اخترع طوائف من المسلمين الرقص والزمر والطواف حول القبور والنذر لها والذبح عندها ونداء أصحابها وتقبيل أحجارها ونصب التوابيت عليها ، وحرق البخور عندها، وصب العطور عليها »[1]. وهو يدمغ ذلك كله بأنه مخالف لسنة رسول الله وأصحابه . فإنهم ما سعوا قط سعى الآخرة على نحو ما يفعل أتباع الطرق الصوفية . وهو يظهر عجبه من حال المسلمين الجزائريين وغيرهم[2] إذ « تجد السواد الأعظم من عامتنا غارقاً فى هذا الضلال .فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات ، يسألونهم حوائجهم من دفع الضر ، وجلب النفع وتيسير الرزق وإعطاء النسل ، وإنزال الغيث ويذهبون إلى الأضرحة ... ويدقون قبورهم وينذرون لهم ... وتراهم هنالك فى ذل وخضوع وتوجه ، قد لا يكون فى صلاة من يصلى منهم »، وهذا هو الشرك الخفى وعبادة الأولياء وتفضيلهم على الكتاب والسنة ، إنهم يدعون غير الله ، ومن دعا غير الله ، فهو إلى الشرك أقرب .

وإلى جانب هذا الشرك الخفى أو الصريح ، ساعد التصوف الفلسفى الأعجمى على هدم فكرة الخوف والرجاء التى ترتبط عند أهل الملل ، مسلمين وغير مسلمين ، بفكرة الثواب والعقاب فى الآخرة . فلقد زيف بعض المتصوفة باطلهم فقالوا : إن رجاء الثواب وخوف العقاب ينافيان الإخلاص فى عبادة الله ، فيجب أن يحب العبد ربه ، لا رجاء فى جنته ولا خوفاً من ناره . ويعرف أصحاب هذا الرأى من المتصوفة بأنهم متصوفة الزنادقة .

---

(١) التفسير ص ٧٣ .   (٢) التفسير ص ١٥٥ .

ويكشف بن باديس عن هذه الخدعة التى تهدف ، فى التحليل الأخير ، إلى إنكار الثواب والعقاب والجنة والنار فيقول : «إن قصد الثواب والجزاء على العمل لا ينافى الإخلاص فيه لله ، لأن الإخلاص هو أن تجعل عبادتك لله وحده ، ورجاؤك الثواب وطمعك فيه وحذرك العقاب وخوفك منه هما مقامان عظيمان لك فى جملة عبادتك ، يجب عليك أن تكون فيهما أيضاً مخلصاً لا ترجو إلا ثوابه ولا تخاف إلا عقابه . . والمقصود أن رجاء الثواب وخوف العقاب روحهما الإخلاص فكيف ينافيانه ؟ فالعامل الراجى للثواب الخائف من العقاب المخلص فى الجميع آت بأربع عبادات : فى عمله ورجائه وخوفه وإخلاصه وهو روح الجميع »[1] . وما عسى أن يقول المتصوفة عن الأنبياء وهم أكثر الخلق خوفاً من الله ونفوراً من عذابه ؟ وهل يجهلون أن من دعاء القنوت الثابت المحفوظ « وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجد » . . .

وليس من سبيل إلى الخلاص من الشرك ومن الاستهانة بثواب الله وبعقابه إلا بالعودة إلى إمام لا يضل ، وهو الكتاب والسنة وسير السلف « فى ذلك كله ما يعرفنا بالحق ، ويبصرنا فى العلم ويفقهنا فى الدين ، ويهدينا إلى الأخذ بأسباب القوة والعز والسيادة العادلة فى الدنيا »[2] . .

هذا وقد صرف الطرقية فى الجزائر الناس عن العمل ، وحببوا إليهم التواكل ، وأنكروا عليهم حرية الإرادة ، وكادوا يجردونهم من قيمهم الإنسانية، وشاعت المنكرات فى الموالد « والزردات »، وساعد على ذلك عون الإدارة الفرنسية . لذلك حرص بن باديس فى تفسيره وفى مقالاته وخطبه ، على أن يثبت فى أذهان مواطنيه أن الله وهبهم العقل المميز المفكر والإرادة الحرة، ومهد لهم الأسباب التى تؤدى دائماً إلى نتائجها ؛ وعلى أن يحذرهم من الطرقية الذين يهدمون جميع هذه القيم الإسلامية الإيجابية فى نفوسهم ، حتى يمكنوا للمستعمرين منهم . وهو حريص على أن يبين لمواطنيه لماذا التزم الطرقية جانب المستعمر . فمن جانب، تبادل الطرقية والاستعمار والعون ، ومن جانب آخر استغل أرباب الطرق الصوفية سذاجة

---

(١) التفسير ص ٦٨ ، ٢٦٧ .   (٢) التفسير ص ١٦٤ .

العامة فهناك « نوع موجود فى غالب القطر الجزائرى ، ويكثر فى بعض الجبال ، وهو أن بعض المأمورين من بعض شيوخ الطوائف يأتون بثلة من أتباعهم ، فينزلون على المنتمين إليهم من ضعفاء الناس » فتذبح لهم الذبائح ، « ويكنس لهم ما فى البيت . . . وشر ما فى هذا الشر أنه يرتكب باسم الدين ويحسبه الجهال أنه قربة لرب العالمين »[1] .

ويعترف الإمام بن باديس[2] أن الناس قبل نجاح حركة الإصلاح كانوا يظنون أن الاسلام ليس إلا ما تصوره الطرق الصوفية. ومما زاد فى ترويج هذه الفكرة الضالة ما رأوه من مسلك علماء الدين ضيقى الأفق الذين ساندوا الطرقية ، وأيدوا شيوخها . فلما شرع هو فى محاربتها فى كل من « المنتقد » و«الشهاب». ظن الناس أن هدم هذه الأباطيل، التى رسخت فى النفوس مع الزمن وأيدها المستعمر — محال . لكن الله وفق الجزائريين إلى معرفة حقيقة هذه الطرق وإلى الكشف عن أهدافها من إشاعة العقائد الباطلة وتحريف الإسلام وتشويهه ، وتحطيم القيم الأخلاقية الإسلامية ، ومن مساندة دولة الباطل :

والحق أن الاستعمار قد أخذ على غرة عندما سقط أعوانه من أصحاب الطرق الصوفية ، فحاول حمايتهم ، وبدأت بعض صحفه[3] تدافع عن هؤلاء العملاء ، وتصفهم بأنهم أصدقاء فرنسا المخلصون، وتستشهد بما قاله بعض المرابطين « إذا كنا أصبحنا فرنسيين فقد أراد الله ذلك ، وهو على كل شىء قدير . فإذا أراد الله أن يكسح الفرنسيين من هذه البلاد فعل ، وكان ذلك عليه أمراً يسيراً .. ولكنه كما ترون يمدهم بالقوة ، وهى مظهر قدرته الإلهية ، فلنحمد الله ولنخضع لإرادته » . وتأسف الصحيفة الفرنسية على مضى «هذا الزمن الذى كان يستمع فيه الجزائريون ويخضعون فيه لكل ما يوحى به إليهم شيوخ الطرق . أما اليوم فقد أفسد العلماء المسلمون الجزائريون كل شىء منذ عشر سنوات . فهم يبذلون الجهد فى هدم سلطان المرابطين ويحق مذهبهم بآيات القرآن ، ويهزمونهم فى كل مجال

---

(١) التفسير ص ٢٧١ . (٢) مجلة الشهاب مارس ١٩٣٨ .

(٣) جريدة الريبيليكان ٢٢/٦/٩٣٨ عن مجلة الشهاب جـ ٧ مجلد ١٤ .

بما يقتبسونه من أحاديث الرسول مما يجهله خصومهم كل الجهل ، ويتهمونهم بأنهم خونة للإسلام وأعداء للمسلمين . كذلك أخذ العلماء يحاربون تعليم البنات والبنين فى المدارس الفرنسية . وتحرض الصحيفة الإدارة الفرنسية على التنكيل بالعلماء فتقول : « وقد نجح هؤلاء فى حمل الناس على البراءة من مواطنيهم الذين قبلوا أن يعدوا من الفرنسيين وامتنعوا عن دفنهم فى مقابر المسلمين . وهؤلاء القادة ينفذون أوامر تأتيهم من القاهرة ودمشق ومكة وهى المدن التى تعمل فيها جماعات خفية لتنفيذ أغراض على جانب كبير من الخطورة . والتبعة فى ذلك تقع على الحكومة الفرنسية . فهى التى تركت هؤلاء المتعصبين أو الخبيثين يبثون دعوتهم ، ويضيعون من سلطان أصدقائنا المرابطين » .

ويقول الإمام بن باديس رداً على هذا الاستعداء بالإدارة الفرنسية فى الجزائر : إنه لا يهم جماعة العلماء المسلمين أن تجهز على هذا الجريح المثخن ، ويعترف بأنه حارب الطرقية لماعرف فيها من أنها بلاء على الأمة من الداخل والخارج ، فبذل هو وأصحابه كل الجهد فى القضاء عليها بعد أن كشف أهدافها . وهو يؤكد لمواطنيه فى عام ١٩٣٨ أن جماعة العلماء قد بلغت الغاية ، وأنها عزمت على أن تترك أمر فلول الطرق الصوفية للأمة حتى تتولى القضاء عليها بنفسها . ومع ذلك فإنه لا يرفض أن يمد يده لمن بقى من هذه الفلول ، حتى تشترى نفسها ، وتعمل مع بقية المسلمين يداً واحدة ، على شريطة « ألا يكونوا آلة مسخرة فى يد نواح اعتادت تسخيرهم . فكل طرقى مستقل فى نفسه عن التسخير فنحن نمد يدنا له للعمل فى الصالح العام . وله عقليته لا يسمع منا فيها كلمة — وكل طرقى ، أو غير طرقى ، يكون أذناً سماعة وآلة مسخرة فلا هوادة بيننا وبينه حتى يتوب إلى الله . قد نبذنا إليكم على سواء . . إن الله لا يحب الخائنين » .

وحقيقة نجح بن باديس وأعوانه فى تصحيح المفاهيم الإسلامية ، وفى بعث الجزائر بعثاً روحياً مكنها من الخلاص نهائياً من المستعمر وعملائه .

الفصل الخامس

دراسة مقارنة للإمام بن باديس والماتريدى وابن رشد

١ – فكرة السببية عند بن باديس وصلتها بالقضاء والقدر :

يعترف الشيخ عبد الحميد بن باديس بأن هناك أسباباً وضعها الله فى الكون ، وأن هذه الأسباب إنما تؤدى إلى مسبباتها بمشيئة الله الخالق لكل شىء ، أسباب ومسببات ، مما يفسر لنا لماذا يخفق الإنسان عندما يدعى لنفسه معرفة جميع المقدمات التى تفضى به إلى النتائج التى يريد الوصول إليها ، وعندما يظن أن قدرته الإنسانية يمكن أن تماثل القدرة الإلهية . ولا نظن نحن أن أحداً فى عالمنا المعاصر يدعى ، رغم تقدم العلم ، أن الإنسان قد كشف عن كل قوانين الكون وأسراره .

وليست هذه السببية التى أودعها الله فى الكون وقفاً على قوم دون قوم ، فكل إنسان ، سواء آمن بالله أم لم يؤمن به ، قادر على استخدام هذه القوانين الكونية للوصول إلى تحقيق غاياته العلمية ، ولكن بشرط أن يحصل الثقافة الكافية لمعرفة هذه القوانين ، وكيف يمكن تطبيقها . وتكشف لنا هذه الفكرة عن أن بن باديس من أنصار الفكرة العلمية الحديثة التى تقول بأن نظام الكون مطرد وعام ، وهذا هو ما يسميه المناطقة المحدثون باسم مبدأ « الحتمية فى الطبيعة » ، وهو كما نعلم أساس التقدم العلمى فى العصر الراهن . غير أنه يمتاز عن غيره بأنه لا ينسى أن هذا النظام الكونى هو من صنع الله الذى يخلق العالم ويحفظه . وهو يفسر لنا اطراد القوانين بالنسبة إلى جميع البشر تفسيراً خلقيًّا يرفع من قيمة الإنسان ، بدلا من أن يهبط بها ، وذلك عندما يرى أن أسباب الحياة والعمران والتقدم مبذولة لجميع الخلق بفضل من الله ، وأن كل من تمسك بها انتهى إلى نتائجها بإذنه .

فأى فارق بين هذه الروح العلمية المؤمنة المتواضعة ، وبين ما ذهب إليه برتراند رسل ؛ الذى دفع به عدم إيمانه بوجود الله إلى حد إنكار وجود العلاقات

السببية بل القوانين فى الكون ، وذلك لأنه كان يخشى أن يكون فى الاعتراف بوجود السببية اعتراف بوجود الله . ونحن لا نعلق على رأى « برتراند رسل » إلا بقولنا إن فلسفته ما هى إلا نكسة فى تاريخ الفلسفة والعلوم . هذا إلى أنه لا يفعل سوى أن يؤكد ما قرره فيلسوف سابق من فلاسفة القرن الثامن عشر وهو « هيوم ».

ومما يدل على أن فكرة بن باديس شديدة الارتباط بالواقع ، فضلا عن صحتها من الوجهة العلمية والدينية ، أنه عندما قرر فكرة السببية فى الطبيعة من جهة العقل والدين دعا الناس إلى أن يعتمدوا على الأسباب فيما يرجونه من عمل ، بل نراه يؤكد لهم أن من يظن أن ترك الأسباب نوع من الايمان العميق بالله والاعتماد عليه إنما هو رجل يسىء فهم دينه ، لأن من يترك الأسباب من المؤمنين سوف يكون شقياً فى الدنيا ، ولئن كان هو من الناجين فى الآخرة ، فسوف يؤاخذ على تقصيره فى استخدام العلاقات السببية التى وضعها الله فى متناول يده فى الدنيا ، فلم يشأ أن يستخدمها جهلا أو كسلا [1] .

وقد ضرب لنا الإمام بن باديس مثلا[2] لعقاب الله لهؤلاء الذين ظنوا أن الاسلام ينهاهم عن البحث عن القوانين السببية فى الكون ، فاستشهد بتاريخ المسلمين فى القديم والحديث ، وبين أنهم لم يتقدموا ولم يسودوا العالم ولم يبنوا حضارتهم ومدنيتهم إلا بالعلوم والصناعات ، عندما « أخذوا بأسبابها كما أمرهم دينهم . وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها بإهمال تلك الأسباب ، فخسروا دنياهم ، وخالفوا مرضاة ربهم ، وعوقبوا بما هم عليه من الذل والانحطاط ، ولن يعود إليهم ما كان لهم إلا إذا عادوا إلى امتثال ربهم فى الأخذ بتلك الأسباب ».

وهذا فى رأيه ، رد على هؤلاء الذين يريدون فى العصر الحاضر فتنة المسلمين عن دينهم بأن يوحوا إليهم أنهم ما تأخروا إلا بسبب إسلامهم ، وأن الآخرين لم يتقدموا إلا بسبب عدم إسلامهم . وهنا يقرر لنا بن باديس فى وضوح أن السبب فى التقدم والتأخر يقوم ، أولا وأخيراً ، على التمسك بفكرة القوانين الطبيعية أو تركها عن جهل وسوء فهم للدين ؛ إذ أن الدين يأمرهم بالبحث عن العلاقات

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) التفسير ص ٧٨ .

السببية والقوانين واستخدامها فى كل أمر من أمورهم .

ثم يشير إلى تفاوت الأفراد والأمم فى الإفادة من القوانين والأسباب ، مع أن الله مكنهم منها جميعاً ، ووهبهم العقل وحرية الإرادة . وهو يفسر لنا هذا التفاوت بأنه لحكمة إلهية اقتضت تفاوت الأفراد والأمم على نحو يعيننا على فهم الحياة والعمران والاجتماع .

غير أنه إذا قرر ضرورة الإيمان بالسببية ووجوب استخدامها فى العلم والصناعة فإنه يذكر الإنسان بضعفه وحاجته إلى ربه[1] ، لأنه لا ينال عادة شيئاً من التوفيق إلا بإذن الله ، أى بإرادة الله وتيسيره . وليس فى الاعتماد على الله ما يتعارض مع حثه على البحث والعمل ، بل إن ذلك ليحمله على الاجتهاد فى العمل دون أن يركبه الغرور ؛ إذ الله هو الذى خلق الأسباب ويسرها . كذلك ليس معنى الإيمان بالله أن ننكر فكرة السببية ونرفض استخدامها . فليس هناك سوى الرجل الجاهل[2] الذى قد يظن أن معالجة الأمراض أو مقاومة المصائب نوع من عدم الإيمان بقدر الله أو هو فرار من الله، على حد تعبير بن باديس . ذلك أن الأمراض والمصائب التى تنزل بالأفراد والأمم ، وإن ادعوا لأنفسهم علماً وقدرة لا حد لهما ، إنما هى بقدر الله ، أى فى حدود ما خلق . فالإنسان مأمور أن يقاوم ويعالج . وإذا فرّ من المصائب والأمراض إلى المقاومة والعلاج فإنه يفر دائماً من قدر الله إلى قدر الله ، على نحو ما قال الخليفة عمر بن الخطاب : عندما سئل فى وقت الوباء : أفراراً من قدر الله ؟

وهنا نرى بن باديس يربط ربطاً محكماً بارعاً بين فكرة علمية حديثة وبين عقيدة إسلامية جمع فيها ديننا بين تكريم العقل وبين وجوب تواضعه ، حتى لا يضل الإنسان فى الإعجاب بنفسه وعقله . وكيف له أن يغرق فى العجب بنفسه إذا كان الخالق هو الذى وهبه الحياة والعقل ، ثم أعطاه حرية الاختيار حتى يكون خليقاً بأن تنسب أعماله إليه ويكون مسئولا عنها ، دون أن يذهب به العجب إلى تصور أنه خالق لنفسه وخالق أفعاله ؟ وكيف يدعى أحد أنه يستطيع

---

(١) التفسير ص ٤٢٤ .　　(٢) نفس المصدر ص ٤٦٦ .

الخروج على مشيئة الله التى تتجلى فى هذا النظام المحكم الذى تمثل فى الكون ؟ هذا إلى أن علم الإنسان مهما بلغ فلن يحيط بأسرار الكون كلها ، إذ العلم فى صيرورة مستمرة ، وليس فى حالة مستقرة ، وهو يتطور دائماً نحو غاية لن يدرك منتهاها ، فعلم الغيب لله وحده .

٢ ـ فكرة السببية عند ابن رشد وارتباطها بالقضاء والقدر :

كان أبو الوليد بن رشد أول من حدد فكرة القانون العلمى تحديداً واضحاً ، بل يجب الاعتراف له بأنه حاول تحديد القوانين النفسية ، أى أراد أن يخضع الظواهر النفسية أيضا لقوانين تشبه تلك التى أودعها الله فى العالم الخارجى . وإذن ليس بصحيح ماقاله هنرى بوانكاريه من أن فكرة القانون العلمى من أحدث المكتشفات العلمية . ذلك أن ابن رشد حددها منذ منتصف القرن الثانى عشر أو بعد ذلك بقليل ، وهو يربط فكرة السببية بفكرة العناية الإلهية ، كما رأينا من قبل عند بن باديس ، وهو صاحب نظرية الخلق من العدم ، ونظرية الحفظ الإلهى التى نسبت من بعد إلى توماس الأكوينى ، ثم إلى ديكارت .

أما تحديده لفكرة السببية ، فجاء عند حديثه عن مشكلة القضاء والقدر ، التى فرقت بين كل من المعتزلة والأشاعرة ، فى حين أن العودة إلى الكتاب والسنة كانت كافية فى رفع الخلاف بين هاتين الطائفتين الكبيرتين . ذلك الخلاف الذى فرق الشمل ، وفتح مصراع الفتنة أمام أدعياء التصوف من الباطنية . ونريد هنا التصوف الفلسفى فى القرن الرابع وما بعده ، لا التصوف الذى يقوم على أخلاق إسلامية ، وعلى الورع والتقوى

إنه يقول فى تحديد فكرة السببية ، بعد حديثه عن الخلاف بين القائلين بالجبر والقائلين بالاختيار المحض ، وعن الآيات التى تشهد لكل وجهة نظر من هذين الفريقين : « الظاهر من مقصد الشارع ليس هو تفريق هذين الاعتقادين ، وإنما قصده الجمع بينهما على التوسط الذى هو الحق فى هذه المسألة . وذلك أنه يظهر أن الله تبارك وتعالى قد خلق لنا قوى نقدر بها أن نكتسب أشياء هى أضداد ، لكن لما كان الاكتساب لتلك الأشياء ليس يتم لنا إلا بمواتاة الأسباب التى سخرها

الله لنا من خارج، وزوال العوائق عنها ، كانت الأفعال المنسوبة إلينا تتم بالأمرين جميعاً . وإذا كان ذلك كذلك فالأفعال المنسوبة إلينا أيضاً يتم فعلها بإرادتنا وموافقة الأفعال التى من خارج لها ، وهى المعبر عنها بقدر الله . وهذه الأسباب التى سخرها الله من خارج ليست هى متممة للأفعال التى نروم فعلها أو عائقة عنها فقط ، بل هى السبب فى أن نريد أحد المتقابلين . . . ولما كانت الأسباب التى من خارج تجرى على نظام محدود ، وترتيب منضود ، لا تخل فى ذلك بحسب ماقدرها بارئها عليه ، وكانت إرادتنا لاتتم ، ولا توجد بالجملة ، إلا بموافقة الأسباب التى من خارج ، فواجب أن تكون أفعالنا تجرى على نظام محدود ، أعنى أنها توجد فى أوقات محدودة ومقدار محدود . . وليس يلفى هذا الارتباط بين أفعالنا والأسباب التى من خارج فقط ، بل بينها وبين الأسباب التى خلقها الله تعالى فى داخل أبداننا . والنظام المحدود فى الأسباب الداخلة والخارجة ، أعنى التى لا تخل ، هو القضاء والقدر الذى كتبه الله تعالى على عباده ، وهو اللوح المحفوظ ، وعلم الله تعالى بهذه الأسباب وبما يلزم عنها هو العلة فى وجود هذه الأسباب . ولذلك كانت هذه الأسباب لا يحيط بمعرفتها إلا الله وحده . ولذلك كان هو العالم بالغيب وحده على الحقيقة »[١] .

كذلك اتخذ ابن رشد فكرة السببية دليلا على وجود الله . وهو يسخر من هؤلاء الذين ينكرون أن يكون الإيمان بالله عن طريق العقل ، بل عن طريق النقل أو الوحى ، كأن التصديق بالوحى نفسه لا يحتاج فى نظرهم إلى استخدام العقل . ولكن رغم هذه السخرية ، فابن رشد رفيق بهؤلاء الذين لا يريدون استخدام ما وهبهم الله من عقل ، وهو يرى أنه متى وجدت جماعة من الناس يعجزون عن استخدام عقولهم فى معرفة وجود الله فما عليهم إلا أن يؤمنوا بالطريقة التى يرتضونها بها . « ولا يمتنع أن يوجد من الناس من تبلغ به فدامة العقل ، وبلادة القريحة ، إلى ألا يفهموا شيئاً من الأدلة الشرعية . . . وهذا هو أقل الوجود . فإذا وجد ففرضه الإيمان بالله من جهة السماع » ، أى أن ابن رشد لا يحكم عليهم ببدعة أو زيغ ، لأنه ليس من أولئك الذين يريدون جعل الجنة وقفاً على شرذمة

---

(١) مناهج الأدلة فى عقائد الملة ، نشر مطبعة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية ص٢٢٦ ، ٢٢٧ .

يسيرة من هؤلاء المتكلمين ، كما قال الإمام الغزالى من قبل .

أما بالنسبة إلى علماء الكلام الذين اعتمدوا على أدلة غير عقلية ولا شرعية ككل من دليل الجوهر الفرد والممكن والواجب اللذين يتعارضان مع أدلة الشرع والعقل معاً ، فإن الفيلسوف القرطبي لا يجاملهم ، بل يبين أنهم يهدمون فكرة السببية ، ومن ثم يكادون ينكرون العناية الإلهية . إنهم زعموا أن الأشياء يمكن أن توجد على نحو مخالف لما هى عليه ، كأن يصعد الحجر إلى أعلى ، وتنقلب الحركة الفلكية الشرقية غربية وبالعكس . لكن الواقع يكذبهم . فإننا نلمس بحواسنا أن لكل نوع من الأنواع خلقته الخاصة به ، وقد نهتدى إلى معرفة بعض الحكمة فى وجود نوع ما على هيئة ما ، مما يوحى إلينا بأن هناك أسباباً ثابتة أودعها الله فى الكون . وغاية ما هنالك أنهم يريدون إنكار وجود الأسباب الطبيعية التى خلقها الله . وقد نسى هؤلاء أمراً له خطره ، وهو أننا إذا كنا نجهل السبب فى ظاهرة ما كالحركات السماوية مثلا ، فليس هذا دليلا على عدم وجود هذا السبب . ذلك أن جهلنا بحقائق الأشياء لا يصلح مطلقاً أن يكون مقياساً لدرجة الإمكان فيها — فى الجملة يرى ابن رشد أن أدلتهم تهدم فكرة علمية تبين أنها صادقة فى عصرنا الحديث .

وفضلا عن ذلك فإن دليلهم لا يسير فى الاتجاه السليم للعقيدة ، إذ يشبه أن يكون إنكاراً لحكمة الله تعالى وعلمه ، إذ لو كان يمكن أن توجد الأشياء أو تصنع على نحو آخر لما كان وجودها الحالى دالا على حكمة أو لحكم ، أى لو لم تكن هناك أسباب تحدد وجودها والغاية منها لما كانت هناك للخالق سبحانه معرفة تخصه دون المخلوقات ، ولكان فى ذلك إنكار لحكمته تعالى[1] .

ثم إن ابن رشد استخدم فكرة السببية المرتبطة بالعناية الإلهية ليجد حلا لمشكلة القضاء والقدر التى فرقت بين مفكرى الإسلام ومزقت الأمة وقادتها إلى عصور التدهور . غير أن ابن رشد لم يشأ أن يسلك مسلك الجدل ، كما فعل سابقوه من أهل الجبر المحض أو الاختيار المحض ، أو الأشعرية التى تقول بالكسب ، وتكاد تنكر القوانين السببية فى الكون كما رأينا منذ قليل . لذلك آثر أن يتجه رأساً

---

(١) انظر مقدمتنا فى نقد مدارس علم الكلام ، مناهج الأدلة نفس الطبعة ص ١٦ ، ١٧ .

إلى الكتاب والسنة ، ثم يسترشد بالعقل ، حتى يجد حلا لهذه المشكلة التى فرقت بين المسلمين حتى تراشقوا فيما بينهم بالكفر . نقول إنه حاول أن يهتدى إلى حل يقبله الدين والعقل معاً . فإن هو وجده قنع به ، وإلا اعترف بعجزه . لكنه اهتدى إلى حل شبيه بالذى اهتدى إليه الإمام بن باديس ، وليس ذلك بعجيب. فكلاهما عاد إلى الكتاب والسنة تاركاً جو الجدل والشغب . أما فيما يتعلق بابن رشد فإنه سلك مسلكاً استقرائياً ، فوجد أن فى القرآن الكريم آيات تدل على الجبر ، وأخرى لا تقل عنها صراحة فى تأكيد الاختيار. مثال الآيات الأولى قوله تعالى : « إنا كل شىء خلقناه بقدر »، وقوله : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » . أما الآيات الثانية فمن مثل قوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »، وقوله « ولا تزر وازرة وزر أخرى »، وأكثر من ذلك يتفق أن تحتوى الآية الواحدة على تأكيد لهذين الرأيين المتناقضين كقوله تعالى : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك »، وقوله تعالى: « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »، كذلك يوجد مثل هذا التضاد فى الأحاديث النبوية كقوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » .

ثم يبين ابن رشد تعارض الأدلة العقلية فى نفس هذه المسأله ؛ إذ لو كان العبد هو الذى يخلق أفعاله لكانت إرادة الله سبحانه وقدرته محدودتين ؛ لأنهما لا تنطبقان على أفعال الإنسان ، وهذا مخالف لما أجمع عليه المسلمون من أن الله خالق كل شىء ، ومن جهة أخرى لو قلنا إن الإنسان يعجز عن القيام بأى عمل لانتهى بنا ذلك الإنكار إلى مأزق ، وهو كيف يكون هذا الإنسان العاجز أهلا للتكليف بأوامر الشرع ونواهيه ؟ وكيف يجوز فى العقل، أن يجبر الإنسان على فعل، ثم يثاب أو يعاقب عليه ؟

ويرى ابن رشد أن هذا التعارض الظاهرى بين أدلة الشرع لم يأت عبثاً أو مصادفة ، بل كان مقصوداً من الله سبحانه ، لكى يرشد العلماء القادرين على فهم الكتاب والسنة فهماً صحيحاً إلى الحل الحاسم — وهذا الحل الحاسم فى نظر

ابن رشد يتلخص فى أن الله يخلق قدرة العبد التى تصلح للقيام بأفعال مختلفة، ومع ذلك فإن هذه القدرة المخلوقة محدودة بالقوانين الخارجية فى الكون ، والقوانين الداخلية فى جسم الانسان ، بحيث يمكن القول بأن الأفعال الإنسانية ليست اختيارية تماماً ولا اضطرارية تماماً ، وإنما تتوقف على عاملين : إرادة حرة، ترتبط فى الوقت نفسه بأسباب خارجية، تجرى دائماً على نمط واحد ، أو سنن منضودة لا تخل بحسب ما قدرها بارئها عليه .

ويبدو لنا بوضوح وجود اتفاق تام بين بن باديس وابن رشد مع وجود فارق هام ، وهو أن بن باديس يبرز الناحية الأخلاقية أكثر مما فعل ابن رشد ، وهو أكثر إلحاحاً فى ضرورة الفرار إلى الله ، ويمكن تفسير ذلك بأمرين : أحدهما اختلاف طبيعة كل منهما ، وثانيهما وهو هام جداً فى نظرنا ، ويتلخص فى أن ابن رشد عاش فى حضارة إسلامية مدبرة ،وبن باديس عاش فى حضارة مقبلة، وربما فسر لنا هذا طابع التفاؤل عند بن باديس ، والطابع العقلى الصارم عند ابن رشد .

٣ ــ حرية الإرادة عند بن باديس :

لم يشأ الإمام بن باديس أن يدخل فى مناقشة مختلف الآراء التى دارت بين أهل الجبر المحض والقائلين بحرية الإنسان واختياره من جانب ، ثم بين الأشعرية والمعتزلة من جانب آخر ، وحسناً فعل ؛ لأن مثل هذه المناقشات انزلقت بالخصوم إلى المهاترة التى دعتهم إلى استخدام عبارات لا تليق بالله سبحانه ، كالقول بأنه يريد السفه والظلم ، أو أنه قد يثيب العصاة ويعاقب المؤمنين ،مع أن معالجة المشكلة فى جو من الهدوء تبين لنا أن القوم كانوا يهدفون إلى تنزيه الله ، لكنهم كانوا يتكلمون كلٌّ بلغة لا يفهمها الآخرون . وفضّل الإمام أن يتجه رأساً إلى الكتاب والسنة، فجاء رأيه أقرب ما يكون إلى رأى السلف، وهو شديد الشبه بكل من رأى أبى منصور الماتريدى وابن رشد فى هذه المسألة ، لأنه يربط ، هو الآخر ، بين العناية الإلهية وفكرة السببية وبين حرية الإرادة . فهو يقرر لنا فى تفسيره[1] أن جميع ما فى الكون قد شملته نعم الله ، وأول هذه النعم هو وجود

(١) انظر تفسيره لقوله تعالى : «كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً» =

الموجودات ، « ثم تتنوع تلك النعم الرحمانية بتنوع الموجودات وأنواعها . . وتتفاوت تبعاً لذلك . . . » إذ أن كل موجود قد أعطى من التكوين ما يناسب وجوده .

وقد أعطى الله الناس نعمة الوجود ، ومكنهم من أسبابها ، وخلقهم متساوين من حيث العقل المميز والإرادة الحرة . فكل إنسان يختار بعقله ، وهو يعتمد على إرادته الحرة ، التى لا يمكن أن يكابر أحد فى وجودها ، لكى يختار ما يرضاه لنفسه ، وعلى حسب ما أداه إليه تفكيره . فالناس جميعاً سواء فى النعم الدنيوية ، عصاة كانوا أم مؤمنين أم غير مؤمنين . والسبيل إلى تحقيق ما يختاره المرء لنفسه هى السعى فى جلب الخير والرزق لها . ومعنى ذلك أنه يستعين بالأسباب . لكن أفضل من ذلك أن يستخدم هذه العلاقات السببية الموجودة فى الكون ، وأن يكون على علم بأن الله خلق الأسباب ومسبباتها . وهذا الربط بين العمل والإيمان هو ما يحرص الشيخ بن باديس على تأكيده وإظهاره ، لكى يقرر لنا أن أفضل السعى ما اعتمد على القلب والعمل .

فليس لأحد أن يحتج ، بعد ذلك ، لسوء عمله وفساد قلبه ، بأن الله قضى عليه بالعذاب . فإن لله حجة بالغة على الناس .

وحجة الله على الناس هى العقل الذى وهبهم إياه، وحرية الاختيار التى أنعم بها عليهم ، وتلك الآيات الكونية التى تفجأ الحواس والعقل ، ثم الرسالات السماوية التى جاء بها رسله، لكى يبلغوا الناس الشرائع والأخلاق . وكل هذه أمور لا يمكن إنكارها ، كما لا يستطيع أحد أن ينكر ما لديه من عقل واختيار .

وليس لأحد أن يحتج بأن علم الله الأزلى بما سيفعله الإنسان هو السبب فى إنكار حرية الإرادة لدى العبد. ذلك أن هذا العلم السابق لا يؤثر فى حرية إرادته أو اختياره . ولئن احتج أحد بذلك فإنه يعلم بينه وبين نفسه أنه ينكر البداهات والتجربة اليومية . وهنا يضرب لنا الشيخ بن باديس مثالا تقليدياً يقرب ، لمن غلبت عليه روح التقليد والرغبة فى الشغب التى توجد لدى علماء الكلام ، نقول إنه يضرب لأمثال هؤلاء كيف لا يؤثر العلم الإلهى السابق فى اختيار الإنسان ، وهذا المثال

= انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » الآية ٢١ ، ٢٢ من سورة الإسراء : التفسير ص ٧٥ ، ٧٦ .

هو مثال رجل له ولدان يعلم نفسية كل واحد منهما وأخلاقه وسيرته ، ثم يأمرهما بأمر فيه الخير لهما ، وهو يعلم أن أحدهما سيمتثل ، ويعلم أن الآخر سيخالف. ثم يقول لأهل بيته إن فلاناً سيمتثل ، وإن الآخر سيخالف ، فيتحقق علمه فى كل واحد منهما . فيجازى المطيع ويعاقب العاصى . فالوالد يأمر ولديه بالخير ، ويبذل لهما النصح ، ولا يقدح فى ذلك علمه بما سيكون منهما ، كما أن هذين الولدين قد نال كل واحد منهما ما يستحق ، دون أن يكون للمخالف منهما حجة على مخالفته ، بما كان يعلمه منه أبوه . . . « لله المثل الأعلى فقد أحاط بكل شىء علماً ، فعلم من سيطيعه ومن سيعصى . ولكنه الحكم العدل . فلم يكن ليجازيهم على سابق علمه فيهم الذى لا دخل لهم فيه ، بل جعل جزاءهم بعد إقامة الحجة عليهم بما يكون من اختيارهم ، ليكون جزاؤهم على ما عملوا وما قدمت أيديهم.. »[١].

ثم يبين لنا الشيخ بن باديس أن الحساب إنما يكون بسبب ما وهب الله للإنسان من قدرة تصلح للضدين أى للفعل والترك ، ومن اختيار ، وليس بسبب علمه السابق بأنهم سيفعلون هذا الضد أو ذاك . والحكمة فى ذلك أنه يمتحنهم لتظهر حقائقهم ويقع جزاؤهم على ماكسبت أيديهم باختيارهم . ولا حجة لهم فى تقدم علمه تعالى بما يكون منهم ، وأن تقدم العلم لم يكن ملجئاً لهم على أعمالهم . ففى هذا الامتحان قيام حجة الله على العاملين أمام أنفسهم وأمام الناس ، لما فيه إظهار لحقيقتهم لأنفسهم ولغيرهم[٢] ، كذلك قال الإمام بن باديس فى كتابه العقائد الإسلامية : « لا يحتج بالقدر فى الذنوب ، لأن حجة الله قائمة على الخلق بالتمكن والاختيار والدلالة الفطرية والدلالة الشرعية لقوله تعالى : (وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم ما لهم بذلك من علم إنهم إلا يخرصون) »[٣].

فليس لأحد إذن أن يحتج لسوء فعله بالقضاء والقدر . وقد عبر أبو العلاء المعرى عن هذا المعنى فقال :

---

(١) التفسير ص ٣٨١ ، ٣٨٢ ، تفسير قوله تعالى : « لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » سورة يس آية ٧ .

(٢) التفسير ص ٢٢٢ ، تفسير قوله تعالى : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً » سورة الفرقان آية ٢٠ .

(٣) انظر العقائد الإسلامية ، رقم ٥٩ ، ص ٦٤ طبعة دار الكتاب الجزائرى .

إن كان من فعل الكبائر مجبراً فعقابه ظلم على ما يفعل
والله إذ خلق المعـادن عالم أن الحداد البيض منهـا تجعل

٤ — وجهة نظر الماتريدى وابن رشد فى حرية الإرادة :

يقال عادة إن الماتريدى أقرب إلى الأشعرية منه إلى المعتزلة ؛ لكن بدا لنا بعد الدراسة المقارنة أن العكس هو الصحيح ، وأنه أقرب إلى السلف منه إلى أية فرقة أخرى . والذى يعنينا هنا أنه لما عالج مشكلة القضاء والقدر ، اعترف بأن العبد مختار ومسئول عن اختياره ، لأن علم الله لا يجبره ، أى أنه لا يؤثر فى وقوع أفعاله[١] .

أما ابن رشد فهو يقول بأن العبد له إرادة حرة ، وأن الله خلق له قدرة على الفعل والترك ، وتلك علامة من علامات العناية الإلهية ، وهذه القدرة ليست مطلقة بل هى مقيدة بالأسباب الخارجية ، كما سبق بيان ذلك عند كلامنا عن الصلة بين السببية والقضاء والقدر فى نظر هذا الفيلسوف .

ومما يدعو إلى العجب حقيقة أن « أرنست رينان » يخطئ خطأ واضحاً فى فهم فكرة ابن رشد فى مسألة القضاء والقدر ، لأنه قال بحرية الإنسان واختياره فى حدود القوانين الطبيعية . ولا أدرى لماذا يؤكد « رينان » ، دون اعتماد منه على أى نص كتلك النصوص التى أوردناها ، أنه ينبغى أن يحتفظ لابن رشد بمكان ملحوظ فى مقدمة الفلاسفة الذين ينكرون العناية الإلهية ، ويرفضون إرجاع الأسباب فى الكون إلى الله تعالى ؟ غير أننا نفهم السبب الذى تردى من أجله « رينان » فى هذا الخطأ ، وذلك لأنه لا يفعل شيئاً سوى أن يكرر الأسطورة التى حاكها الصليبيون فى القرن الثالث عشر ضد ابن رشد ، باعتباره ممثلا للفلسفة الإسلامية ، فوصفوه بالإلحاد والكفر .

أما نحن فنقول ، بناء على النصوص ، لا على أساس من الهوى ، أن رأى ابن رشد ، الذى يرفع التناقض بين فكرة القضاء والقدر وبين حرية الإرادة الإنسانية ،

---

(١) انظر مقدمتنا لكتاب مناهج الأدلة فى عقائد أهل الملة الطبعة الثانية ص ١١٦ ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية .

هو الرأى الذى أصبحنا نجده فى القرن العشرين لدى علماء الأخلاق المعاصرين . فهم يثبتون للإنسان إرادة مقيدة بالأمور الخارجية ، حقاً قد يحتج أنصار الجبر فيقولون: إنها ليست إرادة مطلقة ، لكن يمكن الرد عليهم بأنها إرادة فى كل حال، لأنها تستطيع الاختيار بين أحد فعلين متضادين كالفعل والترك ، ومتى فعلت أحدهما تحققت لها حريتها الكاملة فى لحظة معينة . وهذا هو السبب فى أن الإنسان يعد مسئولا عن أفعاله، إذ أن له الاختيار فى كل لحظة بين أمور متضادة قد يقل عددها شيئاً فشيئاً ، لأن هذا الاختيار يحدد للمرء اتجاهاً معيناً فى حياته . تلك هى فكرة الإرادة الحرة كما يفهمها الأخلاقيون المعاصرون ، لكن فكرة المسلمين الذين قالوا بالإرادة الحرة ، أكثر تفاؤلا ؛ لأنهم يرون أن الرجوع إلى الله يغير الطريق ، ويكسر قيود العادات الراسخة .

ومن المؤكد أنه على الرغم مما يزعمه « رينان » من أن ابن رشد يقول بالحتمية فى العالم الطبيعى وينكر العناية الإلهية ، فإن « توماس الأكوينى » أخذ نظرية فيلسوفنا عن القضاء والقدر وصلتهما بحرية الإرادة الإنسانية ، وقال مثله وبألفاظ تكاد تكون هى ألفاظه ، إن الله أعطانا حرية الاختيار ، ولكن هذه الإرادة غير محددة ، وإنما يستطيع المرء بعد التفكير والتأمل أن يصمم على أمر دون آخر. وقد ظن « جلسون »[1] ، الذى عرض هذه النظرية فى كتابه عن توماس الأكوينى ، أنها من صنع فيلسوفه ، وغاب عنه أن يرجع إلى ما كتبه ابن رشد حتى يعلم مصدرها ومنبعها ، وأنها فى الواقع أول محاولة جدية للتوفيق بين آراء إسلامية بحتة .

فهل يمكننا ، بعد ذلك ، القول بأن كلا من الماتريدى وابن رشد وبن باديس سلفى فى هذه المسألة ، وأعنى بها مسألة حرية الإرادة الإنسانية ، تلك الحرية التى لا تتعارض مع فكرة القضاء والقدر على النحو الذى فهمها عليه السلف ؟

* * *

وهناك مسائل عديدة تتصل أيضاً بعقيدة القضاء والقدر، كمسألة الخير والشر ، والحسن والقبيح ، ومن الممكن أن نعرض لهاتين المسألتين ، مبتدئين بمسألة الحسن والقبيح جرياً على النهج الذى يبدو لنا سليماً ، لأن الخير حسن والشر قبيح .

(١) Gleson, Le Thomisme

٥ ـ الحسن والقبيح فى نظر بن باديس :

يقرر لنا الشيخ عبد الحميد بن باديس أن حُسن الطاعات وقُبح المعاصى مركوز فى العقول ، وأن من رحمة الله أنه أعطى للعقل الإنسانى قدرة يميز بها بين القبيح والحسن ، أى بين الرذيلة والفضيلة ، حتّى يسهل عليه اتباع الشرائع التى أوصى بها الله إلى رسوله ، لدعوة الناس إلى فعل المحاسن وترك القبائح ، فتتبين لهم حكمة الله فى الأمر بالأولى والنهى عن الثانية ، وحتّى يترّتب الثواب أو العقاب على اختيار الإنسان لما يعلم بعقله أنه حسن أو قبيح [1] ، فالفضيلة إنما كانت فضيلة لحسنها وكمالها ، والرذيلة إنما كانت رذيلة لقبحها ونقصها . والإنسان مجبول على محبة الكمال وكراهية النقص . ويتضح لنا أن الشيخ عبد الحميد بن باديس يقول بالحسن والقبح الذاتيين فى الأشياء ، وهذا هو ما يعبر عنه بقوله [2] : « والمحاسن محبوبة لله ، أمر بها ، ويثيب عليها ، ويرضى عن فاعلها ، والمقابح مبغوضة لله تعالى ، نهى عنها ، ويعاقب عليها ، ويسخط على مرتكبها » . فالله يأمر بالحسن المحبوب ، وينهى عن القبيح المبغوض .

ورأى الإمام بن باديس يخالف هنا رأى بعض المتكلمين من علماء المسلمين الذين جرهم الجدل مع خصومهم إلى الغلو فقالوا : إن الحسن لو ورد به نهى لانقلب قبيحاً ، والقبيح لو جاء به أمر لأصبح حسناً ؛ إذ لا وجود للحسن والقبح الذاتيين ، بل الشرع هو الذى يحسن ويقبح ، ولا مدخل للعقل فى ذلك . ومعلوم أن هؤلاء احتجوا لرأيهم بأن الحسن أو القبيح لو كانا ذاتيين فى الأشياء لما تغيرت حالهما ، مع أن المألوف هو أن نرى أن نظرة الناس تختلف باختلاف الظروف ، فما يرونه حسناً فى بعض الأحيان ربما صار قبيحاً فى أحيان أخرى كالقتل الذى يصبح حسناً عند ما يكون للقصاص من القاتل . كذلك يحتجون لرأيهم بأنه لا سبيل إلى إنكار نسبية الأخلاق لدى الأمم واختلاف التشريع باختلاف الديانات ،

---

(١) التفسير ص ١١٩ عند تفسير قوله تعالى : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » .

(٢) التفسير ص ١٤٢ عند تفسير قوله تعالى : « كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً » .

فالقيم الأخلاقية ليست ثابتة أو مطلقة ، بل هي فى تطور مستمر .

وقد تبدو هذه الحجة قوية ، وربما ظن بعضهم أن الدراسات الأخلاقية الحديثة تؤكد صحتها . لكن ليس الأمر بمثل هذا اليسر ؛ لأن القول بنسبية الأخلاق ليس صحيحاً على إطلاقه . فإن هناك أصولا كبرى تتفق عليها الشرائع السماوية والوضعية . وهذه الأصول ثابتة كوصف الظلم بأنه قبيح وشر ، ووصف الأمانة والصدق بأن كلامنهما حسن وخير . أما الفروع ، أى تطبيق هذه الأصول فى حالات خاصة قد تكون معقدة ، فإنها تتطور ، وعندئذ توصف بأنها نسبية ، فالواجب أن نفرق إذن بين نوعين من الحسن والقبح ، أحدهما ذاتى يدرك بالعقل ؛ والآخر يحتاج العقل فى إدراكه إلى عون من الشرع .

أما الإمام بن باديس فرأيه واضح كل الوضوح فى هذه المشكلة ؛ لأنه يقرر لنا « أن ما أمرهم (الله) به هو الحسن المحبوب ، وأن ما نهاهم عنه هو القبيح المبغوض ، فعلموا من ذلك أن أوامر الشرع ونواهيه هى على مقتضى العقل الصحيح والفطرة السليمة ، وأنه تعالى لا يأمر بقبيح ، ولا ينهى عن حسن ، وفى علمهم هذا ما يحملهم على الامتثال ويرغبهم فيه . . . فإن الحسن جد الحسن ما كان حسناً عند الله تعالى ، والقبيح جد القبيح ما كان قبيحاً عنده . . »[1] ، ويتسق هذا الرأى مع ما رأيناه من أن العقل يميز بين الحسن والقبيح الذاتيين اللذين يفترقان بناء على أصول ثابتة مغروسة فى نظر الإنسان ، وأن الشرع يساند العقل فى هذه الناحية ، ثم يأتى إلى عونه فى التطبيقات الفرعية على الأصول الثابتة . فيبين له الفروق الدقيقة التى يعجز العقل عن الاهتداء إليها . فالإحسان إلى الوالدين مثلا شىء حسن ، لكن التفاصيل الدقيقة لهذا الإحسان لا يهتدى العقل إليها وحده ، فيرشده الشرع إليها[2] .

---

(١) تفسير بن باديس ص ١٤٢ — ١٤٤ عند تفسير قوله تعالى : « ولا تمش فى الأرض مرحاً » الآية إلى قوله تعالى : « كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً » الإسراء ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) التفسير : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » الآية انظر التفسير ص ٨٧ وما بعدها .

٦ ـ الحسن والقبيح فى نظر الماتريدى وابن رشد :

من الأمانة فى البحث أن نقرر أن أبا منصور الماتريدى كثيراً ما ينتزع نفسه من جدل علماء الكلام انتزاعا ، فيعود إلى رأى السلف ، ومن ثم تجده يسبق ابن رشد إلى حل بعض المشكلات . وهو ينجح دائماً فى الإفلات من الجو الجدلى الكريه عندما يعود إلى الكتاب والسنة : فيرى أن ما جاء به الشرع مطابق للعقل. وفى مسألتنا هذه يعترف الماتريدى بأن القبح والحسن أمران ذاتيان فى الأشياء ، وأن الشرع يؤيد فى أوامره ونواهيه ما يصف به العقل الإنسانى الأشياء من حسن أو قبح . حقًّا إن العقل لا يهتدى إلى التمييز بين هذين الأمرين فى جميع الحالات. ولذلك جاء الشرع يدعمه وينير أمامه الطريق ، وإنما وجب القول بأن الله لا يريد القبيح لأن قدرته مرتبطة بحكمته وعدله. فالله مالك مطلق، وهذا أمر لا ينكره أحد . لكن ينبغى ألا يستنبط من ذلك أنه يفعل ما يقبح فى نظر العقل ، كإثابة العاصى وعقاب المؤمن ، فإن فى ذلك هدماً لكل المعايير الأخلاقية والعقلية[١] .

أما أبو الوليد بن رشد فهو يرفض رأى هؤلاء الذين قالوا إن العقل لا دخل له فى تحديد طبيعة الحسن أو القبيح ، وإن الله لو أمر بالكذب لأصبح حسناً ، ولو نهى عن الصدق لصار قبيحاً . وقد رفض هذا الرأى لسببين : وهما أنه مضاد للعقل من جانب ، ومخالف لروح الشرع من جانب آخر . أما مضادته للعقل فذلك ما تشهد به البداهة . فإنا ندرك بحواسنا وعقولنا أن هناك أشياء حسنة وأخرى قبيحة ، وأن الحسن والقبح فيهما لذاتهما ، فليس الحسن والقبح إذن أمرين اعتباريين ، بل هما حقيقيان . وهذا الرأى مضاد للعقل من جهة أخرى ، إذ لو كان الشرع هو الذى يحدد صفة القبح أو صفة الحسن فى الأشياء لجاز القول بأن الشرك بالله ليس قبيحاً فى ذاته ، وأننا لو فرضنا أن الشر جاء ينادى به بدلا من التوحيد لانقلبت طبيعته فأصبح خيراً وحسناً .

وأما أن هذا الرأى ، الذى ينكر الحسن والقبح الذاتيين ، يخالف روح الشرع

(١) مقدمتنا فى نقد مدارس علم الكلام لكتاب مناهج الأدلة .

فذلك لأنه يناقض كثيراً من الآيات القرآنية التى تصف الظلم بالقبح ، والتى تنفيه عن الله سبحانه ، وهى تلك الآيات التى يستخدمها أيضًا لبيان وجهة نظره فى الخير والشر ، مما يدعونا إلى الإشارة إليها فيما بعد ، أى عند الكلام عن الخير والشر المقابلين عنده للحسن والقبيح .

٧ ـ الخير والشر فى نظر الإمام بن باديس :

يفرق بن باديس بين نوعين من الشر ، أحدهما ذاتى ، والآخر نسبى ، فالشر الذاتى هو الذى لا ينفك عن طبيعة الشيء ، كالكفر والضلال وجميع الرذائل والكوارث الطبيعية الخ ، وأما النسبى فهو الشر العارض . وهو يضرب لذلك مثالا بالمال ، وهو أحد النعم الإلهية التى قد تنقلب شرًّا بسبب سوء تصرف الناس فيها . فالمال خير فى ذاته عندما يكتسبه الإنسان بالوسائل المشروعة وينفقه فى الوجوه المشروعة قاصداً بذلك وجه الله فى جمعه وإنفاقه . أما إذا أساء المرء كسبه وإنفاقه فإن المال يصبح شرًّا بسوء الاستخدام ، دون أن تتغير طبيعته .

والتفرقة بين الخير والشر ألصق بحياة الإنسان ، لأنه الكائن العاقل المكلف ، ثم إن اتصال الخير والشر بحياته أكثر ظهوراً منه بالنسبة إلى أى كائن آخر . والإنسان هو الذى حدد له الدين قوانين ثابتة للخير والشر ، وأوضح له أن الخير ما نفع ، وأن الشر ما ضر ، « ولكنه ، وإن أوتى قوة التمييز ، لم يؤت قوة الاعتصام ابتلاء من الله . أما المخذول فيأتى الشر عامداً ، وهو يعلم أنه شر . وأما الموفق فيواقع الشر فى مواقف يشتبه عليه فيها الخير بالشر ويعسر التمييز . والخير والشر لا يوزنان بميزان حسى يستوى الناس كلهم فى إدراكه . وقد تدق الفوارق بينهما حتى تخفى . وفى هذه المواقف يجب الالتجاء إلى الله ليرينا الخير خيراً ، ويكشف لبصائرنا عن حقائق الشر ، فلا يلتبس علينا شيء بشيء »[1] .

إذن يمكن القول بأن الإنسان يوجد على مفترق طرق بين الخير والشر . فإذا ارتضى طريق الشر كان شرًّا محضاً ، بل هو أحط من الشيطان الذى خلق للشر وحده ،

---

(١) انظر التفسير ص ٤٨٢ ، ٤٨٣ عند تفسير قوله تعالى : « قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق » .

فى حين أن الإنسان مهيأ لكل من الخير والشر . ولذا فمتى اتجه نحو الخير ، ثم ترقى فى مدارجه « شارف أفق الملأ الأعلى ، وأوشك أن يكون خيراً محضاً ، لولا أن العصمة لم تكتب إلا لطائفة منه ، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . . . ومن هذا الجنس كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم أكمل الخلق الذى ليس لمخلوق رتبة مثله فى الكمال »[1] .

ولما كان الإنسان مهيأ لقابلية الخير والشر كان من رحمة الله أن زوده بالعقل حتى يميز بين هذين الأمرين ، وليوازن بين خير الخيرين وشر الشرين . « فإن الخير درجات وأنواع ، والشر كذلك دركات وأنواع »[2] . غير أنه لا يستطيع أن يستقل بنفسه فى معرفة جميع الفروق بين صنوف الخير والشر فى هذه الحياة التى تتلاطم به أمواجها ، وتتشابك حوادثها ومفاجآتها . لذلك فهو « يحتاج إلى معونة إلهية فى تمييز الخير والشر . وقد أمده الله بهذه المعونة من دينه الحق ، ويحتاج إلى تأييد إلهى يعصمه من الشر ويقيه من الوقوع فيه عن جهالة أو عمد[3] .

وقد يتساءل المرء فيقول : ولماذا يوجد الشر ، وكان من الممكن ألا يوجد . وتلك هى حجة الملحدين فى كل عصر . وهى الحجة التى أبرزها « ڤولتير » فى القرن الثامن عشر ، فكان بسببها باعث موجة الإلحاد فى أوربا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وهى تلك الحجة التى اعتمد عليها بعض علماء الكلام عندنا مسوقين إليها ، فيما نعتقد ، بمهاترات الجدل ، والشغف بالعناد ، لكى يبرهنوا للناس أنه لا وجود للخير والشر فى ذاتهما ، بل يوجدان حسب المشيئة الإلهية المطلقة التى لا تعلل أفعالها ، إذ من الممكن أن ينقلب الخير شرًّا ، والعكس بالعكس . غير أن هذه الحجة ، التى كانت وليدة المهاترة ، أدت إلى تدهور العالم الإسلامى إلى جانب أسباب عديدة أخرى .

وقد عرض الإمام بن باديس شبهة أثارها بعض علماء الكلام الذين أنكروا الخير والشر الذاتيين ، وقالوا إذا كانت أفعال الله لا تعلل بغاية أو قصد ، فكيف أمكن أن يوجد الشر « فإنا نجد من عباد الله المؤمنين من يصيبه البلاء والشدة ،

---

(١) نفس المصدر ص ٥٠٠ . (٢) نفس المصدر ص ٤٧٥ — ٤٧٦ .
(٣) نفس المصدر ص ٤٧٥ — ٤٧٦ .

فيعذب أو يقتل ، وكأين من نبي قتل ، وقد أصاب المؤمنين يوم أحد ويوم حنين ما أصابوهم[(١)] ؟ وهذا الاعتراض شبيه باعتراض سبق أن أثاره جماعة من علماء الكلام فقالوا : إذا كان هناك شر وخير ذاتيان « فأى صلاح فى خلق إبليس والشياطين وإعطائهم القوة على إضلال الناس ؟ ثم وجدناه تعالى أمات سريعاً من ولى أمور المسلمين بالحق والخير ، وولى عليهم زياداً والحجاج وبغاة الخوارج » إذن فأفعاله لا تعلل بحكمة أو غرض . ولو أن هؤلاء تعمقوا قليلا فى دراسة طبيعة الشر ودوره فى العالم لاهتدوا ، مثل خصومهم : إلى القول بأن خفاء الحكمة ليس دليلا على عدم وجودها ؟

نقول إن بن باديس عرض شبهة هؤلاء ، التى تتلخص فى التساؤل عن السبب فى وجود الشر فى العالم ، ثم وجد لها حلا : سنجده عند الماتريدى وابن رشد وهما فى رأينا سلفيان مثله فى هذه المسألة . أما جوابه فهو : إن « دفع الله يكون بأسباب وأنواع ، وعلى وجوه تختلف بسبب الحكمة ، ولا تخلو كلها من دفاع ، فإن ما يصيب المؤمنين فى أفرادهم وجماعاتهم هو ابتلاء يكسبهم القوة والجلد ، ويقوى فيهم الصبر والثبات ، وينبههم إلى مواطن الضعف فيهم ، أو ناحية التقصير منهم ، فيتداركون أمرهم بالإصلاح والمتاب . فإذا هم بعد ذلك الابتلاء أصلب عودا وأطهر قلوباً ، وأكثر خبرة وأمنع جانباً . وإن فى صبر الصابر منهم ، وقد نزل به البلاء الذى لا يقدر على دفعه ، والظلم الذى لا يقدر على إزالته : لبعثاً للقوة فى نفس غيره ممن يأنس به ، وضعفاً فى قلب ظالمه ، وفى كليهما دفع من الله للمؤمنين »[(٢)] .

وجميل لدينا أن تسيطر على هذا الجواب روح التفاؤل الإسلامية التى عرفناها دائماً عند المسلمين ، رغم الكوارث التى نزلت بهم فى مختلف عصورهم ، وعند عبد الحميد بن باديس الذى كأنه يريد أن يتأسى به مواطنوه فى صبره وتفاؤله إعداداً ليوم عظيم . ذلك أن هذا النوع من التفاؤل يدفع إلى العمل ، فى حين أن التشاؤم يقود إلى القنوط من رحمة الله وحكمته ، ويدفع الأمة إلى الانحلال ،

---

(١) نفس المصدر ص ٤٥٣ .

(٢) التفسير ص ٤٥٣ فى تفسير قوله تعالى : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور » سورة الحج آية ٣٨ .

وربما فسر لنا هذا ما رأيناه من تحلل الدولة العباسية فى أوائل القرن الرابع الهجرى، عندما تشكك الناس فى معايير الحسن والقبيح ، والخير والشر ، وخفيت عليهم حكمة الله فى وجود الشر فى العالم .

حقاً إن « ڤولتير » يسخر سخرية لاذعة عابثة من نظرية التفاؤل التى عرضها « ليبنتز » فى رسالته عن العدل الإلهى ، نقلا عن فلسفة المسلمين التى سرت إلى فلسفة المدرسيين من الأوربيين فى العصور الوسطى . وإن قصة « كانديد » التى ألفها « ڤولتير » للسخرية من بعض القيم الدينية لتنضبح بالتهكم البالغ من هؤلاء المتفائلين رغم نزول جميع أنواع الكوارث بهم . ومع هذا ، فإن « ڤولتير » لم يستطع إلا أن يختم قصته بنوع من التفاؤل ، لكنه تفاؤل الرجل الأنانى الذى لا يضره أن يهلك الناس ويحيا هو ، فهو تفاؤل الفردية الانعزالية الذى يتلقاه « كانديد » على لسان بعض شيوخ الأتراك الذين نصحوه ألا يحاول إصلاح حال البشر ؛ بل عليه أن يكتفى بإصلاح نفسه ، بأن يهتم بأموره الخاصة وبأن يفلح حديقته ، فى حين أن التفاؤل الإسلامى الحقيقى هو السمة الغالبة التى دفعت جميع المصلحين والأبطال عندنا إلى بث روح الأمل فى نفوس مواطنيهم، والأخذ بيدهم جميعاً لتجديد شباب هذه الأمة .

ويتساءل الإمام بن باديس آخر الأمر ، فيقول : إذا كان الشر يوجد لحكمة الابتلاء وما يتبعه من صبر ، ثم عمل ، فهل يكلف الله عباده بالشر ؟ وجوابه هنا هو أن الشر إذا وجد فلحكمة ، فالله لا يرضى بالشر ولا يكلف به ، وقصارى إبليس أن يزين الشر ويلبسه بالخير . « فالشر بيد الله خلقة وحكمة ، لا رضاً وتكليفاً ، والخير بيد الله خلقة وحكمة ونعمة وأمراً » ، وهذا جواب من جوامع الكلم .

٨ — الشر والخير فى نظر الماتريدى وابن رشد :

ومن الأمانة فى البحث أيضاً أن نقرر أن أبا منصور الماتريدى استطاع أن يخرج من حومة الجدل التى فرقت بين علماء الكلام لكى يلحق برأى السلف الذى يطابق الكتاب والسنة ويطابق العقل فى آن واحد . فالماتريدى يقول بوجود

الخير والشر الذاتيين ، ويرى أن صلاح العالم يقتضى بالضرورة وجود الشر فيه إلى جانب الخير . فالله يريد خلق الشر لا لذاته ، ولكن لما يترتب عليه من خير . فالله لا يأمر بالشر ولا يريده لذاته كذلك يعترف من جانب آخر أن العبد له قدرة وتمييز : فهو يعلم الشر ، وقد يقع فيه عامداً . ولذا يكون أهلا للعقاب ، وقد يقع فيه عن جهل . والكفر أحد الشرور ، والله لا يرضى لعباده الكفر : كما أن الله لا يخلف وعده . فهؤلاء الذين سلكوا طريق الخير هم الذين عرفوه بعقولهم أووضحه لهم الدين ، عندما تدقّ الفروق بين الخير والشر . ولا يتخلف ما وعد الله به عباده الصالحين . أما القول بعقاب المؤمن بحجة المشيئة المطلقة فأمر لايتصوره العقل والشرع ، لأن الظلم شر ، وهناك كثير من الآيات التى تنفى الظلم عنه سبحانه كقوله تعالى: «وما ربك بظلام للعبيد »، أما العفو عن العصاة بمقتضى علمه الأزلى ، فلا يستقبح فى العقل ولا فى الشرع ،إذنمن الجائزأن يشمل الله بعفوه من أراد . ويكون ذلك منه فضلا ورحمة .

أما ابن رشد فإنه يصف هؤلاء الذين ينكرون وجود الخير والشر الذاتيين ويجوزون عقاب المؤمن وإثابة العاصى ، احتجاجاً بقدرة الله المطلقة، وبأنه لايخضع لشريعة، بأنه رأى غريب فى الشرع والعقل معاً ، بل هو غاية فى الشناعة التى لايقرها دين ولا منطق . فكيف لهؤلاء أن يقولوا بأنه لا وجود لأشياء هى خير أو شر فى ذاتها ؟ ولو كان قولهم صحيحا، وكان الشرع هو الذى يخلع على الأشياء صفات ليست فيها لجاز ألا يكون الشرك شرًّا وجوراً فى ذاته ، وإنما يوصف بهذين الوصفين بسبب تحريم الشرع له ، بحيث لو فرضنا جدلا أن الشرع جاء ينادى بالشرك بالله لانقلبت طبيعته مباشرة ، وأصبح خيراً وعدلا ، وماذا يقول هؤلاء فى تأويل الآيات الصريحة التى جاء بها القرآن الكريم ، والتى يصف الله فيها نفسه بالعدل ؟ فمن هذه الآيات : « من عمل صالحـًا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » ، وقوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمـًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » ، وقوله عز وجل : « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » ، وقوله « ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » ، وقوله : « إن الله لا يظلم مثقال

ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » .

حقاً إن هناك آيات أخرى تشهد فى صالح الرأى المضاد الذى يقول بأن أفعال الله سبحانه لا توصف بأنها ظلم أو عدل ؛ لأن الله ليس مكلفاً بشرع يحدد له الخير والشر بل له الملك يتصرف فيه كما يشاء دون أن يوصف بالظلم . غير أن هذا الاعتراض مردود عليه لدى ابن رشد سلفاً بأن الله لا يحب الظلم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وإذا كان لا يرضى لهم الكفر وجب الاعتراف بضرورة تأويل مثل هذه الآيات التى توهم نسبة الظلم والإضلال إليه . بأن يقال : إن الله علم ميلهم إلى الضلال فأضلهم ، أو علم ميلهم إلى الهدى فهداهم . ومن قبل رأينا أن بن باديس أشار إلى حل شبيه بذلك عند ما ذكر لنا مثال الأب مع ولديه اللذين علم أن أحدهما سيمتثل ، والآخر سيخالف . فالله أخذ الميثاق على خلقه . فمنهم من وفى بعهده ومنهم من أخلف . ثم نجد ابن رشد يهاجم من يقولون بجواز أن يفعل الله ما لا يرضاه ، أويأمر بما لا يريده ويقول : فنعوذ بالله من هذا الاعتقاد فى الله سبحانه . . . وقد يدلك على أن الناس لم يضلوا ولا خلقوا للضلال ، قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها » ، وقوله : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم » الآية . وقول النبى صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة . . » الحديث .

وتأويل الآيات التى توهم أن الله يأمر بالشر أو يريده لعباده ليس مخالفاً للشرع والعقل ، فهذه الآيات لا تدل على أن الله يريد الشر لبعض عباده بل معناه أنه تعالى خلق الناس وفيهم استعداد لكل من الخير والشر . فقد اقتضت حكمته أن بعض هؤلاء سوف يتجه إلى الشر . « فإن قيل فما الحاجة إلى خلق صنف من المخلوقات يكونون بطباعهم مهيئين للضلال وهذا هو غاية الجور ، قيل إن الحكمة الإلهية اقتضت ذلك ، وإن الجور كان يكون فى غير ذلك ، وذلك أن الطبيعة التى منها خلق الإنسان والتركيب الذى ركب عليه ، اقتضى أن يكون بعض الناس ، وهو الأقل ، أشراراً بطباعهم ، وكذلك الأسباب المترتبة من خارج لهداية الناس لحقها أن تكون لبعض الناس مضلة ، وأن تكون لأكثر الناس مرشدة ، فلم يكن بد بحسب ما تقتضيه الحكمة من أحد أمرين : إما ألا يخلق الأنواع التى

وجد فيها الشر فى الأقل ، والخير فى الأكثر ، فيعدم الخير الأكثر بسبب الشر الأقل ، وإما أن يخلق هذه الأنواع فيوجد فيها الخير الأكثر مع الشر الأقل ، ومعلوم بنفسه أن وجود الخير الأكثر مع الشر الأقل أفضل من إعدام الخير الأكثر . . . وهذا السر من الحكمة هو الذى خفى على الملائكة حين قال الله سبحانه، حكاية عنهم حين أخبرهم أنه جاعل فى الأرض خليفة يعنى آدم : « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك . . إلى قوله « إنى أعلم ما لا تعلمون »، يريد أن العلم الذى خفى عليهم هو أنه إذا كان وجود شىء من الموجودات خيراً وشرًّا ، وكان الخير أغلب عليه ، أن الحكمة تقتضى إيجاده لا إعدامه » .

وقد حرصنا على إيراد هذا النص الطويل حتى يستطيع من يشاء أن يقارن هنا بين رأى كل من بن باديس وابن رشد — ومن قبل سبقهما الماتريدى إلى ذلك ، وهم جميعاً فى رأيى على مذهب السلف فى هذه المسألة أيضا .

وقد أجاب ابن رشد على اعتراض يمكن توجيهه وهو : ما الحكمة فى ورود هذه الآيات المتعارضة فى القرآن ، حتى يجب التأويل ، مع أنك تمنع التأويل ؟ فقال إن التأويل فى هذه المسألة واجب ، لأن الناس فى حاجة إلى معرفة أن الله هو الذى يخلق كلا من الخير والشر ، حتى لا ينزلق العامة إلى اعتقاد أن هناك إلهاً للخير وآخر للشر . ولما كان الإضلال شرًّا ، وكان لا خالق له سواه وجب أن ينسب إليه ، كما ينسب إليه خلق الشر، لكن ليس ينبغى أن يفهم على هذا الإطلاق، بل على أنه خالق للخير لذات الخير، وخالق للشر من أجل الخير أعنى من أجل ما يقترن به من الخير ، فيكون على هذا خلقه للشر عدلا منه ، ثم ضرب لنا مثالا بالنار التى خلقت لضرورتها فى نظام الكون ، والتى قد تؤدى إلى الإضرار ببعض الموجودات ، لكن ما ينجم عنها من شر لا يعادل ما يترتب عليها من خير . ومن قبل ضرب لنا بن باديس مثال المال[1] .

وإذا كان الله يخلق الشر القليل إلى جانب الخير الكثير لصلاح العالم ، فالله لا يرضى لعباده الشر كالكفر مثلا ، بل خلق لهم قدرة تصلح للضدين . ولذا فهم مسئولون عما يختارون . وهذا هو ما يؤكده العقل، ويتفق مع الدين ، وإلا لما كان للثواب والعقاب معنى ، ولكان الإنسان مجبوراً على أفعاله من إيمان أو كفر ، ثم يثاب

(١) ص ١١١ .

أو يعاقب على شيء لم يرده لنفسه .

وهكذا نلاحظ أن رأى كل من الماتريدى وابن رشد وبن باديس يتفق مع عدل الله وحكمته ، ومع ما يوجبه العقل والحس معاً من إثبات حرية الإنسان واختياره . وهكذا نستطيع أن نفهم لماذا قلنا إن عبارة بن باديس تعد من جوامع الكلم ، عندما قال يلخص هذا الموقف السلفى أو الإسلامى الصحيح الذى يثبت فى آن واحد قدرة الله وحكمته وعدله من جانب ، ويؤكد من جانب آخر كرامة الإنسان عندما وهبه الله العقل وحرية الاختيار والقدرة على اختيار أحد الضدين ، وجعل فى ضلال بعضهم صلاحاً لنظام العالم . وهذه العبارة هى قوله :

« فالشر بيد الله خلقةً وحكمة ، لا رضاً وتكليفاً ، والخير بيد الله خلقة وحكمة ونعمة وأمراً » .

ويبقى أن نقرر أن هذا الحل الذى اهتدى إليه هؤلاء الأئمة الثلاثة يعد أفضل حل للنزاع الذى فرق بين علماء الكلام فى مشكلة القضاء والقدر . فقد انقسم هؤلاء المتكلمون إلى فريقين رئيسيين : رأى أحدهما أن أفعال الله لا توصف بأنها عدل أو جور ظنًّا منهم أنهم يتجنبون بذلك السؤال الشائك وهو : هل يخلق الله الخير كما يخلق الشر ، فيوجد كل منهما وجوداً ذاتيًّا ؟ أى أن هذا الفريق لم يجرؤ على مجابهة مشكلة خلق الشر الذاتى فى العالم . أما الفريق الآخر الذى نسب العدل إلى الله سبحانه ، على نحو ما تنسب هذه الصفة إلى الإنسان فقد ماثل بين الخالق والمخلوق . ولو كان حقًّا ما قاله الفريق الأول لكان معنى ذلك أنه ليس ثمة شيء فى العالم يمكن أن يوصف بأنه خير أو شر فى ذاته ، ولو صح ما قاله الفريق الثانى لوجب أن ننكر البداهة نفسها ، وهى أن هذا العالم لا يخلو من شرور . وقد استطاع كل من الماتريدى وابن رشد وبن باديس أن يجابهوا مشكلة خلق الشر ، فقالوا: لا خالق له إلا الله ، ولكن يخلقه لحكمة ، وهو أن وجود الشر الأقل إلى جانب الخير الأكثر هو لصلاح العالم ، وهو سر الحكمة التى خفيت على الملائكة عندما سألوا الله سبحانه وتعالى : كيف يخلق من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء . . ؟

ونلاحظ أن هذا الحل الإسلامى الذى يتفق مع القيم الإسلامية قد انتقل إلى فلسفة توماس الأكوينى الذى يزعم المسيحيون أنه قهر الفكر الإسلامى، ممثلا فى فلسفة ابن رشد الدينية . وتلك هى إحدى الأساطير التى يحكيها الغرب حول تفكيرنا الإسلامى . ذلك أن توماس الأكوينى انتهى أخيرًا إلى قبول هذا الحل الذى اهتدى إليه ابن رشد ، والذى يتفق مع تقديس الله وتنزيهه عن كل نقص ، فارتضاه لنفسه بعد أن عجز عن العثور على رأى اسلامى آخر يفضله لدى الفلاسفة أو المتكلمين . لذلك نراه يحتج ، مثل ابن رشد ، احتجاجاً عنيفاً ضد هؤلاء الذين يقولون إن الله لا يخلق الشر ، ويتهمهم على غرار ما فعل فيلسوفنا ، بأنهم يتجهون إلى التسليم بوجود إلهين أحدهما يعد مبدأ للخير ، فى حين يعتبر الآخر مبدأ للشر . كذلك نلمح لديه نوعاً من التفاؤل الذى نراه لدى أبى الوليد بن رشد ، فهو يتبعه خطوة بخطوة ، ويشرح مثله، تماماً وبنفس الأمثلة ، كيف أن نظام العالم واتساقه يتطلبان وجود شر قليل إلى جانب خير كثير، فهو يقول مثلا : لكن نظام العالم يقتضى . . . أن تكون بعض الأشياء ناقصة ،وإذن فالله سبحانه سبب (يخلق) الفساد والنقص فى جميع الأشياء ، ولكن ذلك كنتيجة ؛ لأنه يريد به الخير والنظام للكون ، وكما لو كان ذلك بصفة عارضة[1] » .

---

(١) انظر كتابنا « ابن رشد وفلسفته الدينية » ص ١٠٤ .

الفصل السادس

نصوص من تفسير الإمام عبد الحميد بن باديس ومن كتاباته وخطبه

١ — النص الأول (١)

لقد وصف الشيخ محمد البشير الإبراهيمى أثر تفسير الإمام عبد الحميد بن باديس فى بعث الجزائر المعاصرة فقال :

« وكما أتى القرآن لأول نزوله بالعجائب والمعجزات فى إصلاح البشر فإنه حقيق بأن يأتى بتلك المعجزات فى كل زمان ، إذا وجد ذلك الطراز العالى من العقول التى فهمته ، وذلك النمط السامى من الهمم التى نشرته وعممته ، فإن القرآن لا يأتى بمعجزاته ، ولا يؤتى آثاره فى إصلاح النفوس إلا إذا تولته بالفهم عقول كعقول السلف ، وتولته بالتطبيق العملى نفوس سامية وهمم بعيدة ، كنفوسهم وهممهم . أما انتشاره بين المسلمين بهذه الصورة الجافة من الحفظ المجرد ، وبهذا النمط السخيف من الفهم السطحى ، وبهذا الأسلوب التقليدى من التفسير اللفظى — فإنه لا يفيدهم شيئاً ، ولا يفيد بهم شيئاً . بل يزيدهم بعداً عن هدايته ؛ ويزيد أعداءهم استخفافاً بهم ، وإمعاناً فى التكالب عليهم : والتحكم فى رقابهم وأوطانهم .

* * *

هكذا فعل القدماء والمحدثون بالقرآن ، حكموا فيه نحلهم ومذاهبهم وصناعاتهم الغالبة عليهم ، فأضاعوا هديه وبلاغه ، وأبعدوا الأمة عنه ، وصرفوها عن حكمه وأسراره . ولو ذهبنا مذهب التحديد فى معا ً الألفاظ الاصطلاحية لوجدنا المفسر من هؤلاء قليلا . .

* * *

ثم كانت المعجزة بعد ذلك الإرهاص بظهور إمام المفسرين بلا منازع « محمد عبده » أبلغ من تكلم فى التفسير بياناً لهديه ، وفهماً لأسراره ، وتوفيقاً بين آيات

(١) تفسير بن باديس — نشرته دار الكتاب الجزائرى سنة ١٩٦٤ ص ٢٨ — ٣٢ .

الله فى القرآن ، وبين آياته فى الأكوان . فبوجود هذا الإمام وجد علم التفسير وتم ، ولم ينقصه إلا أنه لم يكتبه بقلمه كما بينه بلسانه ، ولو فعل لأبقى للمسلمين تفسيراً ، لا للقرآن ، بل لمعجزات القرآن .

ولكنه مات دون ذلك فخلفه ترجمان أفكاره ومستودع أسراره « محمد رشيد رضا» فكتب فى التفسير ما كتب ، ودون آراء الإمام فيه . وشرع للعلماء منهاجه . ومات قبل أن يتمه .

فانتهت إمامة التفسير بعده فى العالم الإسلامى كله إلى أخينا وصديقنا ومنشئ النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر ، بل بالشمال الإفريقى : عبد الحميد بن باديس .

وفيما يلى بعض نصوص من تفسير الإمام عبد الحميد بن باديس :

* * *

٢ — النص الثانى

تلاوة القرآن[١]

قد كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم لا يخلى ليله ونهاره من تلاوة القرآن وكان — كما قال القرطبى — : يختمه فى سبع . وهكذا قال لعبد الله بن عمر رضى الله عنه : « واقرأ فى كل سبع ليال مرة » . وقد كان قال له أولا : « واقرأ القرآن فى كل شهر » . فلما قال له : إنه يطيق أكثر من ذلك نقله إلى العشرين وإلى الخمسة عشر ، وإلى العشرة ، وانتهى به إلى السبع فى قول الأكثر . وكان هذا فعل الأكثرين من السلف .

* * *

ولا شك أن أحوال حملة القرآن تختلف فى التفرغ للتلاوة والاشتغال بغيرها ، وأحوال الشخص الواحد فى نفسه تختلف كذلك ، فيرتب حامل القرآن حزبه من الشهر إلى السبع على حسب حاله . فإذا لم يكن من حملة القرآن فلا يخلى ليله ونهاره من تلاوة شىء مما معه حسب استطاعته ، ولا يكون من الغافلين .

* * *

(١) نفس المصدر ص ٤٥ — ٤٨ .

زعم قوم : أن الصلاة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم خير لعامة الناس من تلاوة القرآن ، قالوا : لأن الصلاة ثوابها محقق ، ولا يلحق فاعلها إثم، والقرآن إذا تلاه العاصى كانت تلاوته عليه إثماً لمخالفته لما يتلوه . واستدلوا على هذا بقول أنس رضى الله عنه الذى تحسبه العامة حديثاً : « رب تال للقرآن والقرآن يلعنه » فأدى هذا بمعتقديه إلى ترك قراءة القرآن أو التقليل منها . فليحذر من هذا الرأى ، ومما أدى إليه .

للصلاة منزلتها وفضلها ، وللقرآن فضله ومنزلته، فليأت الذاكر من الصلاة ومن غيرها من أبواب الذكر بما لا يؤدى إلى ترك أو تقليل تلاوة القرآن الذى هو أفضل الأذكار .

وهذا الرأى المتقدم فى تفضيل الصلاة على التلاوة مخالف تمام المخالفة لما نقلناه فى : « نتيجة الاستدلال » ، عن أئمة السلف والخلف : من أن قراءة القرآن أفضل من جميع الأذكار ، ولم يفرقوا فى ذلك بين عامة وخاصة . ومخالف كذلك لمقاصد الشرع من تلاوة القرآن ، وذلك من وجوه :

وجوه المخالفة :

الوجه الأول :

أن المذنبين مرضى القلوب : فإن القلب هو المضغة التى إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، فكل معصية يأتى بها الجسد هى من فساد فى القلب ، ومرض به ، وإن الله تعالى قد جعل دواء أمراض القلب تلاوة القرآن فقال : « يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » . « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » . فمقصود الشرع من المذنبين أن يتلوه ويتدبروه ويستشفوا به ، بألفاظه ومعانيه . وذلك الرأى يصرف المذنبين عن تلاوته .

الوجه الثانى :

أن القلوب تعتريها الغفلة والقسوة ، والشكوك والأوهام والجهالات ، وقد تتراكم عليها هذه الأدران كما تتراكم الأوساخ على المرآة فتطمسها وتبطل منفعتها...

فهى محتاجة دائماً وأبداً إلى صقل وتنظيف بتلاوة القرآن . وقد أرشد النبى صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا — فيما رواه البيهقى فى الشعب والقرطبى فى التذكار : « إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد . قالوا : يا رسول الله فما جلاؤها ؟ قال : تلاوة القرآن » . فمقصود الشارع من المذنبين أن يتلوا القرآن لجلاء قلوبهم ، وذلك الرأى يصرفهم عنه .

الوجه الثالث :

أن الوعيد والترهيب قد ثبتا فى نسيان القرآن بعد تعلمه، وذهابه من الصدور بعد حفظه فيها : فروى أبو داود عن سعد : « ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقى الله أجذم » . وروى الشيخان عن عبد الله : « استذكروا القرآن فإنه أشد تفصياً من صدور الرجال من النعم » ، فمقصود الشرع دوام التلاوة لدوام الحفظ ، ودفع النسيان . وذلك الرأى أدى إلى تقليلها أو تركها الموقع فى النسيان .

* * *

وأما قولهم : « إن تالى القرآن يأثم بقراءته مع مخالفته » . فهى دعوى لم يقيموا عليها من نص صحيح صريح من سنة أو كتاب . بل الدليل قائم على خلافها . فإن المذنب يكتب عليه ذنبه مرة واحدة ، ولا يكتب عليه مرة ثانية إذا ارتكب ذنباً آخر ، وإنما يكتب عليه ذلك الذنب الآخر ، فكيف إذا باشر عبادة التلاوة ؟؟! والأصل القطعى — كتاباً وسنة — أن من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، وهو يبطل أن تجدد له سيئاته إذا جاء بحسنة تلاوة القرآن .

وأما عن قول أنس رضى الله عنه : « رب تال للقرآن والقرآن يلعنه » ، فليس معناه أن القرآن يلعنه لأجل تلاوته . وكيف وتلاوته عبادة ؟ وإنما معناه : أنه ربما تكون له مخالفة لبعض أوامر القرآن أو نواهيه من كذب أو ظلم مثلا ، فيكون داخلاً فى عموم لعنه للظالمين والكاذبين ، فخرج هذا الكلام مخرج التقبيح لمخالفة القرآن مع تلاوته . بعثاً للتالى على سرعة الاتعاظ بآيات القرآن . وتعجيل المتاب . لا مخرج الأمر بترك التلاوة والانصراف عنها . هذا هو الذى يتعين حمل كلام هذا الصحابى الجليل عليه بحكم الأدلة المتقدمة .

* * *

فرتل القرآن ، وتدبر معانيه ، والتزم حدوده ، واضرع إلى الله تعالى أن يرزقك التوبة فيما عندك له من مخالفة ، تكن من الفائزين بإذن رب العالمين .

* * *

٣ — النص الثالث

عموم النوال من الكبير المتعال(١)

« كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورًا . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا »

(الآية ٢١ ، ٢٢ من سورة الإسراء)

تمهيد :

إن هذه الموجودات كلها ، علويها وسفليها مشمولة برحمة الله مغمورة بنعمته . وأول تلك النعم هو وجودها ، وذلك الوجود من مقتضى الرحمة . ثم تتنوع تلك النعم الرحمانية بتنوع أجناس الموجودات وأنواعها وأصنافها وأفرادها ، وتتفاوت أيضًا حسب ذلك . وينال كل حظه منها بتقدير الحكيم العليم .

ومن مظاهر هذه الرحمة العامة أن كل موجود قد أعطى من التكوين ما يناسب وجوده ، وما يتوقف عليه بقاؤه ، أو ارتقاؤه ، سواء أكان من عالم الجماد ، أو عالم النبات ، أو عالم الحيوان .

وقد مضى قبل هذه الآية ذكر مريدى العاجلة الذين لا يعملون إلا لها ، وما أعدّ لهم من عذاب النار ، وذكرُ مريدى الآخرة بأعمالهم فى الدنيا ، وما أعد لهم من حسن الجزاء . فحالتهم فى الآخرة متباينة ، هؤلاء فى النعيم المقيم ، وأولئك فى العذاب الأليم ، هذا فى الآخرة .

وأما فى الدنيا فإنهم قد أعطوا من نعم الحياة ، ومكنوا من أسبابها ، فقد تساووا فى الخلقة البشرية ، وفى العقل المميز المفكر ، وفى الإرادة الحرة ، وقد

---

(١) نفس المصدر ص ٧٥ — ٧٨ .

أظلتهم السماء وأصابتهم نعمة الشمس والقمر والكواكب وما ينزل من السماء . وقد أقلتهم الأرض وشملتهم نعمة الهواء والماء ، والغذاء والدواء ، من النبات والحيوان والجماد ، وكل ما يخرج من الأرض . وشاهدوا كلهم آيات الله الكونية الدالة عليه ، وجاءتهم كلهم رسل الله بآياته السمعية داعية إليه . فاختار كل بعقله — وهو حر فى إرادته ، حرية لا يمكن لأحد أن يكابر فيها — ما اختار لنفسه. وحجة الله بما تقدم قائمة عليه . وبقوا بعد ذلك الاختيار الذى اختلفت به منازلهم عند الله فيما أعدّ لهم يوم لقاه — سواء فى تلك النعم الدنيوية ، والتمكن من أسباب بقائها والتقدم فيها ، لا فرق فى ذلك بين بر وفاجر ، ومؤمن وكافر ، وهذا معنى قوله تعالى : «كلاًّ نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك» .

وليس تعالى مانعاً كافراً لكفره ، أو عاصياً لعصيانه من هذه الحياة وأسبابها ، وليس أحد على منع ما لم يمنعه الله بقادر . وهذا معنى قوله تعالى : «وما كان عطاء ربك محظوراً» . . . .

* * *

وقد أفادت الآية — حسبما تقدم — أن أسباب الحياة والعمران والتقدم فيهما مبذولة للخلق على السواء ، وأن من تمسك بسبب بلغ — بإذن الله — إلى مسببه ، سواء أكان برًّا أم فاجراً ، مؤمناً أم كافراً .

وهذا الذى أفادته الآية الكريمة مشاهد فى تاريخ المسلمين قديماً وحديثاً ، فقد تقدموا حتى سادوا العالم ورفعوا علم المدنية الحقة بالعلوم والصنائع ، لما أخذوا بأسبابها كما يأمرهم دينهم . وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها بإهمال تلك الأسباب ، فخسروا دنياهم ، وخالفوا مرضاة ربهم ، وعوقبوا بما هم عليه اليوم من الذل والانحطاط ، ولن يعود إليهم ما كان لهم إلا إذا عادوا إلى امتثال أمر ربهم فى الأخذ بتلك الأسباب .

فهذه الآية من أنجع الدواء لفتنة المسلم المتأخر بغيره المتقدم ، لما فيها من بيان أن ذلك المسلم ما تأخر بسبب إسلامه ، وأن غيره ما تقدم بعدم اسلامه ، وأن السبب فى التقدم والتأخر هو التمسك والترك للأسباب ، ولو أن المسلم تمسك بها كما يأمره الإسلام ، لكان — مثل سالف أيامه — سيد الأنام .

* * *

٤ — النص الرابع

دعاء غير الله [1]

من دعا غير الله ، فقد عبد ما دعاه وهو فى عبادته من الخاسرين .

« قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذوراً » .

(الآيتان ٥٧ ، ٥٨ من سورة الإسراء)

الأحكام :

تدل الآية على أن دعاء غير الله تعالى لدفع الضر — ومثله جلب النفع — عبادة للمدعو ؛ فإن المشركين كانوا يتعبدون لآلهتهم بهذا الدعاء ، الذى نهاهم الله تعالى عنه ببيان خيبتهم فيه ، ووقوعه فى غير محله . وتسمية الدعاء عبادة ثابتة لغة وشرعاً بغير ما دليل : منها حديث النعمان بن بشير عند أحمد وأصحاب السنن مرفوعا : « الدعاء هو العبادة » . وحديث أنس عند الترمذى مرفوعاً : « الدعاء مخ العبادة » ، وهذا لأن العبادة هى الخضوع والتذلل ، لمن بيده الخلق والتصرف والعطاء والمنع ، ومظهر هذا الخضوع والتذلل هو الدعاء لدفع الضر ، أو جلب النفع . فلذلك عبر عنه فى الحديث الأول بأنه هو العبادة ، أى معظمها ، وفى الثانى بأنه مخ العبادة أى خالصها .

ودلت الآية أيضا على أنه لا يجوز دعاء غير الله من المخلوقين ، أى مخلوق كان ، لدفع ضر — ومثله جلب نفع — لأن الآية نعت على المشركين دعاءهم من لا يملك كشف الضر ولا تحويله ، وهذا أمر يشترك فيه جميع المخلوقين ، فلا مخلوق يستطيع كشف الضر أو تحويله عن نفسه ولا عن غيره . فلا مخلوق يجوز دعاؤه .

ودلت على أن كشف الضر أو تحويله — ومثله جلب النفع — إنما هو للمعبود الحق ، لأن الآية استدلت عليهم فى مقام الأمر بتوحيد الله بالعبادة بانتفاء

---

(١) نفس المصدر ص ١٥٣ — ١٥٨ .

ملك كشف الضر أو تحويله عن غير الله ، فأفاد ذلك قصْرَ هذا التصرف عليه تعالى وحده .

استنتاج :

لما ثبت شرعاً أن الدعاء عبادة — فمن دعا شيئاً فقد عبده، ولوكان هو لا يسمى دعاءه عبادة جهلا منه ، أو عناداً، لأن العبرة بتسمية الشرع واعتباره، لا بتسمية المكلف واعتباره . ألا ترى لو أن شخصاً قام للصلاة بدون وضوء مستحلا لذلك ، فلما أنكرنا عليه قال: انى لا أعتبر هذه الأفعال والأقوال عبادة، ولا أسميها صلاة . أترى ذلك يجيز فعله ، ويدفع عنه تبعته ؟ ؟ كلا ! ! ولا خلاف فى ذلك بين المسلمين . بل قد حكموا بردته إن كان يفعل ذلك ويراه حلالا ، لأنه يكون قد أنكر معلوما من الدين بالضرورة . فالداعى لغير الله تعالى يطلب منه قضاء حوائجه ، قد عبد من دعاه ، وإن لم يعتبر دعاءه عبادة ، لأن الله قد سماه عبادة . وإذا استمر على فعله ذلك مستحلا له بعد تعليمه وإرشاده ، يكون قد أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ، وهو أن العبادة — والدعاء منها — لا تكون إلا لله ، فيحكم بردته ، نظير مستحل الصلاة بلا وضوء ، بلا فارق .

تطبيق :

إذا علمت هذه الأحكام فانظر إلى حالتنا — معشر المسلمين الجزائريين ، وغير الجزائريين — تجد السواد الأعظم من عامتنا غارقاً فى هذا الضلال . فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات ، يسألونهم حوائجهم من دفع الضر ، وجلب النفع ، وتيسير الرزق ، وإعطاء النسل ، وإنزال الغيث ، وغير ذلك مما يسألون، ويذهبون إلى الأضرحة التى شيدت عليها القباب أو ظلّمت بها المساجد فيدعون من فيها ، ويدقون قبورهم وينذرون لهم ويستثيرون حميتهم ، بأنهم خدامهم وأتباعهم ، فكيف يتركونهم؟.. وقد يهددونهم بقطع الزيارة ، وحبس النذور ، وتراهم هنالك فى ذل وخشوع ، وتوجه قد لا يكون فى صلاة من يصلى منهم .
فأعمالهم هذه من دعائهم وتوجههم كلها عبادة لأولئك المدعوين : وإن لم

يعتقدوها عبادة . إذ العبرة باعتبار الشرع ، لا باعتبارهم .

فياحسرتنا على أنفسنا كيف لبسنا الدين لباساً مقلوباً ، حتى أصبحنا فى فى هذه الحالة السيئة من الضلال .

تحذير وإرشاد :

فليحذر قراؤنا من أن يتوجهوا بشىء من دعائهم لغير الله ، وليحذّروا غيرهم منه . ولينشروا هذه الحقائق بين إخوانهم المسلمين ما استطاعوا ، عسى أن يتنبه الغافل، ويتعلم الجاهل، ويقلع الضالون عن ضلالهم، ولو بطريق التدريج . وبذلك يكون قراؤنا قد أدوا أمانة العلم ، وقاموا بفريضة النصح ، وخدموا الإسلام والمسلمين .

* * *

التطبيق :

نعرف كثيراً من الصالحين – رحمهم الله تعالى – قد شيدت عليهم القباب ونذرت لهم النذور ، وقصدوا لقضاء الحاجات ، ودعوا فى المهمات ، وكان ذلك كله مما أحدثه المحدثون بعدهم ، وبالغ فيه المستغلون له ، ممن ينتمون إليهم . فهم – إن شاء الله تعالى – براء من إثم ذلك كله ، وإنما إثمه على فاعليه . . . .

* * *

فحذار يا إخواننا من هذه العاقبة السيئة ، وهذا الموقف المخزى ، فبادروا إلى توحيد الله بالدعاء الذى هو مخ العبادة ، واقتصروا فى جانب الصالحين على محبتهم والترضية عليهم وسؤال الرحمة لهم ، والاقتداء بهم فيما كان منهم من طاعة وخير ، ولا تعظموهم بما لا يكون إلا لله رب العالمين .

* * *

٥ – النص الخامس[1]

ا – الخوف والرجاء
ب – الاعتدال فى الإنفاق

ا – وزعم قوم أن أكمل أحوال العابد أن يعبد الله تعالى لا طمعاً فى جنته ولا خوفاً من ناره، وهذه الآية[2] وغيرها رد قاطع عليهم، ومثلها قول إبراهيم عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين» ، فى نصوص لا تحصى كثرة . وزعموا أن كمال التعظيم لله ينافيه أن تكون العبادة معها خوف من عقابه أو طمع فى ثوابه ، وأخطأوا فيما زعموا؛ فإن العبادة مبناها الخضوع والذل والافتقار ، والشعور بالحاجة والاضطرار . وإظهار العبد هذه العبودية بأتمها . ومن أتم مظهر لها أن يخاف ويطمع كما يذل ويخضع ، فنى إظهار كمال نقص العبودية القيام بحق الإجلال والتعظيم للربوبية ، ولهذا كان الأنبياء عليهم وآلهم الصلاة والسلام ، وهم أشد الخلق تعظيماً لله أكثرهم خوفاً من الله ، وتعوذاً من عذاب الله وسؤالاً لما عند الله، وكفى بهم حجة وقدوة ، وأن هذه المقالة تكاد تفضى إلى طرح الرجاء والخوف ، وعليهما مبنى الأعمال لما فيهما من ظهور العبودية بالذل والاحتياج ، ومن دعاء القنوت الثابت المحفوظ : «وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجد» ، وهذا ضرورى فى الدين .

ولكن مثل هذه المقالة إنما يجر إليها الغلو ، وقلة الفقه فى الدين ، فى الكتاب والسنة ، وما كان عليه هدى السابقين الأولين . . .

* * *

---

(١) نفس المصدر ص ٢٦٧ – ٢٧١ .

(٢) وهى قوله تعالى : «والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً إنها ساءت مستقرا ومقاماً» . (سورة الفرقان آية ٦٥ – ٦٦)

ب — « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتّروا ، وكان بين ذلك قواماً » .

آية ٦٧ من سورة الفرقان

تطبيق :

حالة وطننا فى الأعم الأغلب فى الولائم والمآتم لا تخلو من السرف فيها ، الذى يؤدى إلى التقتير من بعدها فيكون الإثم قد أصاب صاحبها بنوعيه ، وأحاط به من ناحيتيه ، والشر يجر الشر ، والإثم يهدى إلى مثله : وعلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين علّق كثير — ممن سمعناهم يشكون هذه الحالة — آمالهم فى معالجتها ، خصوصاً فى المآتم . حقق الله الآمال .

وثم نوع آخر موجود فى غالب القطر ، ويكثر فى بعض الجبال ، وهو أن بعض المأمورين من بعض شيوخ الطوائف يأتون بثلة من أتباعهم ، فينزلون على المنتمين إليهم من ضعفاء الناس فيذبح لهم العناق إن كانت ، ويستدين لشرائها إن لم تكن ، ويفرغ المزاود ، ويكنس لهم ما فى البيت ، ويصبح معدماً فقيراً مديناً . ويصبح من يومه صبيته يتضاغون ، ويمسى أهل ذلك البيت المسكين يطحنهم البؤس ، ويميتهم الشقاء ميتات متعددة فى اليوم .

وشر ما فى هذا الشر أنه يرتكب باسم الدين ، ويحسبه الجهال أنه قربة لرب العالمين ، فأما إذا جاء وقت شد الرحال إلى الأحياء والأموات ، وتقديم النذور والزيارات ، فحدث هنالك عن أنواع السرف والتكلفات ، والتضييع للحقوق والواجبات .

فياليت الذين تأتيهم تلك الوفود يسألونهم فرداً فرداً عن حالهم . ومن أين بما جاءوهم به من أموالهم ، فعساهم أن يطلعوا على بؤس أولئك المساكين ، فترق لهم قلوبهم . ويرجعوا إليهم مالهم أو يزيدوهم من عندهم . وليقتصروا على من يجدونهم أهل قدرة على ما دفعوه لهم من أموالهم.

فهذه نصيحة إذا عملوا بها خففت من الشر والبؤس عن الزائرين ، ومن الإثم واللوم عن المزورين . فهل بها من عاملين ؟ وفقنا الله والمسلمين .

٦ – النص السادس[1]

الفرار إلى الله

جاء فى تفسير الإمام بن باديس لقوله تعالى :

« والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ، والأرض فرشناها فنعم الماهدون ، ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله إنّى لكم منه نذير مبين ، ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنى لكم منه نذير مبين » :

هذا العالم بسمائه وأرضه وأزواجه هو فتنة للإنسان بما فيه من لذائذ ومن جمال ، وما فيه من سلطان . وقد ركبت فى الإنسان شهواته وأهواؤه ، وسلط عليه الشيطان يغريه ويزين له . فكل هذا العالم ، إذا ذهب فيه الإنسان مع أهوائه وشهواته تحت إغراء الشيطان وتزيينه ، فإنه ينحط إلى أسفل سافلين ، ويصير عبداً لأهوائه وشهواته وشيطانه ، ولكل ما فتنه من العالم وذهب بلبه . وقد ينتهى به ذلك إلى عبادته من دون خالقه . فالعالم بهذا الاعتبار شر وبلاء وهلاك يجب الفرار والهرب منه : ولا يكون هذا الفرار منه إلا إلى خالقه بالإيمان به ، والتصديق لرسله ، والدخول تحت شرعه . فبذلك يعرف الإنسان كيف يجعل حدّاً لأهوائه وشهواته ، وكيف يضبطها بنطاق الشرع وزمامه ، وكيف يدفع عنه كيد شيطانه ، وكيف يتناول سماء العالم وأرضه وأزواجه بيد الشرع ، فيعرف ما فيها من نعمة وحكمة ، فيستغلها بهداية الشرع ، مفرقاً – علمياً وعملياً – بين منافعها ومضارها ، فيعظم بها انتفاعه ، ويزداد فيها اطلاعه واكتشافه ، فتتضاعف عليه منها الخيرات والبركات ، ويزداد علمه وعرفانه ، ويقوى يقينه وإيمانه ، ويعظم لله بره وشكرانه . فيكون له ذلك العالم جنة الدنيا وقنطرة لجنة الأخرى ، ويفوز من الدارين بالمبتغى . كل هذا بفراره من المخلوقات إلى خالقها ، فسلم من شرها ، وفاز بخيرها ، فمن هرب من المخلوقات إلى خالقها نجا . ومن فر من الخالق إلى شىء من مخلوقاته كان من الهالكين .

إرشاد وتعميم : كل ما يصيب الإنسان من محن الدنيا ومصائبها وأمراضها وخصوماتها ومن جمع بلائها لا ينجيه من شىء منه إلا فراره إلى الله ، ففى العدالة

---

(١) مجلة الشهاب الجزء الأول من المجلد الخامس عشر فبراير ١٩٣٩ ص : ٧ ، ٨ ، ٩ .

الشرعية ما يقطع كل نزاع ، وفى المواعظ الدينية ما يهون كل مصاب ، وفى الهداية القرآنية والسيرة النبوية ما ينير كل سبيل من سبل النجاة والسعادة فى الحياة . يعرف ذلك الفقهاء القرآنيون السنيون . واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون .

تنبيه على وهم : ليس الفرار من الأمراض بمعالجتها ، ومن المصائب بمقاومتها فراراً من الله ، لأن الأمراض هو قدّرها ، والأدوية هو وضعها ، ودعا إلى استعمالها والتعالج بها ، وكذلك المصائب وما شرع من أسباب مقاومتها . فكلها منه بقدره ، والإنسان مأمور منه بأن يعالج ويقاوم ، فما فر من قدره إلا إلى قدره . ولهذا لما قال أبوعبيدة لعمر رضى الله عنهما فى قصة الوباء: أفراراً من قدر الله يا عمر؟، فقال عمر : « نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله » وفى الحقيقة كان الفرار من شر فى مخلوق إلى الله يرجو منه الخير فى غيره .

تحذير من جهالة : ليس المقصود بالفرار من الدنيا ترك السعى والعمل، وتعاطى الأسباب المشروعة ، لتحصيل القوت و رغد العيش ، وتوسيع العمران وتشييد المدنية ، بل المقصود الفرار من شرورها وفتنتها . وتناول ذلك كله على الوجه المشروع هو من الفرار إليه ، والدخول تحت شرعه ، كما قدمناه . وقد ضل قوم ، فزعموا ذلك طاعة وعبادة ، فعطلوا الأسباب وخالفوا الشريعة ، وحادوا عما ثبت من السنة . وفيهم سئل إمام الحديث والسنة أحمد بن حنبل رحمه الله، سئل عن القائل: أجلس لا أعمل شيئاً حتى يأتينى رزقى فقال: « هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله جعل رزقى تحت ظل رمحى ، وقوله تغدو خماصاً وتروح بطاناً ؟ وكان الصحابة يتجرون فى البر والبحر ، ويعملون فى نخيلهم وبهم القدوة » .

تطبيق : إذا رأينا طائفتين من المؤمنين تنازعتا ، فأما إحداهما فالتجأت إلى السلطان تستغيثه وتستعين به وتحطب فى حبله ، فأغاثها وانتقم لها وأمدها وقربها وأدناها . وأما الأخرى فلم تستغث إلا بالله ، ولم تستنصر إلا به ، ولم تعتمد إلا عليه ولم تعمل إلا فيما يرضيه من نشر هداية الإسلام وما فيها من خير عام لجميع الأنام ، وتحملت فى سبيل ذلك كل ما تسببت لها فيه الطائفة الأخرى ومن تولته وهربت إليه . — إذا رأينا هاتين الطائفتين عرفنا منهما — يقيناً — الفارة من الله والفارة إليه ، فكنا — إن كنا مؤمنين — مع من فر إلى الله » .

** وفيما يلى نصوص أخرى من كتابات بن باديس فى السياسة والدين والاجتماع .

٧ — النص السابع

الوطن والوطنية

الحق فوق كل أحد ، والوطن قبل كل شيء[١]

بهاتين الجملتين منذ نيف وعشر سنين توّجنا جريدة « المنتقد » الشهيدة ، وجعلناهما شعاراً لها تحمله فى رأس كل عدد منها .

هذا أيام كانت كلمة الوطن والوطنية كلمة إجرامية ، لا يستطيع أحد أن ينطق بها ، وقليل جداً من يشعر بمعناها ، وإن كان ذلك المعنى دفيناً فى كوامن النفوس ككل غريزة من غرائزها ، لا سيما فى أمة تنتسب فى العروبة ، وتدين بالإسلام مثل الأمة الجزائرية ذات التاريخ المجيد .

أما اليوم ، وقد صارت كلمة الوطن والوطنية سهلة على كل لسان ، وقد يقولها قوم ولا يفقهون معناها ، وقد يقولها آخرون بألسنتهم ولا يستطيعون أن يتسموا بها فى المكتوب من رسمياتهم ، ويفزع منها من يتخيلون فيها ما يعرفون من وطنياتهم ، وينكرها آخرون زعماً منهم أنها ضد إنسانيتهم وعمومياتهم . فكان حقاً لقراء « الشهاب » علينا أن نقول لهم كلمة مختصرة نبين بها حقيقة هذه الكلمة وأقسامها وأقسام الناس إزاءها ، ومن أى قسم نحن من تلك الأقسام .

من نواميس الخلقة حب الذات للمحافظة على البقاء ، وفى البقاء عمارة الكون . فكل ما تشعر النفس بالحاجة إليه فى بقائها فهو حبيب إليها . فالإنسان من طفولته يحب بيته ، وأهل بيته ، لما يرى من حاجته إليهم ، واستمداد بقائه منهم ، وما البيت إلا الوطن الصغير .

فإذا تقدم شيئاً فى سنه اتسع أفق حبه ، وأخذت تتسع بقدر ذلك دائرة وطنه . فإذا دخل ميدان الحياة ، وعرف الذين يماثلونه فى ماضيه وحاضره وما ينظر إليه من مستقبله ، ووجد فيهم صورته بلسانه ووجدانه وأخلاقه ونوازعه ومنازعه —

---

(١) مجلة الشهاب الجزء السابع ، المجلد الثالث عشر ، رجب ١٣٥٦ هـ ، سبتمبر سنة ١٩٣٧ ص ٣٠٤ — ٣٠٧ .

شعر نحوهم من الحب بمثل ما كان يشعر به لأهل بيته فى طفولته ، ولما فيه — كما تقدم — من غريزة حب الذات وطلب البقاء وهؤلاء هم أهل وطنه الكبير . ومحبته لهم — فى العرف العام — هى الوطنية .

فإذا غُذِّى بالعلم الصحيح شعر بالحب لكل من يجد فيهم صورته الإنسانية، وكانت الأرض كلها وطناً له ، وهذا هو وطنه الأكبر .

هذا ترتيب طبيعى لا طفرة فيه ولا معدل عنه . فلا يعرف ولا يحب الوطن الأكبر إلا من عرف واجب الوطن الكبير ، ولا يعرف ولا يحب الوطن الكبير إلا من عرف واجب الوطن الصغير .

والناس إزاء هذه الحقيقة أربعة أقسام :

قسم لا يعرفون إلا أوطانهم الصغيرة وهؤلاء هم الأنانيون الذين يعيشون على أممهم كما تعيش الطفيليات على دم غيرها من الحيوان ، وهم فى الغالب لا يكون منهم خير حتى لأقاربهم وأهل بيتهم .

وقسم يعرفون وطنهم الكبير ، فيعملون فى سبيله كل ما يرون فيه خيره ونفعه ، ولو بإدخال الضرر والشر على الأوطان الأخرى، بل يعملون دائماً على امتصاص دماء الأمم والتوسع فى الملك لا تردهم إلا القوة . وهؤلاء شر وبلاء على غير أممهم، فهم مصيبة البشرية جمعاء .

وقسم زعموا أنهم لا يعرفون إلا الوطن الأكبر، وأنكروا وطنيات الأمم — كما أنكروا أديانها — وعدوها مفرقة بين البشر . وعاكسوا الطبيعة جملة ، وما عرفته البشرية منذ آلاف السنين . ودلائل الفشل على تجربتهم حيث أجروا تجربتهم لا تكاد تخفى .

وقسم اعترف بهذه الوطنيات كلها وأنزلها منازلها، غير عادية ولا معدوٍّ عليها، ورتبها ترتيبها الطبيعى فى تدرجها كل واحدة منها مبنية على ما قبلها ودعامة لما بعدها . وآمن — هذا القسم — بأن الإنسان يجد صورته وخيره وسعادته فى بيته ، وطنه الصغير ، وكذلك يجدها فى أمته، وطنه الكبير ويجدها فى الإنسانية كلها ، وطنه الأكبر .

وهذا الرابع هو الوطنية الإسلامية العادلة ؛ إذ هى التى تحافظ على الأسرة بجميع مكوناتها، وعلى الأمة بجميع مقوماتها ، وتحترم الإنسانية فى جميع أجناسها وأديانها .

فهى تخاطب البشرية كلها فى جميع أجناسها بقوله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

وتخاطبها فى جميع أديانها بقوله تعالى : « لكم دينكم ولى دين » .

وتخاطب جميع الأمم والأوطان بقوله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » ، وبقوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » .

وهذه هى وطنيتنامعشر المسلمين الجزائريين الأفارقة؛ ووطنية كل مسلم صادق فى إسلامه ووطنيته .

وقدأعلناها يوم قلنا على رأس جريدة « المنتقد » :

(الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شىء) : وسرنا على مقتضاها إلى اليوم فى كل ما قلنا وكتبنا، وسنبقى عليها — ككل مسلم جزائرى — حتى نلقى الله ، إن شاء الله .

أشعب الجزائر روحى الفدا   لما فيك من عزة عربيه
بنيت على الدين أركانهـــا   فكانت سلاما على البشريه

* * *

٨ — النص الثامن

الخلافة أم جماعة المسلمين

إن الخلافة هى المنصب الإسلامى الأعلى الذى يقوم على تنفيذ الشرع وحياطته بواسطة الشورى من أهل الحل والعقد من ذوى العلم والخبرة والنظر ، وبالقوة من الجنود والقواد وسائر وسائل الدفاع .

ولقد أمكن أن يتولى هذا المنصب شخص واحد صدر الإسلام وزمناً بعده — على فرقة واضطراب — ثم قضت الضرورة بتعدده فى الشرق والغرب . ثم انسلخ عن معناه الأصلى وبقى رمزاً ظاهرياً تقديسياً ليس من أوضاع الإسلام فى شىء.

فيوم ألغى الأتراك الخلافة — ولسنا نبرر كل أعمالهم — لم يلغوا الخلافة الإسلامية بمعناها الإسلامى ، وإنما ألغوا نظاماً حكومياً خاصاً بهم ، وأزالوا رمزاً خيالياً فتن به المسلمون لغير جدوى ، وحاربتهم من أجله الدول الغربية المتعصبة للنصرانية والمتخوفة من شبح الإسلام .

علمت الدول الغربية المستعمرة فتنة المسلمين باسم (خليفة) فأرادت أن تستغل ذلك مرات عديدة أصيبت فيها كلها بالفشل . . .

كفى غروراً وانخداعا. إن الأمم الإسلامية اليوم — حتى المستعبدة منها — أصبحت لا تخدعها هذه التهاويل ولوجاءتها من تحت الجبب والعمائم !

* * *

للمسلمين — مثلما لغيرهم من الأمم — ناحيتان : ناحية سياسية دولية ، وناحية أدبية اجتماعية .فأما الناحية السياسية الدولية فهذه من شأن أممهم المستقلة ولاحديث لنا عليها اليوم. وأما الناحية الأدبية الاجتماعية فهى التى يجب أن تهتم بها كل الأمم الإسلامية المستقلة وغيرها ، لأنها ناحية تتعلق بالمسلم من جهة عقيدته وأخلاقه وسلوكه فى الحياة فى أى بقعة من الأرض كان ، ومع أى أمة عاش ، وتحت أى سلطة وجد . وليست هذه الناحية الإنسانية المحضة دون الناحية الأولى

فى نظر الإسلام ، ولا دونها فى الحاجة إلى الحفظ والنظام ، لأجل خير المسلمين على الخصوص ، وخير البشرية العام .

إن الأمم الكاثوليكية — مثلا — على اختلاف أوضاعها السياسية وتباين مشاربها وأنظارها فيها ، ترجع فى ناحيتها الأدبية الدينية إلى مركز أعلى هو بابا روما المقدس الشخص والقول فى نظر جميعهم .

نعم ليس لنا — والحمد لله — فى الإسلام بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم شخص مقدس الذات والقول تدعى له العصمة ، ويعتبر قوله تنزيلا من حكيم حميد . ولكن لنا جماعة المسلمين ، وهم أهل العلم والخبرة الذين ينظرون فى مصالح المسلمين من الناحية الدينية والأدبية ويصدورن عن تشاور ما فيه خير أنفسها بعيدة كل البعد عن السياسة وتدخل الحكومات ، لا الحكومات الإسلامية ولا غيرها .

لقد كنت كاتبت صاحب الفضيلة شيخ الأزهر الشريف بهذا المعنى ، ولكننى لم أتلق منه جواباً ، وعرفت السبب يوم بلغنا أن إخواننا الأزهريين هتفوا — يوماً — بالخلافة لملك مصر « السابق » .

وسيرى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر ، أن خيال الخلافة لن يتحقق ، وأن المسلمين سينتهون يوماً ما — إن شاء الله — إلى هذا الرأى[1] .

---

(١) ش : جـ ٢ ، م ١٤ ، ص ٦١ — ٦٣ غرة ربيع الأول ١٣٥٧ هـ — مايو ١٩٣٨ .

٩ — النص التاسع

خطاب عبد الحميد بن باديس
فى الاجتماع العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين
فى ٢٩ رجب ١٣٥٧ [١]

الحمد لله الذى قضى بابتلاء عباده ليظهر حقائقهم ، فيجازيهم على أعمالهم ، والصلاة والسلام على أشرف من قاد الخلق وساقهم ، إلى سعادتهم وكمالهم ، وعلى آله الذين كرم الله أصولهم وجمل أخلاقهم ، وبرهنوا على النسب الشريف بجميل حالهم .

وعلى أصحابه الذين لم يخلق الله من فاقهم ، ولا من ماثلهم فى حالهم ومثالهم ، وعلى كل من تبع طريقهم وتحلى من بعدهم بخلالهم .

أما بعد ، فسلام عليكم يا أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أجمعين ، وسلام على مساجينكم فى المساجين ، وسلام على متهميكم فى المتهمين ، وسلام على منكوبيكم فى المنكوبين ، سجون واتهامات ونكبات . ثلاث لا تبنى الحياة إلا عليها ، ولا تشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحقة إلا على اسمها ، فاليوم — وقد قضى الله للجمعية بهذه الثلاث — أثبتت الجمعية فى تاريخ الإسلام وجودها ، وسجلت فى صحيفة الخلود رسمها ، ونقشت فى قلوب أبناء المستقبل اسمها ، وبرزت فى ذلك كله أسماء أولئك المسجونين والمتهمين والمنكوبين نجوماً متألقة تأخذ بالأبصار .

* * *

أيها الإخوان : إن جمعيتكم أمينة على حفظ الإسلام ولغة الإسلام فى هذه الديار ، فإن قانونها الأساسى ينص على أنها جمعية تهذيبية إرشادية ، تحارب الآفات الاجتماعية

---

(١) مجلة الشهاب الجزء الثامن ، المجلد الرابع عشر شعبان ١٣٥٧ أكتوبر ١٩٣٨ ص ١٠٠ وما بعدها .

وكل ما يحرمه صريح الشرع . وتتدرع لغايتها بكل ما تراه صالحاً نافعاً غير مخالف للقوانين المعمول بها . وأى وسيلة أقرب إلى تهذيب المسلمين ، وأى دواء أنجع فى علاجهم ، من دينهم الإسلام الكريم ؟ وبأى شىء يفهمون هذا الدين ويصلون منه إلى ما فيه من تربية وتهذيب إلا بالعربية لغة القرآن العظيم ؟ وتعلم الإسلام ولغة الإسلام مباح فى أصل القوانين . ولقد صدمت هذه القوانين الأصلية بمعاملات استثنائية رامية ، فى فهم جميع المسلمين ، إلى مقاومة الإسلام ولغة الإسلام ، وذلك هو المشاهد من آثارها فى التغليق والتعطيل .

لقد قامت الجمعية بالدفاع إزاء هذا كله ، وقامت معها جميع الهيئات أو جلها ، حتى تبين أن المسألة مسألة أمة ، لا مسألة جمعية ، وأن المسلمين لا يسكتون عن تعلم دينهم ولغة دينهم بحال .

وقد جيش على الإسلام من ناحية أخرى ، فوضعت الذاتية الإسلامية فى المساومة ، فرفعت الجمعية صوتها بالتحذير والتبيين ، ووجدت من ممثلى الأمة آذاناً صاغية ، ففشلت تلك المساومة وقبرت المسألة من ذلك اليوم . والمجد والخلود للإسلام .

وهكذا لا تفتأ جمعيتكم إن شاء الله دائبة فى سبيل الإسلام والعربية لغة الإسلام فى دائرة القانون العام ، ولو لحقها فى ذلك كل ظلم وعدوان .

أيها الإخوان : قد تعاهدنا فى مثل هذا العيد من السنة الماضية ، تعاهدنا على خدمة مبادئ الجمعية وتوسيع نطاق أعمالها ، ونشر هدايتها ، ونصر كل عامل من رجالها ، بصبر وتضحية وثبات . وقد وفينا — والفضل لله — بهذا العهد ، أو بما استطعنا ، فى السنة الماضية ، فهل أنتم على هذا العهد فيما نستقبل من سنتنا (أصوات بإجماع : معاهدون) .

« والله يعلم أعمالكم ، ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » .

أيها الإخوان : قد اعتدنا فى كل اجتماع عام من اجتماعاتنا أن نرفع شكوانا واحتجاجنا إلى الولاية العامة وإلى الحكومة العليا ، ولم يرد لنا جواب مرة واحدة ، بل يكون الجواب بزيادة الإرهاق وتضييق الخناق .

فصدر قانون النوادى الذى يرمى إلى إخلائها ، وحرمان الكبار من التهذيب فى نواديهم ، بعد ما حرموا منه فى مساجدهم ، وصدر قانون ٨ مارس الذى يرمى إلى إغلاق المدارس وحرمان المسلمين من تهذيبهم ، وتلقين دينهم وآداب دينهم ولغة دينهم . وصار من شروط إعطاء الرخصة للقليل الذى أعطيت له أن يعلم على الكيفية القديمة الخالية من كل تهذيب ، ذات العصا والفلقة والحصير ، وفى العصر الذى تتقدم فيه الأمم كل عام فى أساليب التعليم نُرَدّ نحن إلى الوراء ، فاسمع وتعجب ياعصر المدنية والنور . وصدر أمر الولاية العامة بتحجير القسم الجنوبى من الوطن على كل منتسب للعلماء بينما تعطى الإعانات وتمنح التسهيلات للبعثات غير الإسلامية ، لتنصير أبناء وبنات المسلمين ، وصدرت الإيعازات — وخصوصاً فى الدوائر الممتزجة — إلى القياد[1] ومن إليهم بالابتعاد عن رجال العلم ، مما أحدث تباعداً فى كثير من النواحى بين أبناء العرش الواحد ، بينما نحن نسعى للتقريب والتأليف بين جميع المتساكنين . هذا هو الجواب العملى على شكوانا واحتجاجنا .

وكذلك فى أكثر اجتماعات المجلس الإدارى كنا نصدر البيان إثر البيان عن خطتنا وغرضنا وأن غايتنا من أول أمرنا هى تهذيب المسلمين بدينهم ولغة دينهم فى دائرة القانون ، وإننا نريد من ذلك رفع مستوى المسلمين الجزائريين العقلى والأخلاقى ، ليتعاونوا مع من يساكنونهم بكفاءة وتآخ واحترام ، وإننا نعمل لذلك بواجب ديننا ووحى ضمائرنا ، وإن كل ما أصابنا هو فى سبيل تعليم الدين ولغة الدين ، فلم يرد علينا بجواب واحد ؛ بل يرد علينا بقلب الحقائق ، واختلاق التهم ، وترويج الأباطيل وبعث الأراجيف . فيكون ذلك هو الجواب العملى .

وأيها الاخوان : فنحن مع بقائنا على جميع ما قلنا وبينا ، واستمرارنا فى موقفنا كما كنا ، لا نريد اليوم أن نرفع شكوانا ولا أن نقدم احتجاجنا . وحسبنا فى هذه السنة السكوت . وكفى بالسكوت احتجاجاً عند من عرف وأنصف . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

---

(١) يطلق هذا الاسم على الرؤساء المحليين (Caids)

١٠ — النص العاشر

العرب فى القرآن[١]

من خطاب الأستاذ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فى اجتماعها بنادى الترقى فى ١٩٣٩ .

من الطبيعة العربية الخالصة أنها لا تخضع للأجنبى فى شىء ، لا فى لغتها ولا فى شىء من مقوماتها ، ولذلك نرى القرآن يذكرها بالشرف . . والأنبياء لم يبعثوا إلا فى مناسب الشرف ، ومنابع القوة ، ومنابت العز . . . لأن الأمة التى لا تؤدى ثمن المجد لا تحافظ عليه . ثم هى أمة لا يعتمد عليها فى النهوض بنفسها ولا بغيرها . وإنما ذكرهم الله بذلك لينهضوا بالأمم على ذلك الأساس وهو إحياء الشرف الإنسانى فى نفوسها ، وليعاملوها على ذلك الأساس بالعدل والرحمة والتكريم . . . وإن أعداء البشرية اليوم وقبل اليوم يعملون إلى قتل الشرف من النفوس ليذلوا من هذا النوع ما أعز الله ، ويهينوا ما كرم الله .

والخلاصة أن عناية القرآن بإحياء الشرف فى نفوس العرب ضرورية لإعدادهم لما هيئوا له من سياسة البشر . وبهذا نستعين على فهم السر والحكمة فى اختيار الله للعرب ، للنهوض بهذه الرسالة الإسلامية العالمية ، واصطفائه إياهم لإنقاذ العالم مما كان فيه من شر وباطل . وهذا السر هو أن ما كانوا عليه من شرف النفس وعزتها والاعتداد بها هو الذى هيأهم لذلك . ولو كانوا أذلاء لما تهيأوا لهذا العمل العظيم .

إن الأمة العربية استطاعت أن تنهض بالعالم كله وأن تظهر دين الله على الدين كله .

---

(١) من خطاب ارتجله الأستاذ عبد الحميد بن باديس فى اجتماع الجمعية العام بنادى الترقى . الشهاب الجزء الأول ، المجلد الخامس عشر ص ١٩٣٩ .

١١ — النص الحادى عشر

النص التقريبي لكامل التقرير الأدبي

الذى ألقاه سماحة الأستاذ عبد الحميد بن باديس
بدار جمعية التربية والتعليم ١٣٥٨ هـ
يوم اجتماعها العام صبيحة الأحد ٢٨ مايو ١٩٣٩ م

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وعلى آله وصحبه والتابعين أجمعين إلى يوم الدين .

أما بعد : فباسم جمعية التربية والتعليم الإسلامية ، أرحب بكم أيها المستمعون الكرام ، وأشكركم على تلبيتكم لنداء جمعيتكم الإسلامية الناهضة ، وأهنئكم وأذكركم بأنكم كنتم منذ أربع سنوات خلت تجتمعون فى محلات غيركم .

واليوم — والحمد لله — أصبحتم تجتمعون فى داركم — ولقد كنتم ضعافاً فقواكم الله ، وعززكم ورفع شأنكم .

أولا تثقون بالله ؟ إنكم بلا شك تثقون به ، ومن وثق بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . وإذا كنتم تثقون بالله فثقوا بأنفسكم . فإن من لم تكن له ثقة بنفسه لا تكون له ثقة بالله .

وإذا كنتم تثقون بأنفسكم فثقوا بنفوس مؤمنة صادقة . ولم لا نثق بأنفسنا ؟ وقد أعطانا الله عقولا ندرك بها ، ومواهب نستسخرها لما يرضى الله ورسوله ؟

لنا مواهب مثل ما لغيرنا . ولنا من هذه القومية العربية الخالدة مثل ما لغيرنا ، ولنا من هذا التاريخ الممتد البعيد مجد وملك مثل ما لغيرنا وفوق ما لغيرنا .

ولقد أعطانا الله من هذا الدين الإنسانى ، من هذا الدين العقلى الروحى ؛ ما يكمل عقولنا ويهذب أرواحنا ، أعطانا منه ما لم يعطه لغيرنا . لنكون قادة وسادة .

وأعطانا وطناً شاسعاً واسعاً ، مثل ما لغيرنا ، فنحن إذن شعب ماجد عظيم ، يعتز بدينه ، يعتز بلغته . يعتز بوطنه ، يعتز بقوميته ، يستطيع أن يكون فى الرقى واحداً من هذه الشعوب وأن يفوق كثيراً من هذه الشعوب . ولنا من تاريخه الحافل ما يجعلنا نؤمن بصدق معتقدنا فيه .

إننا نعتصم بالحق ، ونعتصم بالتواضع عندما نقول : إننا شعب خالد ككثير من الشعوب . لكننا ننصف التاريخ إذا قلنا : إننا سبقناها فى ميادين الحياة ، سبقناها بهدايتنا ، ونشرنا بينها الشريعة الحقة قبل أن تتكون هذه الأمم ، وسبقنا هذه الأمم فى نشر الحق ، أيام كانت فى ظلمات من الجهل حالكة ، أيام كانت تسبح فى لجج من الأوهام والخيالات .

ذلك ما كنا فيه ، وما سنعود — إن شاء الله — إليه ، وإنما علينا أن نعرف تاريخنا ، ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لائقة فى هذا الوجود ولا رابطة تربط ماضينا المجيد ، بحاضرنا الأغر ، والمستقبل السعيد . إلا هذا الحبل المتين : اللغة العربية ، لغة الدين ، لغة الجنس ، لغة القومية ، لغة الوطنية المغروسة .

إنها وحدة الرابطة بيننا وبين ماضينا ، وهى وحدها المقياس الذى نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا ، وبها يقيس من يأتى بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين ، أرواحهم بأرواحنا . وهى وحدها اللسان الذى نعتز به ، وهى الترجمان عما فى القلب من عقائد ، وما فى العقل من أفكار ، وما فى النفس من آلام وآمال .

إن هذا اللسان العربى العزيز الذى خدم الدين وخدم العلم . وخدم الإنسان هو الذى نتحدث عن محاسنه منذ زمان ونعمل لإحيائه من منذ سنين ، فليحقق الله أمانينا .

وإن الذى يعلم تاريخ الجزائر الحديث يجزم بأن هذا الشعب شعب حى لن يموت . لقد كان هذا العيد (السنوى) يشاهد قبل عقد من السنين هذا القطر قريباً من الفناء . ليست له مدارس تعلمه . وليس له رجال يدافعون عنه ، ويموتون عليه ، بل كان فى اضطراب دائم مستمر . وياليته كان فى حالة هناء ، وكان أبناؤنا يومئذ لا يذهبون إلا للمدارس الأجنبية ، التى لا تعطيهم غالباً من العلم إلا ذلك الفتات الذى يملأ أدمغتهم بالسفاسف ، حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم ، وقد ينكرونها .

هذه هى الحالة التى كنا عليها فى تاريخنا الحديث . وما كنا لنرضى بها أو نبقى عليها ، وقد ولدتنا أمهات مسلمات جزائريات يأبين إلا أن نبقى كما ولدنا ، وتأبى ثقافتنا إلا أن نرجع إلى ما عليه كنا .

أخذنا نعمل . وهناك من سبقنا فى التفكير بالعمل وهم رجال نادى (صالح باى) رحمه الله — ولا أقول كلهم — لم يكونوا يعملون بوحى من أنفسهم ، بل كانوا يعملون بإيعازات من غيرهم .

فلما بلغ الموعزون وبعض الموعز إليهم إلى غايتهم انتهى كل شىء ، وماتت الجمعية وهى فى المهد ؛ ولم تؤسس أقل تأسيس ، وأصبحت نسياً منسيًّا ، ومضى على ذلك حين من الدهر ، حتى جاء هؤلاء الذين يعملون العمل الخالص لوجه الله فنهضوا نهضة أوجدت ما أنتم ترون ، من اشتراء محل عظيم للتربية والتعليم ، يضم الآن من التلاميذ والتلميذات نحو الثمانمائة ؛ ويضم من الكبار المتعلمين ما يناهز الستين أو السبعين حسب أوقات عملهم الحيوى اللازم .

وإن فيها اليوم لمصنعاً للنسج . وقانون هذه الجمعية ينص عليه . وينص على تعليم العربية والفرنسية لأننا قوم نريد الحياة لأنفسنا كما نحبها لغيرنا . ونكره أن ندخل الضرر على أى كان غيرنا . كما لا نرضى أن يدخل علينا الضرر أىٌّ كان غيرنا . ونحترم لغتنا ومجدنا كما نحترم لغة ومجد غيرنا .

ولأننا قوم نحب الخير فلا نحرم منه أحداً ، وما فتحنا هذه المدرسة إلا لخدمة العلم وأهله . وتربية النشء وتثقيفه . وللجمعية نيات أخرى تنوى أن تقوم بها فى المستقبل إن شاء الله . تنوى أن تبعث البعثات العلمية إلى الخارج ، وتسعى جهدها فى تحقيق ما ينص عليه قانونها الأساسى من تأسيس المصانع والملاجئ والمحلات العامة .

هذه لمحة مختصرة خاطفة ذكرتها لكم عن تاريخكم وتاريخ نهضتكم الجليلة ، أيها الإخوان ؛ وأخيراً أشكركم ، وأشكر الله الذى هداكم ، وأشكر كل من سعى فى تحقيق نيتنا من رجال ونساء .

إننى ابتدأت حديثى بالثقة بالله والاعتماد على النفس واختتمته بهما ، فثقوا بأنفسكم وثقوا بالله . واعتمدوا عليه وعلى أنفسكم واعملوا وكونوا خير خلف لخير سلف[١] .

---

(١) نقله من إلقاء الرئيس محمد الغسيرى ومحمد الصالح رمضان : البصائر : السنة الرابعة عدد ١٧١ قسنطينة يوم الجمعة ٥ جمادى الأولى ١٣٥٨ هـ الموافق ليوم ٢٢ يونية ١٩٣٩ م . ص : ٥ ع ١ ، ٢ ، ٣ وصفحة ٦ ع ١ .

١٢ — النص الثانى عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله وسلم

جواب صريح

تمهيد[١]

ورد سؤال على الأستاذ الجليل محمد بن الحسن الحجوى وزير معارف الحكومة المغربية من الشيخ حافظ إبراهيم ربيشطى من أهل العلم ببلدة شقودرة .

تلخيص السؤال

يدعى المنتسبون للطريقة التجانية :

١ — أن قراءة (صلاة الفاتح) أفضل من تلاوة القرآن ستة آلاف مرة، متأولين بأن ذلك بالنسبة لمن لم يتأدب بآداب القرآن[٢] .

٢ — أن (صلاة الفاتح) من كلام الله القديم ولا يترتب عليها ثوابها إلا لمن اعتقد ذلك[٣] .

٣ — وأن (صلاة الفاتح) علمها النبي صلى الله عليه وآله وسلم لصاحب الطريقة ولم يعلمها لغيره .

٤ — وأن مؤسس الطريقة التجانية أفضل الأولياء

٥ — وأن من انتسب إلى تلك الطريقة يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب، وتغفر ذنوبه الصغار والكبار ، حتى التبعات .

---

(١) رجب ١٣٥٧ هـ — سبتمبر ١٩٣٨ مجلة الشهاب .

(٢) راجع ج ٢ م ٥ من الشهاب .

(٣) راجع ج ٤ م ٥ من الشهاب .

فهل الاندماج فيها غير مناف للشريعة الغراء ؟

الجواب

١ — القرآن كلام الله و (صلاة الفاتح) من كلام المخلوق ، ومن اعتقد أن كلام المخلوق أفضل من كلام الخالق فقد كفر . ومن جعل ما للمخلوق مثل ما لله فقد كفر بجعله لله نداً ، فكيف بمن جعل ما للمخلوق أفضل مما للخالق .

هذا إذا كانت الأفضلية فى الذات ، فأما إذا كانت الأفضلية فى النفع فإن الأدلة النظرية والأثرية قاضية بأفضلية القرآن على جميع الأذكار ، وهو مذهب الأئمة من السلف والخلف . قال سفيان الثورى (رح) : « سمعنا أن قراءة القرآن أفضل من الذكر » نقله القرطبي فى الباب السابع من كتاب « التذكار » وقال النووى (رح) : « واعلم أن المذهب الصحيح المختار الذى عليه من يعتمد من العلماء أن قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل وغيرهما من الأذكار . وقد تظاهرت الأدلة على ذلك » قاله فى الباب الثانى من كتاب التبيان ، ومخالفته مثل هذا موجب للتبديع والتضليل .

(١) وأما زعم من زعم — متأولا لتلك الأفضلية الباطلة — بأن (صلاة الفاتح) خير لعامة الناس من تلاوة القرآن لأن ثوابها محقق ، ولا يلحق فاعلها إثم ، والقرآن إذا تلاه العاصى كانت تلاوته عليه إثماً لمخالفته لما يتلوه . واستدلوا على هذا بقول أنس (رض) الذى تحسبه العامة حديثاً : « رب تال للقرآن والقرآن يلعنه » — فهو زعم باطل لأنه مخالف لما قاله أئمة السلف والخلف من أن القرآن أفضل الأذكار ، ولم يفرقوا فى ذلك بين عامة وخاصة ، ولا بين مطيع وعاص ، ومخالف لمقاصد الشرع من تلاوة القرآن ، وذلك من وجوه :

الأول — أن المذنبين مرضى القلوب ، فإن القلب هو المضغة التى إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، فكل معصية يأتى بها الإنسان هى من فساد فى القلب ومرض به . والله تعالى قد جعل دواء أمراض القلب تلاوة القرآن : « يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور

وهدى ورحمة للمؤمنين » ، « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ، فمقصود الشرع من المسلمين أن يتلوه ويتدبروه ويستشفوا بألفاظه ومعانيه من أمراضهم ، من عيوبهم وذنوبهم . وذلك الزعم الباطل يصرف المذنبين — وأينا غير مذنب — عن تلاوته .

الثانى — أن القلوب تعتريها الغفلة والقسوة والشكوك والأوهام والجهالات ، وقد تتراكم عليها هذه الأدران كما تتراكم الأوساخ على المرآة فتطمسها ، وتبطل منفعتها وقد يصيبها القليل منها ، أو من بعضها ، فلا تسلم القلوب على كل حال من إصابتها ، فهى محتاجة دائماً وأبداً إلى صقل وتنظيف بتلاوة القرآن ، وقد أرشد النبى صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا — فيما رواه البيهقى فى « الشعب » والقرطبى فى « التذكار » — : « إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد . قالوا : يا رسول الله ، فما جلاؤها ؟ ، قال : تلاوة القرآن » فمقصود الشرع من المذنبين أن يتلوا القرآن لجلاء قلوبهم . وذلك الزعم الباطل يصرفهم عنه .

الثالث — أن الوعيد والترهيب قد ثبتا فى نسيان القرآن بعد تعلمه ، وذهابه من الصدور بعد حفظه فيها . فروى أبو داود عن سعد — مرفوعاً — : « ما من امرئ يقرأ القرآن ، ثم ينساه إلا لقى الله أجذم » ، وروى الشيخان عن عبد الله — مرفوعاً — : « واستذكروا القرآن فإنه أشد تفصيا من صدور الرجال من النعم » ، فمقصود الشرع دوام التلاوة لدوام الحفظ ودفع النسيان . وذلك الزعم الباطل يؤدى إلى تقليلها أو تركها .

ومثل هذا الزعم فى البطلان والضلال زعم أن تالى القرآن يأثم بقراءته مع مخالفته . فإن المذنب يكتب عليه ذنبه مرة واحدة ، ولا يكتب عليه مرة ثانية إذا ارتكب ذنباً آخر . وإنما يكتب عليه ذلك الذنب الآخر . فكيف يكتب عليه ذنب ، إذا باشر عبادة التلاوة ؟ والأصل القطعى كتاباً وسنة — أن من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، وهو يبطل أن تجدد له سيئاته إذا جاء بتلاوة القرآن .

وأما قول أنس (رض) : « رب تال للقرآن والقرآن يلعنه » ، فليس معناه أن القرآن يلعنه لأجل تلاوته ، وكيف وتلاوته عبادة ؟ وإنما معناه أنه ربما تكون له

مخالفة لبعض أوامر القرآن أو نواهيه من كذب أو ظلم مثلا، فيكون داخلا فى عموم لعنه للظالمين والكاذبين . وهذا الكلام خرج مخرج التقبيح للإصرار على مخالفة القرآن مع تلاوته بعثاً للتالى على سرعة الاتعاظ بآيات القرآن وتعجيل المتاب ، ولم يخرج مخرج الأمر بترك التلاوة والانصراف عنها . هذا هو الذى يتعين حمل كلام هذا الصحابى الجليل بحكم الأدلة المتقدمة . ونظيره ما ثبت فى الصحيح : «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه » ، قال الشراح — واللفظ للقسطلانى — : «وليس المراد الأمر بترك صيامه إذا لم يترك الزور، وإنما معناه التحذير من قول الزور . فهو كقوله عليه الصلاة والسلام : "باع الخمر فليشقص الخنازير" أى يذبحها، ولم يأمره بشقصها . ولكنه التحذير والتعظيم لإثم شارب الخمر . وكذلك حذر الصائم من قول الزور والعمل به ليتم له أجر صيامه »، هذا فيمن يرتكب الزور، وهو صائم، فيكون متلبساً بالعبادة والمخالفة فى وقت واحد، فكيف بمن كان ذنبه فى غير وقت عبادة التلاوة، فالمقصود من كلام أنس تحذيره من الإصرار على المخالفة وترغيبه فى المبادرة بالتوبة ، ليكمل له أجر تلاوته بكمال حالته .

٢ — وليس عندنا من الله إلا القرآن العظيم . هذا إجماع المسلمين حتى أن ما يلقيه جبريل عليه السلام فى روع النبى صلى الله عليه وآله وسلم سماه الأئمة بالحديث القدسى ، وفرقوا بينه وبين القرآن العظيم ولم يقولوا فيه كلام الله . ومن الضرورى عند المسلمين أن كلام الله هو القرآن وآيات القرآن ، فمن اعتقد أن (صلاة الفاتح) من كلام الله فقد خالف الإجماع فى أمر ضرورى من الدين، وذلك موجب للتكفير .

٣ — قد بُعث النبى صلى الله عليه وآله وسلم معلماً كما صح عنه ، وعاش معلماً إلى آخر لحظة من حياته ، فتوفاه الله تعالى نبياً رسولا . ونقله للرفيق الأعلى ، وقد أدى الرسالة ، وبلغ الأمانة ، وانقطع الوحى وانتهى التبليغ والتعليم . وترك فينا ما إن تمسكنا به لن نضل أبداً ، وهو كتاب الله وسنته ، كما صح عنه ، هذا كله مجمع عليه عند المسلمين وقطعى فى الدين . فمن زعم أن محمداً مات ، وقد بقى شىء لم يعلمه للناس فى حياته ، فقد أعظم على الله الفرية ، وقدح فى تبليغ الرسالة وذلك كفر . فمن اعتقد أن (صلاة الفاتح) علمها النبى صلى الله

عليه وآله وسلم لصاحب الطريقة التجانية دون غيره كان مقتضى اعتقاده هذا أنه مات ولم يبلغ وذلك كفر . فإن زعم أنه علمه إياها فى المنام فالإجماع على أنه لايؤخذ شيء من الدين فى المنام ، مع ما فيه من الكتم وعدم التبليغ المتقدم .

هذا وقد ثبت فى الصحيح أن الصحابة رضى الله عنهم سألوا النبى صلى الله عليه وآله وسلم كيف يصلون عليه ، فانتظر الوحى وعلمهم الصلاة الإبراهيمية، وقد تواترت فى الأمة تواتراً معنويًّا ، ونقلها الخلف عن السلف ، طبقة عن طبقة ، وأجمع الناس على مشروعيتها فى التشهد . ومن مقتضى الاعتقاد الباطل المتقدم أنه (ص) كتم عن أفضل أمته ما هو الأفضل ، وحرم منه قروناً من أمته وهو الأمين على الوحى وتبليغه ، الحريص على هداية الخلق وتمكينهم من كل كمال وخير ، فمن قال عليه ما يقتضى خلاف هذا فقد كذب عليه وكذب ما جاء به . ومن رجح صلاة على ما علمه هو (ص) لأصحابه (رض) بوحى من الله ورسوله، واختيار منه تعالى فقد دخل فى وعيد : « ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً » .

٤ ـــ لا تثبت الأفضلية الشرعية إلا بدليل شرعى ، ومن ادعاها لشيء بدون دليل فقد تجرأ على الله ، وقفا ما ليس له به علم . وقد أجمعت الأمة على تفضيل القرون المشهود لها بالخيرية من الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام . فاعتقاد أفضلية صاحب الطريقة التجانية تزكية على الله بغير علم، وخرق للإجماع المذكور، موجب للتبديع والتضليل .

٥ ـــ عقيدة الحساب والجزاء على الأعمال قطعية الثبوت ضرورية العلم . فمن اعتقد أنه يدخل الجنة بغير حساب فقد كفر .

فالمندمج فى الطريقة التجانية على هذه العقائد ضال كافر . والمندمج فيها دون هذه العقائد عليه إثم من كثّر سواد البدعة والضلال .

ثم هاكم من جواب الأستاذ عن فصول السؤال ، مايؤيد جوابنا مع تعليقنا عليه:

« ومن المكر الخفى والكيد للإسلام المنطوى تحت هذه المقالة تزهيد الناس

فى القرآن العظيم وفى تلاوته ثم الإعراض عنه إلى ما هو أخف عملا ، وفى الميزان أثقل فى زعمهم الباطل . وإنى لأعجب لمسلم استنار قلبه بنور القرآن يقبل هذه المقالة فى الإسلام ، فلا حول ولا قوة إلا بالله » .

لهذا وغيره نقول إن الطريقة التجانية ليست كسائر الطرق فى بدعها ، والمشاهد اليوم من أضرارها ، ودعنا من حديث ماضيها بما فيه ، بل هى طريقة موضوعة لهدم الإسلام تحت اسم الاسلام ، فإن كتبها وأقوال أصحاب صاحبها مطبقة على هذه الطوام وأكثر منها ، فلا تجد فى كتبهم ما هو خالص منها ، حتى يمكن أن يكون هو الأصل ، وأن غيره مدسوس. وإنك لتجد هذه الكتب محل الرضى والقبول والتقديس عند جميع أتباع الطريقة ، عالمهم وجاهلهم ، ولو كان عالمهم عاملا بالكلمة المنسوبة إلى صاحب الطريقة ، والله أعلم بصحة نسبتها : (زنوا كلامى بميزان الكتاب والسنة) — لأعدموا تلك الكتب أو حرموا على جماعتهم قراءتها ، أو حذفوا منها هذه الكفريات والأضاليل ، أعلنوا البراءة منها للناس . لكن شيئاً من ذلك لم يقع . وإنما يطنطنون بتلك الكلمة قوليًّا ، ويقرون تلك الكتب وما فيها عمليًّا . وماذا يفيد القول مع التقرير العمل ؟ ولهذا ، رغم من كان فى هذه الطريقة من أناس مشهورين بالعلم كالشيخ الرياحى ، فإن الحالة هى الحالة ، وتلك الكفريات والأضاليل فاشية منتشرة فى أتباع الطريقة إلى اليوم .

قال الأستاذ الحجوى — بعد ما نقل أقوالهم فى ضمان شيخهم ومضاعفة الأجور لهم ودخولهم الجنة بغير حساب : « فكأنها (الطريقة التجانية) ورقة حماية من دولة لها سلطة عالية ، تعالى من يجير ولا يجار عليه ، فكأنهم نسوا القرآن » .

فبهذا صارت الطريقة التجانية فى نظر أهل العلم بالسنة والكتاب كأنها مسجد الضرار ضد الإسلام . فالله يقول فى نبيه خاتم النبيين ، وهم يقولون فى الشيخ التجانى هو الختم وهو لبنة التمام للأولياء. فحجروا على الله ملكه ، وقطعوا المدد المحمدى ، وهم لا يبالون أو لا يشعرون ، وحتى إن شعروا فالمقصد يبرر الواسطة ، وإذا سمعوا أن النبى أفضل النبيين قالوا إن التجانى رجله على رقبة كل ولى لله ، بهذه العبارة الجافة من كل أدب ، الجارحة لعواطف كل مسلم ، لأن الولى فى عرفهم يشمل النبى ، إذ يقولون إن ولاية النبى أفضل من نبوته ، ولا يبالون أن يكون أصحابهم أفضل

من أبى بكر وعمر والعشرة المبشرين بالجنة الذين كانوا يخافون الحساب، ولا يأمنون العقاب، ولم يكن عندهم بشارة بالنجاة منهما، إذ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » .

دعا الإسلام إلى الجد ومحاسبة النفس والعمل على الخوف والرجاء فى جميع نواحى الحياة الدنيا، على أن يكون ذلك على السداد والإخلاص ليكون ذخراً لسعادة الأخرى، فجاءت عقيدة ضمان الشيخ ودخول الجنة بلا حساب هادمة لذلك كله. وقد ظهرت آثارها بالفعل كما حكاه الأستاذ الحجوى فيما يلى :

« حكى لى بعض القضاة قال : كان فى محكمتى تسعون عدلا فى البادية . وقد تقصيت أخبار الصالح والطالح منهم لأعلم مقدار ثقتى بهم فى حقوق المسلمين ، فوجدت عشرين منهم متساهلين لا يؤتمنون على الحقوق ، وحين دققت النظر فى السبب تبين لى أنهم جميعاً تجانيون ، فبقيت متحيراً حتى انكشف لى أن السبب هو اتكالهم على أنه لا حساب ولا عقاب يترصدهم فانتزع الخوف من صدورهم » .

هذا فى العدول، وهم من أهل العلم، فكيف بالعامة؟ فهذه الطريقة ما وضعت إلا لهدم الإسلام، ولا أجزم بأن صاحبها هو الذى وضعها هذا الوضع، فقد يكون فيمن اتصل به من كاد هذا الكيد، ودس هذا الدس، وليس مثل هذا الكيد جديداً على الإسلام . قال الإمام ابن حزم فى كتاب « الأحكام » ج ٣ ص ٢١ : « فإن هذه الملة الزهراء الحنيفية السمحة كيدت من وجوه جمة ، وبغيت لها الغوائل من طرق شتى ، ونصبت لها الحبائل من سبل خفية، وسعى عليها بالحيل الغامضة، وأشد هذه الوجوه سعى من تزيا بزيهم ، وتسمى باسمهم ، ودس لهم سم الأساود فى الشهد والماء البارد ، فلطف لهم من مخالفة الكتاب والسنة ، فبلغ ما أراد ممن شاء الله تعالى خذلانه . وبه تعالى نستعيذ من البلاء ، ونسأله العصمة بمنه ، لا إله إلا هو» .

* * *

١٣ – النص الثالث عشر
الطرقية[1]

كان الناس كأنهم لا يرون الإسلام إلا الطرقية . وقد زاد ضلالهم ما كانوا يرون من الجامدين والمغرورين من المنتسبين للعلم من التمسك بها ، والتأييد لشيوخها :
فلما ارتفعت دعوة الإصلاح فى « المنتقد » و « الشهاب » حسب الناس أن هدم تلك الأضاليل التى طال عليها الزمان ، ورسخها الجهل ، وأيدها السلطان — محال . ولقد صمد « الشهاب » للطرقية يحارب ما أدخلته على القلوب من فساد عقائد، وعلى العقول من باطل أوهام ، وعلى الإسلام من زور وتحريف وتشويه ، إلى ما صرفت من الأمة عن خالقها بما نصبت من أنصاب ، وشتت من كلمتها ، بما اختلقت من ألقاب ، وقتلت من عزتها ، بما اصطنعت من إرهاب ، حتى حقت للحق على باطلها الغلبة . فهى اليوم معروفة عند أكثر الأمة حقيقتها ، معلومة غايتها ، مفضوحة دوافعها . . . إذا دعاها داعى السلطان لبت خاضعة مندفعة ، وإذا دعاها داعى الأمة ولت على أعقابها مدبرة . ومن نكاية الله بها أن جعل أكبر فضيحتها على يد من يريد — ممن تولتهم من دون الأمة — ملحها بما لها من مزايا عليه .

لا يهمنا اليوم أن نجهز على الجريح المثخن الذى لم يبق منه إلا ذماء ، وإنما يهمنا أن نبين موقفنا مع البقية من شيوخنا ونسمعهم صريح كلمتنا .

حاربنا الطرقية لما عرفنا فيها — علم الله — من بلاء على الأمة من الداخل ومن الخارج، فعملنا على كشفها وهدمها مهما تحملنا فى ذلك من صعاب . وقد بلغنا غايتنا والحمد لله، وقد عزمنا على أن نترك أمرها للأمة، هى التى تتولى القضاء عليها ، ثم نمد يدنا لمن كان على بقية من نسبته إليها لنعمل معاً فى ميادين الحياة على شريطة واحدة: وهى أن لايكون آلة مسخرة فى يد نواح اعتادت تسخيرهم، فكل طرقى مستقل فى نفسه عن التسخير فنحن نمد يدنا له للعمل فى الصالح العام،

---

(١) مجلة الشهاب محرم ١٣٥٧ هـ – مارس ١٩٣٨ .

وله عقليته لا يسمع منا فيها كلمة ، وكل طرق – أو غير طرق – يكون أذناً سماعة وآلة مسخرة ، فلا هوادة بيننا وبينه حتى يتوب إلى الله .

قد نبذنا إليكم على سواء . . « إن الله لا يحب الخائنين » .

هذا عرض سريع لصور من الماضى والحاضر ، لنواح عديدة من الأمة والوطن وما يتصل بهما ، يبين ما كان من تأثير تلك الأصول الإسلامية ، التى تمسك بها « الشهاب » – فيها . فالله نرجو أن يثبتنا على الحق ويعيننا على الصدع به ، وصدق تنفيذه . وحسن تبليغه . حتى يبلغ المسلمون كل خير وسعادة وكمال .

١٤ – النص الرابع عشر

الجزائر المسلمة
تبرهن فى أحرج مواقفها
على تمسكها بشخصيتها : بإسلامها وعروبتها[١]

كبر على الرجعيين وأشباه الرجعيين بفرنسا أن يعطوا الحقوق الانتخابية البرلمانية لعدد لا يتجاوز خمسة وعشرين ألفاً من الأمة الجزائرية ، ما داموا محافظين على شخصيتهم وقوميتهم . كما يقتضيه « بروجى ڤيوليت » [٢] ورأوا أنهم لا يمكن أن ينعموا على الأمة الجزائرية بهذه النعمة إلا إذا رضيت بمحو شخصيتها والانسلاخ من دينها . ثم منهم من صدر فى رأيه هذا عن كيد للأمة الجزائرية لصدها عن نيل ذلك الحق الطفيف ، لأنه يعلم أنها لا تتنازل عن شخصيتها فيجد المبرر لحرمانها ، وهذا هو الأكثر . ومنهم من صدر عن حسن قصد مغتراً بكلمات طائشة من أفراد قالوها عن غضب أو قلة تبصر ، فحسب أن الأمة الجزائرية تخضع للأمر الواقع إذا ألزمت بمحو شخصيتها والانسلاخ عن دينها ، فأراد أن يحسن إليها ، ويرغم عتاة الاستعمار خصومها . فأصبحت الجزائر من هذين القسمين بين حرمانها من كل حق لها ، وسلبها من أعز كل عزيز عليها ، موقف – والله – من أحرج مواقفها .

لقد كانت عبارة « بروجى ڤيوليت » قبل « المؤتمر الإسلامى الجزائرى » غير صريحة فى المحافظة على الشخصية الإسلامية ، وكان قسم عظيم من الأمة ذاهبا مع تياره ، رغم ذلك الإبهام . فلما انعقد المؤتمر فى ٧ جوان ١٩٣٦ كان عمل العلماء فيه المحافظة على تلك الشخصية حتى أعلن المؤتمر بالإجماع لزوم المحافظة عليها . فلما عرض م فيوليت بروجيه [مشروعه] على وزارة الجبهة الشعبية الأولى التى كان وزيراً فيها

---

(١) الشهاب ذى الحجة ١٣٥٦ هـ – فبراير ١٩٣٨ .
(٢) أى مشروع ڤيوليت .

حور بروجيه [مشروعه] نزولا— عند كلمة الأمة ، فصرح فيه بلزوم المحافظة على الشخصية الإسلامية .

فلما قامت سوق الكلام على هذا « البروجى » فى هذه المدة الأخيرة صرح بعض النواب الفرنسيين من الجزائر بأن المحافظة على الشخصية الإسلامية إنما هى وضع العلماء ، وتطرفت صحيفة استعمارية كبيرة فجعلته من تعصب بن باديس . لكنه ما كادت الأمة تسمع بالمساومة على شخصيتها حتى قامت من جميع نواحى الوطن بالاعتراض والاستنكار . فنشر العلماء بيانا وتحذيراً للأمة والحكومة فى جريدة « البصائر »، وأوفدت جمعية النواب لعمالة قسنطينة وفداً وجمعية النواب لعمالة الجزائر وفداً ، وجمعية النواب لعمالة وهران وفداً ، والنواب الماليون والعماليون غير الداخلين فى الجمعيات وفداً . وذهبت تلك الوفود كلها إلى باريس . ومعها وفد من رجال الواجهة الشعبية للمطالبة « ببروجى » فيوليت ، مع المحافظة التامة على الشخصية الإسلامية ، ولو أدى ذلك إلى الحرمان من كل حق .

فكانت هذه كلمة الأمة الحازمة الحاسمة ، وكانت هى الدليل القاطع على أن العلماء فى كل ما يقومون به من خدمة الإسلام والعربية لبقاء الذاتية الإسلامية والشخصية القومية هم باسم الأمة يعملون ، وبلسانها ينطقون ، وإن كل من خذلهم فى خدمتهم فقد خذل الأمة ، وكل من أيدهم فى خدمتهم فقد أيد الأمة .

فنحن نهيب بفرنسا التى لا نرى من مصلحة الجزائر فى الوقت الحاضر قطعاً أن تتراخى علاقاتها بها — أن تحترم الأمة الجزائرية فى إسلامها وعربيتها ، وتنيلها حقوقها . ونلفت نظر كل نائب إلى ما عليه من واجب فى حماية الإسلام والعربية اللذين هما أعز كل عزيز على الأمة التى هو نائب عنها . وكفى بكلمتها الإجماعية التى قالتها فى مؤتمرها ، وفى هذا الموقف الحرج من مواقفها — دليلا على منزلتهما عندها .

* * *

١٥ – النص الخامس عشر

كلمة مرة

لأنها صريح الحق ولباب الواقع[1]

إن تربيتنا العلمية الدراسية المبنية على بيان الحقيقة وإجلائها على ما هى عليه صيرتنا لا نستطيع شيئاً من المواربة والتلبيس .

نعرف كثيراً من أبنائنا الذين تعلموا فى غير أحضاننا ينكرون – وربما عن غير سوء قصد – تاريخنا ومقوماتنا ، ويودون لو خاعنا ذلك كله واندمجنا فى غيرنا . وكنا نرد عليهم بالقول فى كل مناسبة تبدو منهم فيها مثل هذه البوادر السامة الخاطئة . ووقع مرة أن كتب بعضهم – وهو ممن له قيمة معتبرة عندنا – ما هو صريح أو كالصريح فى ذلك الضلال المهلك فرأينا من الواجب علينا أن نرد عليه بـ (كلمة صريحة) نعرب بها فى يقيننا عن الحقيقة التى يعتقدها الشعب الجزائرى – إلا الشاذ – فى صميم نفسه فقلنا فى كلمتنا تلك : « الأمة الجزائرية أمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا . ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال ، ولها وحدتها الدينية واللغوية ، ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح ، شأن كل أمم الدنيا .

ثم إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هى فرنسا . ولا يمكن أن تكون فرنسا . ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت ؛ بل هى أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد فى لغتها وفى أخلاقها وفى عنصرها وفى دينها ، لاتريد أن تندمج . ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائرى بحدوده الحالية المعروفة والذى يشرف على إدارته العليا السيد الوالى العام المعين من قبل الدولة الفرنسية » .

فجلّينا بكلمتنا هذه الحقيقة مكشوفة فى وضح النهار وقطعنا الطريق على كل

---

(١) مجلة الشهاب . رمضان ١٣٥٦ هـ – نوفبر ١٩٤٧ .

متقول بالباطل ، وأرحنا كل باحث ومتردد من بحثه وتردده .

وإلى ذلك فإننا لم نكن خياليين ننكر الواقع ونكابر فى المحسوس فقد ختمنا كلمتنا بإشراف الوالى العام وتعيينه من الدولة الفرنسية .

حقًّا لقد أثرت كلمتنا الصريحة أثرها ، وبلغت حيث أردنا أن تبلغ . فمن يوم قلناها إلى اليوم ما زال يتردد صداها فى الصحافة وفى المجالس وفى المؤتمرات ، ومن أظهر مظاهر ذلك قيام م. فرسينانق بها فى مجلس الشيوخ فى السنة الماضية ، وإعادتها فى المؤتمر الراديكالى المنعقد أخيرًا . كل ذلك يحاولون به الاحتجاج بها — وهم يعلمون أنها عبرت حقًّا عن حقيقة الأمة الجزائرية وعقليتها — على منع الأمة الجزائرية من نيل حقوقها .

لقد أخطأتم خطأً بعيداً أيها السادة !

إن الأمة الجزائرية تطالب فرنسا بحقوقها لما دفعته من ثمن من دماء أبنائها ، ولمواقفها الصادقة مع فرنسا فى أيام شدتها ، ولما هى قائمة به لفرنسا من كل ما حمل عليها . وهذا حق لا يستطيع أن ينكره أحد يحترم نفسه ويقدر عواقب التاريخ قدرها .

فأما أن تبذل الأمة الجزائرية فى نيل تلك الحقوق شيئاً من كيانها فهذا ما لا يخطر ببالها ولا يستطيع أحد ممن يتولى شيئاً من أمورها من أبنائها أن يعرضه عليها ، ولو حاول أحد ذلك لنبذته نبذ النواة والحذاء المرقع ، كما نبذت من نبذت . . .

ونحن بهذا نتحدى كل من يكون على خلاف رأينا

فهل من أحد يستطيع أن يكذبنا ؟

* * *

الفهرس

صفحة

صفحة

الفصل الثالث

الفكر السياسى للإمام بن باديس

الفصل الرابع

فلسفة الإمام بن باديس

الفصل الخامس

دراسة مقارنة للإمام بن باديس والماتريدى وابن رشد

صفحة

الفصل السادس

نصوص من تفسير الإمام بن باديس ومن كتاباته وخطبه

رقم الإيداع	١٩٧٩/٢٨٤٩
الترقيم الدولى	٩٧٧ – ٢٤٧ – ٦٥٩ – ٢ ISBN

٦/٧٩/٩٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

ABDEL-HAMID BEN BADIS

LE CHEF SPIRITUEL

de

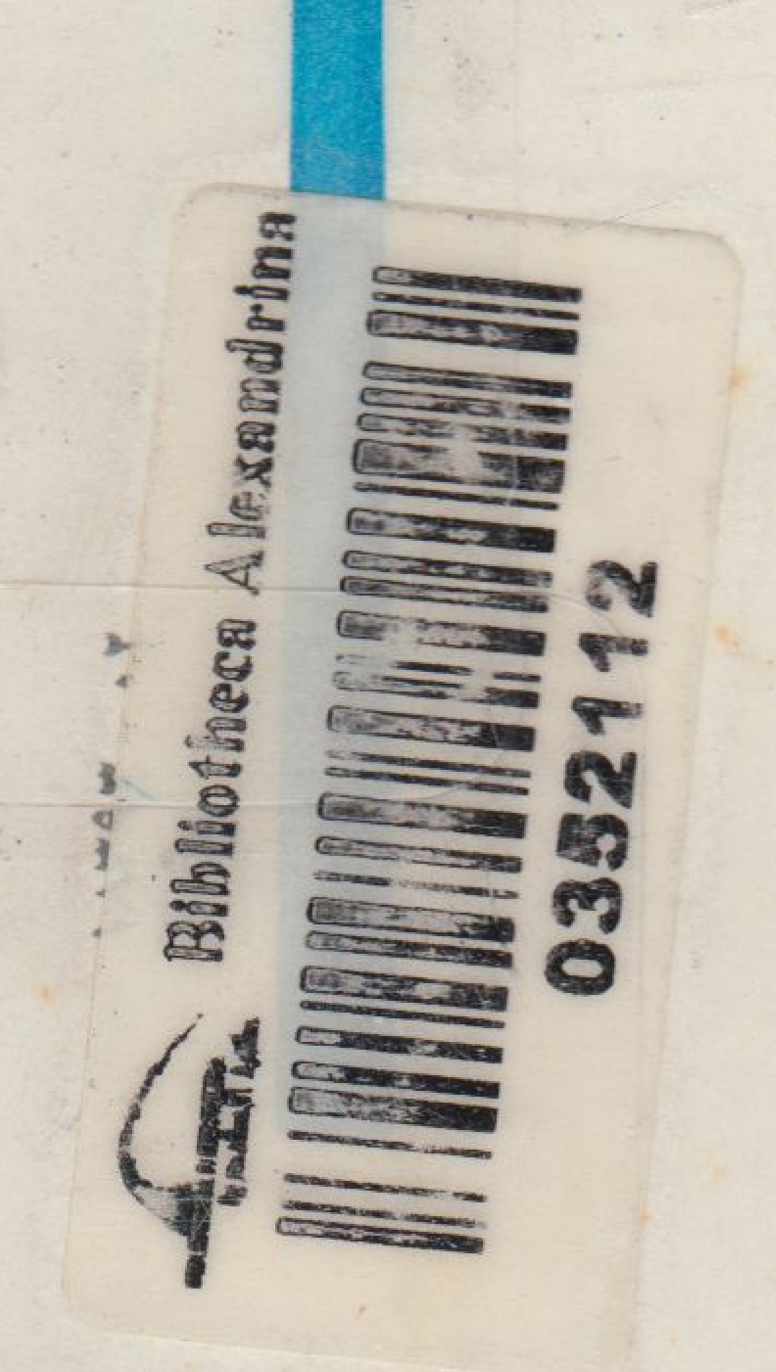
LA GUERRE DE LA LIBERATION ALGERIENNE

Par

Dr. Mahmoud Kassem

Doyen de la Faculté de Dar el Oloum

Université du Caire





DAR AL-MAAREF,